الاسماعيليون والمغول

و

نصير الدين الطوسي

حسن الأمين

مركز الغدير للدراسات الإسلامية

الإسماعيليون والمغول و نصير الدين الطوسي

حسن الأمين

الغدير
بيروت - لبنان

الطبعة الأولىٰ

١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م

الغدير
للطباعة والنشر والتوزيع

حارة حريك ـ بناية البنك اللبناني السويسري

هاتف: ٦٤٤٦٦٢ ـ ٠٣ ـ فاكس ٦٠١٠١٩ ص.ب ٥٠/ ٢٤ بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة أولى

يعيد المؤرِّخ السيد حسن الأمين قراءة التاريخ العربي ـ الاسلامي وكتابته. وهذه مهمة نهض بأدائها، منذ أن رأى أنَّ هذا التاريخ كتب، في معظم صفحاته، من وجهة نظر السلطان، وفي بعضها من وجهة نظر موضوعية، تتحرى الحقيقة ما أمكن، فشاعت الكتابة الأولى وسادت، وتمَّ تناقلها من جيل إلى آخر بوصفها مسلمات لا تحتاج إلى إعادة نظر ونقاش، وإن حاول بعضهم ذلك يُتَّهم كأنه يعيد النظر في ما غدا من المقدسات، في حين بقيت الصفحات الأخرى مطويَّة لم ينظر فيها.

يحاول المؤرخ الأمين، وهو يعي هذه الحقيقة، أن يؤدي مهمته الشاقة، فيعيد قراءة الصفحات جميعها: ما غدا مسلمات وما طوي، وينظر في ما يتحصل لديه بفكر المؤرخ المحقق، ورصانة العالم المعني ببيان الصَّواب، وجرأة الباحث عن الحقيقة، يكتشفها ويكشفها للقارىء بلغة سهلة الأداء عميقة المؤدى في آن.

يواصل المؤرخ الأمين، في هذا الكتاب، نهجه الذي أشرنا إلى ملمحه العام فيكتب في ثلاث قضايا تاريخية كبرى، هي: الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي. قيل بشأن كل منها الكثير، وسادت لدى الرأي العام رؤية معينة إليها تمثل وجهة نظر فئة من المؤرخين.

وقد أعاد المؤلف البحث في هذه القضايا الإشكالية وتبينت له حقائقها، فكتب ما تبين له، غير زاعم أنه وحده المصيب، فالمجال مفتوح للنقاش العلمي الموضوعي، وهذا هو السبيل الوحيد لاعادة قراءة التاريخ العربي ـ الاسلامي وكتابته. وهذا ما يراه المؤرخ السيد حسن الأمين ويدعو إليه، وقد تبين ذلك لكثير من الكتاب فشهدوا به وأيدوه به، ونقدم في ما يلي إحدى هذه الشهادات التي جاءت في إحدى الصحف، وصلة صاحبها بالمؤلف صلة للرَّغبة في معرفة حقائق تاريخنا فحسب.

مركز الغدير للدراسات الاسلامية

بيروت

على أثر صدور كتاب «الوطن الإسلامي بين السلاجقة والصليبيين» للمؤلف، نشر الأستاذ جان صدقة المقال التالي في جريدة نداء الوطن:

حسن الأمين يعيد قراءة التاريخ بجرأة والتزام

لم تهدأ إلى الآن الضجة التي أثارها المؤرخ السيد حسن الأمين في كتابه «صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين»، رداً على مؤتمر جرى في بيروت في ربيع ١٩٩٤ تكريماً للقائد العربي. فنُظمت ضده حملة اعلامية شرسة هاجمت كتابه في مقالات نشرت في عدد غير قليل من الصحف والدوريات اللبنانية والعربية، والهدف دحض نظريته التاريخية بأن صلاح الدين سلم فلسطين للفرنجة، واتصفت الحملة بكثير من التهجم والحقد.

في هذا المناخ، يواصل المؤرخ السيد حسن الأمين، في كتابه الجديد «الوطن الاسلامي بين السلاجقة والصليبيين»، ما كان بدأه في كتابه السابق عن صلاح الدين الايوبي من قراءة جديدة للتاريخ، فيبدو أن الكتاب رد حاسم على أقوال سبق أن اعلنها الدكتور عمر تدمري، أحد وجوه مؤتمر صلاح الدين الأيوبي، حول العلاقة بين الفاطميين الاسماعيليين الشيعة في مصر، والسلاجقة والأتراك والعباسيين السنة في العراق، والخلاف الشديد الذي أدى إلى صراع عسكري بينهم انهك بلاد الشام وجعلها تستسلم صاغرة للهجوم الصليبي.

يرفض المؤرخ السيد حسن الأمين الخطاب التاريخي السياسي للدكتور عمر تدمري ويتهمه بالجهل كل الجهل، لتاريخ تلك الحقبة من حياة العالم الاسلامي، أو عارفاً بالحقائق مزيفاً لها (ص٨)، موضحاً انه لم يكن هناك احتكاك بين الفاطميين الشيعة في مصر والسلاجقة السنة في العراق، كما ان بلاد الشام لم تكن أبداً مسرحاً للصراع العسكري، والسياسي والمذهبي بين السلاجقة والفاطميين.

بين السلاجقة والفاطميين

يفصل السيد الأمين أصل السلاجقة الذين يتحدرون من القبائل التركية التي عرفها العرب باسم «الغز» وسيطرتهم على العراق بقيادة طغرل بك منهياً الحكم البويهي الشيعي، ويلاحظ الباحث أن البغداديين السنيين هم الذين بادروه بالمقاومة والثورة، في حين قابله الشيعة بالهدوء والسكينة وحماية جنوده من الاعتداءات السنية عليهم ما يدفع إلى الوقوف وقوفاً طويلاً أمام هذا الأمر، وهو ما فعله السيد الأمين شارحاً المواقف استناداً إلى تاريخ ابن الاثير بشكل خاص، لكن الفاتحين لم ينسوا أن يخصوا الشيعة الذين لم يشاركوا في الثورة عليهم، وحموا جنودهم من القتل، بنوع من الجور الشديد والفظيع (ص٥٣).

هذا في العراق، أما في مصر، فيؤكد السيد الأمين أن طغرل بك كان هو البادىء بالتحرش بالخليفة الفاطمي المستنصر في مصر حين كاتبه طالباً إليه الدخول في طاعته. وهو بذلك يوضح للدكتور عمر تدمري حقائق عديدة، أهمها عدم قيام صراع بين الفاطميين والسلاجقة لسبب واحد، وهو أنه لم يكن هناك حكم فاطمي يصارع السلاجقة ويزاحمهم على امتلاك البلاد، لأن الحكم الفاطمي عند بدء الهجمات السلجوقية على بلاد الشام كان قد بدأ بالانهيار، ثم انهار فعلاً بالتسلط الجمالي (ص٩٣). ويخصص الباحث فصلاً يشرح فيه كيفية سيطرة الجماليين استناداً إلى المقريزي مستنتجاً أنه لم يكن هناك فاطميون يرون في مجيء الصليبيين إلى الشام ما يحقق اهدافهم في القضاء على خصمهم أو الحد من خطره ونفوذه، بل كان هناك جماليون انهوا حكم الفاطميين وحلوا محلهم، واضعاً الدكتور عمر تدمري أمام خيارين: الجهل أو التعصب الأعمى (ص١٠٥) مفرداً صفحات عديدة تهاجمه لاسترساله في التزييف ولتبنيه الأكاذيب المصوغة بالبذاءة وانعدام الحياء (ص١٣١).

... وبينهم وبين الخوارزميين

لا يتوقف السيد الأمين عند هذا الحد في رده على الدكتور تدمري، إنما يوضح في فصل خاص كيف سلم السلاجقة باب العالم الاسلامي مفتوحاً للصليبيين فدخلوا منه إلى القدس (ص١٣٣) مفصلاً أن الغرب الاسلامي كان يعاني المحنة على أيدي الصليبيين، فيما الشرق الاسلامي يعاني المحنة نفسها على أيدي السلاجقة (ص١٦٣)، منهياً بالحديث عن حركة المرابطين (الملثمين) ومعاملتهم الفاطميين بالشدة والقسوة.

وفي حديثه عن الحال في غرب العالم الاسلامي، يتناول السيد الأمين الخلاف بين البيزنطيين والصليبيين شارحاً أنه كان بامكان السلاجقة أن يغتنموا هذا الغضب البيزنطي فيتحالفوا مع صاحبه للتخلص من الصليبيين، لكنهم (السلاجقة) كانوا في هم آخر غير هم تخلص الأرض الاسلامية من الصليبيين، هو تخلص بعضهم من بعض (ص٢١٣). ثم ينتقل إلى العلاقة بين السلاجقة والخوارزميين، وبين الخوارزميين والاتراك، وظهور المغول الذين زحفوا على العالم الاسلامي بقيادة جنكيز خان سنة ٦١٦.

... وبينهم وبين بني عمار

في الفصل الأخير من الكتاب، يتناول السيد الأمين دولة بني عمار في طرابلس وعلاقتها بالسلاجقة وكيفية تأسيسها وازدهارها واهمية الحركة الثقافية فيها، فضمت مكتبة يقال انها كانت تحتوي على ثلاثة ملايين كتاب، كما عرفت طرابلس في تلك الفترة حركة شعرية ناشطة. وحول العلاقة بين بني عمار والسلاجقة، يستند السيد الأمين إلى تاريخ ابن الأثير، ودخول الصليبيين اليها في سنة ٥٠٣ هـ.

قراءة جديدة للتاريخ

لا شك بأن السيد الأمين، في قراءته الجديدة للتاريخ الاسلامي، يثير الجدل في كثير من النقاط والمواقع، والحقيقة أنها قراءة رزينة تتصف بالعلمية والموضوعية والمنهجية التاريخية التي يفتقر إليها الشرق العربي عموماً ولبنان خصوصاً، ولعل الفضيلة الأبرز عند المؤرخ السيد الأمين جرأته والتزامه قول الحقيقة، وهو ما لمحناه مرات عديدة في الكتاب في تفنيده لأقوال الدكتور عمر تدمري بشكل خاص.

من الصحيح أن السيد الأمين يركز على رد الفعل في كتاباته، و«صلاح الدين الايوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين» جاء رداً على مؤتمر بيروت، كما ذكرنا في المقدمة، كما أن كتابه الجديد «الوطن الاسلامي بين السلاجقة والصليبيين» يأتي في المناخ نفسه، رداً على أقوال الدكتور عمر تدمري، أحد وجوه المؤتمر المذكور، لكن ذلك لا يقلل مطلقاً من شأن القراءة الجديدة للتاريخ التي يثيرها السيد الأمين في وجه جميع المؤرخين العرب، بلا استثناء، ويطرح مشكلة خطيرة للغاية ألا وهي أن التاريخ العربي مزور في مجمله تمت كتابته لمصلحة حكام وانظمة من دون أي اعتبار للمقاييس التي تفترضها كتابة التاريخ في اعتمادها الأساس على الحدث ودقته وصحته وسلامته.

لعل السلبية الوحيدة التي تشوب الكتاب هي الاسلوب الساخن والمشحون بالاتهامات يسوقها المؤرخ الأمين ضد الدكتور تدمري، وهو اسلوب نلحظه أيضاً في رده على المقالات التي تهاجمه في مختلف الصحف والدوريات اللبنانية والعربية، وهذا لا يعني مطلقاً تبني مواقع الآخرين والدفاع عنهم، لكن هذه الطريقة في تبادل الاتهامات والتراشق بالكلمات تخلق جواً من الحدة والتطرف لاسيما وان معظم مهاجمي كتابات السيد الأمين يدافعون عن خط مذهبي، ما يحيد كتابة التاريخ عن جوهرها الفعلي السليم.

اسئلة كثيرة يطرحها الكتاب ويجيب عنها السيد الأمين بثقافة واسعة مجردة، ورصانة علمية جريئة ملتزمة. ولعل السؤال الأكثر خطراً الذي يثيره المؤرخ يتمثل بضرورة إعادة كتابة التاريخ العربي بأكمله، من دون اقتصاره على التاريخ الاسلامي.

جان م. صدقه

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

قد يبدو اسم الكتاب غريباً لجمعه بين الإسماعيليين والمغول ونصير الدين الطوسي، ولكن من يستغرب هذا الاسم، في أول الأمر، سيعود عن استغرابه حين يوغل في قراءة الكتاب، ويرى أن هناك رباطاً يجمع بين هذه الأسماء الثلاثة، وأنها بترابطها تكوّن موضوع الكتاب.

ونحن، حين نقدم للقرّاء كتابنا هذا، إنما نسير على منهجنا الذين سرنا وسنظل سائرين عليه من إيضاح حقائق في تاريخنا كان لا بد لنا من إيضاحها، وإننا إذ نبسّط ما نبسّط من آراء، سواء في هذا الكتاب أم في ما سبقه من كتب أم في ما سيلحقه، ندعو القراء إلى تبصيرنا في ما يرون أننا أخطأنا فيه، فإما أن يقنعونا أو نقنعهم، فنحن حاضرون للاستماع إلى آراء الآخرين حين يتقدمون بآرائهم تقدّماً موضوعياً يبتغي الوصول إلى الحقيقة.

حسن الأمين

نصير الدين الطوسي

هو محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، المشتهر بنصير الدين الطوسي وبالمحقّق الطوسي.

ولد في طوس واختلف في سنة ولادته ولكن أكثر المؤلفين على أنه ولد سنة ٥٩٧ وتوفي في بغداد يوم الغدير سنة ٦٧٢ ودفن عند الكاظمين(١). وكان والده

(١) عام ١٤٥ هـ ابتدأ المنصور العباسي بتأسيس مدينة بغداد واستتم البناء في رواية الخطيب البغدادي سنة ١٤٦. ولما أنهى المنصور عمارة مدينته اقتطع ما عرف باسم (الشونيزي الصغير) المجاور لمدينته من جهة الشمال فجعلها مقبرة وسماها (مقابر قريش). ومع مرور الأيام درس اسمها (الشونيزي الصغير) واشتهرت باسمها الجديد (مقابر قريش). وكان أول من دفن في هذه المقابر جعفر الأكبر بن أبي جعفر المنصور وذلك سنة ١٥٠ هـ، ثم توالى الدفن فيها بعد ذلك. وفي سنة ١٨٣ لخمس بقين من رجب توفي الامام موسى بن جعفر عليه السلام فدفن في مقابر قريش حيث قبره الآن. وفي سنة ٢٢٠ هـ توفي الامام محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى بن جعفر عليه السلام فدفن في تربة جده موسى عليه السلام. ولم نعثر على وصف لما أصبح عليه مقام الضريحين بعد دفن الإمام الجواد مباشرة أو بعد ذلك بحين، ولكن المتيقن أن القبرين كانا في بنية خاصة بهما، وكان يتردد لزيارتهما كثير من الناس في هذه البنية الخاصة. ويستفاد من رواية مسكويه أثناء حديثه عن المحسن ابن الوزير ابن الفرات وجود سكان حول بنية القبرين وبجانب مقابر قريش. وكانت العمارة الأولى بعد وفاة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مباشرة وكانت عمارة بدائية صغيرة. أما العمارة الثانية فكانت بعد =

محمد بن الحسن من الفقهاء والمحدثين فتربّى في حجره ونشأ على يده.

يقول بروكلمن عن نصير الدين: هو أشهر علماء القرن السابع وأشهر مؤلفيه إطلاقاً، وفاضل چلبي في مقدمة كشف الظنون حين يصف المؤلفين المعتبرين يجعل نصير الدين رأس سلسلتهم. ويقول عنه ابن العبري في كتاب مختصر الدول: حكيم عظيم الشأن في جميع فنون الحكمة، كان يقوّي آراء المتقدمين ويحلّ شكوك المتأخّرين والمؤاخذات التي وردت في مصنّفاتهم.

= استيلاء معز الدولة البويهي على بغداد حيث أعاد تشييد المرقد سنة ٣٣٦ هـ وكانت هذه العمارة أول عمارة كبرى تشيد على المرقد، ويستفاد من النصوص التاريخية أن القبتين كانتا كبيرتين يتسع فضاؤهما لعدد غفير من المصلين في حجرتين، وأن القبرين كانا منفصلين في حجرتين: واستمرت العناية بهذه العمارة حتى بلغت سنة ٤٤٣ هـ غاية فخامتها وروعتها. وتوالت العمارات بعد ذلك حتى كانت العمارة الخامسة عمارة الناصر لدين الله العباسي سنة ٥٧٥ وما يليها من السنين فكانت خاتمة عمارات العصر العباسي بل أفخمها أيضاً. وأصبحت حول المشهد مدينة عامرة بالسكان هي التي عرفت بالكاظمية نسبة إلى الإمام موسى الكاظم أو الكاظمين نسبة إلى الجد والحفيد على تغليب لقب الجد.

وظل التعمير متواصلاً على مدى العصور وكان أهمه ما أجراه الشاه إسماعيل الصفوي، وتتابع التعمير حتى العصر القاجاري حيث عمل فتح علي شاه على تذهيب القبتين والمنائر الصغار الأربع وتم التذهيب سنة ١٢٢٩ هـ.

أما المدينة فقد تأصل السكن فيها في النصف الثاني من القرن الرابع حتى صح أن يطلق على المقيمين فيها اسم السكان. وتزايد السكان حول المشهد في أواسط القرن الخامس، ثم أصبحت البلدة مأهولة بالسكان.

وهكذا نرى أن هذه الأرض قد سارت بخطى سريعة نحو الازدهار، فانتقلت ــ في فترة قصيرة من عمر الزمن ــ من مقبرة خاصة ببني هاشم أو القرشيين والأشراف من الناس إلى مشهد زاهر خاص بالإمامين الكاظم والجواد عليهما السلام ثم إلى محلة من محلات بغداد العامرة المشهورة، وأخيراً إلى مدينة قائمة بنفسها فيها كل معالم المدن ومرافقها. ولم نعثر فيما بين أيدينا من مصادر على تحديد لتاريخ انفرادها عن بغداد وصيرورتها مدينة ذات كيان خاص، ولكن الراجح أن ذلك قد تحقق في أواسط القرن الخامس إثر الفتن والاضطرابات التي عمت العراق وخصت بغداد نفسها، فدمرت البلاد وأشاعت الخراب وسببت انكماش بغداد على نفسها، فانفردت الكاظمية عنها على أثر هذا الضمور والانكماش.

وقال العلاّمة الحلي الحسن بن المطهر: كان هذا الشيخ أفضل أهل زمانه في العلوم العقلية والنقلية. وقال عنه في موضع آخر: هو أستاذ البشر والعقل الحادي عشر. وعدّه الصفدي في شرح لامية العرب من الرجال الذين لم يصل أحد إلى رتبتهم في فن المجسطي. وقال عنه في الوافي بالوفيات: كان رأساً في علم الأوائل لا سيما في الأرصاد والمجسطي.

بلده طوس:

يخيل لأغلب الباحثين أن طوس مدينة من مدن خراسان. ولكن عندما نلاحظ كتب الجغرافيا العربية والفارسية القديمة ـ مع ما فيها من الاختلاف ـ يبدو لنا أن طوس كانت وما زالت ناحية لا مدينة.

قال السمعاني: «طوس ناحية في خراسان فيها ألف قرية» وقال ياقوت الحموي: «طابران إحدى مدينتي طوس، لأن طوس مدينتان أكبرهما طابران، والأخرى نوقان».

على أن ياقوت يعود فيقول حين يتحدث عن طوس: «هي مدينة بخراسان تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما: الطابران، وللأخرى: نوقان، ولهما أكثر من ألف قرية».

وقد جاء في كتاب حدود العالم وهو الكتاب الفارسي المؤلف قبل أكثر من ألف سنة والمجهول المؤلف: «إن طوس ناحية وفيها أقضية كطوران ونوغان وبروغن ورايكان وبنوادة. وتقع بين الجبال، وفي تلك الجبال المحيطة بها توجد معادن الفيروزج والرصاص والنحاس والكحل. وتصنع القدور الحجرية من جبالها. وإلى نوغان حيث مرقد الإمام علي ابن موسى الرضا تتوجه الناس للزيارة. وفيها أيضاً قبر هارون الرشيد».

يوضح لنا هذا النص بأن طوران لغة في طابران قاعدة منطقة طوس. وطابران هي المدينة التي تعرضت للغزو سنة ٧٩١ هـ من جيش تيمور بقيادة ميران ابنه الثاني والأمير آق بوغا والي هرات حيث قتل السكان عن آخرهم وتحطمت المدينة

شر تحطيم مما لم يمكن معه إعادة بنائها إلى يومنا هذا.

والأغلبية العظمى من علماء طوس ينتسبون إلى هذه المدينة الزائلة.

ونوغان: تقع على بعد ميل من جنوب سنا آباد التي يقوم فيها قبر الإمام الرضا عليه السلام.

وبروغن: أخطأ مؤلف كتاب حدود العالم في ضبطها، والصحيح هو: تروغيذ أو بروغوذ وهي مدينة وسط الجبال تسمى اليوم ترغبة وينسب إليها العديد من المحدثين والعرفاء والزهاد أمثال: أبو الحسن النعماني بن محمد أحمد التروغيذي الطوسي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وأبو عبد الله التروغيذي الزاهد المعروف في زمانه.

ورايكان: هي مدينة راتكان أو رادكان وصحفت التاء بالياء. وفي مثل هذه الصورة تلفظ الكلمة في اللغة الفارسية بالتاء والدال.

وتقع مدينة رادكان على بعد عشرة فراسخ من طابران وفيها ولد نظام الملك الطوسي وأبو محمد عبد الله بن هاشم الطوسي وأبو الأزهر حسن بن أحمد بن محمد الطوسي المتوفى سنة ٥٣٠ هـ. وإلى جانب مدينة رادكان بالذات تتراءى مروج طوس الشهيرة في التاريخ، وفيها اعتلى العرش ملك شاه السلجوقي بأمر من أبيه ألب أرسلان. كما توّج فيها علاء الدين تكش خوارزم شاه. وظلت المروج مرتعاً لخيول السلاطين، وكثيراً ما كان يقصدها ملوك إيران للصيد والنزهة يوم الراحة.

بنوادة: لا وجود لهذا الاسم أصلاً لا بين المدن ولا بين القرى، ولعل تحريفاً حصل في ضبط هذا الاسم.

وبهذا يتضح أن طوس اسم منطقة كانت تضم أربع مدن وألف قرية. ولا بد من القول إن خراسان كانت في القرون الإسلامية الأولى أوسع نطاقاً مما هي عليه الآن. وإن ما يطلق عليه اليوم اسم خراسان ليس إلاّ جزءاً من خراسان القديمة.

وحتى أوائل القرن السابع الهجري كان إقليم طوس يعد من توابع نيسابور.

وبعد تعرّض مدينة طابران للغزو والدمار من جيش تيمور، الأمر الذي حوّلها إلى قفر، أخذت مدينة مشهد تتّسع يوماً بعد يوم. ومنذ ستة قرون أصبحت مدينة نيسابور أبرز المدن التابعة لها.

وخلاصة ما يستنتجه المتتبع لكتب البلدانيين أن تحديد إقليم طوس من الناحية الجغرافية هو عبارة عن الصحراء الواقعة بين سلسلتي جبال هزار مسجد و (أجدركوه) أي جبل الثعبان شمالاً، وجبل نيسابور جنوباً. ويتراوح ارتفاع جبال طوس بين ٧٠٠ متر و ٣٠٠٠ متر.

ويعود تاريخ طوس إلى عهود بعيدة قبل الإسلام وقد استولى عليها المسلمون في زمن عثمان بن عفان. على أننا لا نجد في المصادر القديمة مثل كتاب أوستا أي ذكر لطوس، ولكن في قسم الأحكام والأساطير الذي هو في الحقيقة شرح لهذا الكتاب وكتب بعده، نجد أن شارحي الكتاب يرون أن كلمة (أوروارا) الواردة فيه إنما يقصد بها طوس، كما نجد في القصص الأسطورية أن تاريخ طوس يرجع إلى جمشيد بيشدادي، وجاء فيها أن طوس هو ابن تون اسفهيد إيران، وقد قام بتجديد وتعمير طوس وأن صحراء طوس سميت باسمه منذ ذلك الوقت. وهذا يرتئيه حمد الله المستوفي في **تاريخ طوس**.

ولا بد من القول إن ما تحويه المنطقة من أنهار وينابيع وما تتمتع به من خصوبة التربة كان له الأثر الكبير في تقدّمها على مرّ العصور. وفي صحراء طوس عينان كبيرتان والعديد من العيون الصغيرة.

١ ـ عين كلسب أو عين كبلاس التي تقع على بعد أربعة فراسخ من الجانب الغربي لمدينة طابران. وعلى بعد ثمانية فراسخ من الجانب الغربي لمدينة مشهد. كما أن هذه العين كانت تجري إلى طابران، وهي الآن تجري إلى مشهد.

٢ ـ عين سو، وكلمة سو مخفّفة من سوز ويطلق عليها الآن اسم ششمه سبز، أي العين الخضراء، وتقع في الجنوب الغربي لمدينة مشهد على بعد ١٢ فرسخاً.

وفي الآونة الأخيرة حفرت آبار عميقة في صحراء طوس مما أدى إلى جفاف بعض الأنهر الصغيرة. ومن جبل في شمالي صحراء طوس تجري مياه ثلاثة أنهار جبلية وتنحدر نحو طوس. وهي: نهر رادكان ونهر بغدج ونهر الذرخ. ويوجد في الجبل الجنوبي عدد أكثر.

ولا تزال في صحراء طوس بقايا أثرية لكل من الغزنويين والسلاجقة والمغول وأحفاد تيمور والصفريين والأفشاريين.

وقد خلدت شهرة طوس بدفن الإمام علي الرضا عليه السلام في بداية القرن الثالث الهجري في سناآباد منها. وقد أكسبها ما قيل فيها من الشعر بالعربية والفارسية مدحاً ورثاء بالإمام صيتاً بعيداً. وهي مدينة كبيرة عريقة في التاريخ يناهز عمرها الألف السنة، تجمع بين دقة الفن المعماري الإسلامي القديم من المساجد الفخمة والقباب المذهبة المزيّنة بالقاشاني الثمين، وبراعة الهندسة الحديثة من الشوارع المتّسعة والمباني الشاهقة ومعالم المدنية الحاضرة.

إن طابران التي مرّ ذكرها تقع اليوم على بعد نحو عشرين ميلاً من مدينة مشهد وفيها قبر الشاعر أبي القاسم الفردوسي.

ونوغان: هي اليوم جزء من مدينة مشهد وأما سنا آباد فكانت ضيعة وبستاناً لحميد بن قحطبة الذي كان والياً لخراسان في أوائل الخلافة العباسية. وفي سنة ١٩٢ هـ كان رافع بن ليث بن نصر بن سيار قد ثار في مرو وما وراء النهر، فمضى هارون الرشيد بنفسه إلى خراسان لإخماد الثورة وكان برفقته ولده عبد الله المأمون، فمرض في الطريق ولما وصل طوس اشتد عليه المرض وتوفي فيها سنة ١٩٣ هـ ودفن في دار حميد بن قحطبة بسنا آداب، فأمر المأمون ببناء بقعة ومقبرة على قبر أبيه هارون.

وفي طريق عودة الرضا والمأمون من مرو إلى بغداد توفي الإمام الرضا عليه السلام في طوس فأمر المأمون أن يدفن في الجهة الغربية من قبر أبيه داخل البقعة المدفون فيها أبوه. فسميت هذه البقعة منذ ذلك الوقت بمشهد الرضا

وأصبحت مزاراً للمسلمين يفدون إليها من كل صوب[1].

أغفل ذكر مشهد جماعة من علماء العرب منهم ابن خرداذبه والمقدسي وأبو الفداء. وذكرها الاصطخري وابن حوقل وزكريا بن محمد بن محمود القزويني وياقوت الحموي وابن بطوطة.

أما كتّاب الفرس فقد ذكرها صاحب كتاب **نزهة القلوب**، وذكرها الأمير زين الدين محمد في كتاب **زينة المجالس**، والقاضي نور الله التستري الحسيني في **مجالس المؤمنين**، وأحمد الرازي في **هفت إقليم**، وميرزا حسين الزنوزي في **رياض الجنة**، وفرهاد ميرزا في كتاب **جام جم**.

وذكر مشهد من الأوروبيين فورشاير الرحالة الإنكليزي في المجلد الثاني من رحلته وقد اجتاز بها سنة ١٧٨٣ والسير جون ملكلم سفير إنكلتر على عهد فتح علي شاه ذكرها صاحبه ماكدونال كينير في كتابه **جغرافية إيران**. والرحالة الإنكليزي فيروزور وقد مرّ بها في منتصف القرن التاسع عشر وعاشر طائفة من خاصة أهلها وتظاهر بالإسلام توصلاً إلى مقاصده فنجح؛ والمتجوّل هانوي في رحلته إلى روسيا وإيران سنة ١٧٤٣ وقد تمكّن من الدخول إلى نفس مشهد الرضا وأفاض في تاريخه القديم والحديث وأورد فصولاً شائقة عن البلدة وأحصى مدارسها وعدد طلابها وذكر أوقافها وأجناسها إلى غير ذلك.

وذكرها أيضاً الدكتور ريتر الألماني من أساتذة جامعة برلين وأعضاء المجمع العلمي في كتابه **خطط إيران** بالألمانية وكثيراً ما يعتمد على كلام فيروزور المتقدم ذكره. والمسيو كنولي وقد مرّ عليها مجتازاً إلى الهند سنة ١٨٢٣ م والمسيو فريه الرحّالة الفرنسي مارّاً بها سنة ١٨٤٥ في المجلّد الأول من رحلته، وصف منظر البلاد الطبيعي وأورد من تاريخها وتعددت له أغلاط، منها قوله إن مشهد وطوس واقعة في أقصى خراسان، مع أن أقصى ديار خراسان بلخ، وقوله: إن الكتابات في أثر المشهد لا يرتقي تاريخها إلى أبعد من عصور الصفويين، والحال أن قسماً منها

---

(١) ورد اسم مشهد لأول مرة في كتاب **أحسن التقاسيم** للمقدسي. وذكره ابن حوقل في **المسالك والممالك** باسم مشهد الرضا.

يرتقي تاريخه إلى زمن السلاجقة والمغول إلى غير ذلك من أوهامه.

دراسة نصير الدين الأولى

بعد أن ألمّ بعلوم اللغة والأدب تحوّل إلى دراسة الفقه والمنطق والحكمة والرياضيات.. فتعلم الفقه عند والده وحضر مدة دروس خاله (نور الدين علي بن محمد)، أما مقدمات المنطق والحكمة فيذكر البعض أنه تتلمذ فيها على خاله أيضاً، وقد درس مقدمات في الرياضيات بمدينة طوس عند (كمال الدين محمد حاسب). ورحل بعد ذلك إلى مدينة نيسابور، التي كانت تعد عهدئذٍ مركزاً علمياً هاماً وموطناً لجمع من كبار الحكماء والفقهاء والعلماء والفضلاء، ومكث فيها مدة يختلف إلى مجالسهم وينهل منها الحكمة والمعرفة، حتى صار في عنفوان شبابه بارعاً ضليعاً في أكثر الفنون والعلوم.. ويبدو أنه رحل عن تلك الديار قبل أن تتعرض نيسابور لحملة جيش المغول الذي ألحق بها الهلاك والدمار. فسافر إلى مدينة (الري) ومنها توجه إلى بغداد والموصل حيث حضر مجالس كبار العلماء، وقد درس في الموصل عند (كمال الدين بن يونس الموصلي) ثم نال إجازة من (سالم بن بدران المصري) الذي كان يعد من كبار فقهاء الشيعة ثم عاد إلى وطنه.

أساتذته

١ ــ وجيه الدين محمد بن الحسن: وهو جد نصير الدين، يعد من فقهاء ذلك العصر ومحدّثيه، تعلّم عنده الفقه والحديث. ومحمد بن الحسن هذا، هو تلميذ السيد فضل الله الراوندي الذي هو تلميذ المرتضى علم الهدى[(١)].

٢ ــ نور الدين علي بن محمد الشيعي: وهو خال المترجم، كان من العلماء. ويذهب بعض المؤرّخين إلى أن المترجم تعلّم مقدمات المنطق والحكمة

(١) لا يبدو أن الراوندي أدرك زمان المرتضى علم الهدى (المتوفى سنة ٤٢٦ هـ) ولهذا السبب يذهب البعض إلى أن السيد فضل الله الحسيني الراوندي من تلامذة شرف السادات أبو تراب المرتضى بن السيد الداعي مؤلف كتاب (تبصرة العوام)، وليس السيد المرتضى علم الهدى.

عند خاله ولكنهم لم يوردوا اسم هذا الخال، إلا أن ابن الفوطي الذي ذكر ذلك أيضاً صرَّح باسم خاله (نور الدين علي بن محمد الشيعي).

٣ ـ نصير الدين أبو طالب عبد الله بن حمزة الطوسي: وهو خال أبيه (محمد بن الحسن)، وكان من كبار علماء الشيعة. سمع المترجم عنده الحديث وحصل منه على إجازة في روايته. أن نصير الدين هذا يروي عن عفيف الدين محمد بن الحسن الشوهاني وهذا يروي عن الشيخ المفيد عبد الجبار المقري والأخير يروي عن شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي. وبناء على هذا التسلسل فإن نصير الدين يتصل بشيخ الطائفة الطوسي عبر أربع وسائط.

٤ ـ فريد الدين النيسابوري: أبو محمد الحسن بن محمد بن حيدر الفريومدي النيسابوري وهو رجل حكيم وأصولي، عرف بـ«الداماد».

يذهب أكثر المؤرخين إلى أن فريد الدين هذا كان تلميذ صدر الدين علي بن ناصر السرخسي النيسابوري والذي هو تلميذ أفضل الدين الجيلاني، والجيلاني هذا كان تلميذاً لابن العباس اللوكري تلميذ بهمنيار الذي تتلمذ بدوره على (أبو علي بن سينا). وبناء على هذا التسلسل فإن المترجم يعد تلميذ ابن سينا عبر خمس وسائط ثم هو تلميذ الإمام الفخر الرازي بعد واسطة واحدة.

لقد تعلّم المترجم كتاب الإشارات للشيخ (ابن سينا) عند فريد الدين كما أخذ عنه في الحكمة أيضاً.

٥ ـ قطب الدين المصري (المقتول في ٦١٨ هـ): وهو إبراهيم بن علي بن محمد السلمي، أصله من المغرب، ولأنه أقام مدة من حياته في مصر فقد أطلق عليه لقب المصري عندما استقر في خراسان.

وهو من ألمع تلامذة الفخر الرازي. وبعد وفاة الإمام الرازي اتسعت دائرة نشاطه وإفاداته في نيسابور حيث كان يقصده الطلاب من مختلف الأمصار والبلدان ليفيدوا من علومه ودروسه. وقد قتل المصري عندما غزا المغول مدينة نيسابور.

من تأليفاته، شرح لـ (قانون) ابن سينا. ويبدو أن المترجم درس عنده في علوم الحكمة والطب.

٦ ــ كمال الدين بن يونس الموصلي (المتوفى في ١٤ أو ١٥ شعبان سنة ٦٣٩ هــ): هو أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد، كان جامعاً لجميع العلوم وماهراً ضليعاً في كل الفنون، خاصة رياضيات اقليدس، الهيأة، المخروطات المتوسطات، الـ (مجسطي)، الحساب، الجبر، المقابلة، الموسيقى، الفقه وأصول الفقه، وكان متميزاً قديراً نحريراً لم يبلغ درجته العلمية أي واحد من أقرانه ورفاقه.

أما الطوسي فقد استفاد من دروسه ــ في بغداد أو الموصل ــ حيث أخذ عنه شيئاً من علوم الرياضيات والحكمة.

٧ ــ معين الدين المصري: هو أبو الحسن سالم بن بدران المازني، من كبار فقهاء الشيعة وله عدة مصنّفات حول مذهب الشيعة. لقد وصفه صلاح الدين الصفدي في كتاب (الوافي بالوفيات) بأنه شيعي معتزلي وكذلك فعل محمد بن شاكر في كتاب (فوات الوفيات).

وهو من تلاميذ ابن ادريس الحلّي صاحب كتاب (السرائر)، وقد روى عن السيد عز الدين أبو المكارم حمزة بن علي بن زهرة الحسيني الحلّي صاحب كتاب (غنية النزوع).

كان الطوسي من تلاميذه في الفقه وأصول الفقه كما كان مجازاً من قبله، وننقل فيما يلي نصّ الإجازة:

«قرأ عليّ جميع الجزء الثالث من كتاب «غنية النزوع إلى علمي الأصول والفروع» من أوله إلى آخره قراءة تفهّم وتبيّن وتأمل، مستبحثاً عن غوامضه، عالماً بفنون جوامعه، وأكثر الجزء الثاني من هذا الكتاب وهو الكلام في أصول الفقه: الإمام الأجل العالم الأفضل الأكمل الأورع المثقف المحقق نصير الملّة والدين وجيه الإسلام والمسلمين سند الأئمة والأفاضل مفخر العلماء والأكابر أفضل أهل

خراسان محمد بن محمد بن الحسن الطوسي زاد الله في علائه وأحسن الدفاع عن حوبائه، وأذنت له في رواية جميعه عني وعن السيد الأزهر العالم الأوحد الطاهر الزاهر البارع عز الدين أبي المكارم حمزة بن علي بن زهرة الحسيني قدّس الله سرّه ونوّر ضريحه وجميع تصانيفه وجميع تصانيفي ومسموعاتي وقراءاتي وإجازاتي عن مشايخي ما أذكر أسانيده وما لم أذكر إذا ثبت عنده وما لعلي أن أصنفه.

وهذا خط أضعف خلق الله وأفقرهم إلى عفوه سالم بن بدران بن علي المازني المصري كتبه ثامن عشر شهر جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وستماية حامداً لله مصلياً على خير خلقه محمد وآله الطاهرين»(١).

أما نصير الدين فإنه ينقل عن أستاذه معين الدين في كتاب (الفرائض) ويذكره:

«ولنورد المثال الذي ذكره شيخنا الإمام السعيد معين الدين سالم بدران المصري في كتابه الموسوم بالتحرير».

٨ ــ الشيخ أبو السعادات أسعد بن عبد القاهر بن أسعد الأصفهاني: لقد استفاد المترجم منه لمدة من الوقت وكان حينها زميلاً وشريكاً في الدرس للشيخ ميثم البحراني والسيد رضي الدين بن طاووس.

ولقد ذكر البعض أن المترجم تعلّم في الفقه عند الشيخ ميثم البحراني كما أن الشيخ ميثم البحراني كان يأخذ عنه دروساً في الحكمة. ولهذا فإن الشيخ ميثم البحراني يعد من بين أساتذة المترجم.

٩ ــ الشيخ برهان الدين محمد بن محمد بن علي الحمداني القزويني: كان ساكناً في الري وكان مجازاً للرواية من الشيخ منتجب الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الرازي القمي صاحب الفهرست. وقد عاش إلى العام

(١) الإجازات: بحار الأنوار، طبع طهران، ص ١٦، وورد في كتاب (لؤلؤة البحرين) كذلك.

(٦١٢ هـ) وسمع المترجم عنه الحديث وكان يعد شيخ المترجم في رواية الحديث.

١٠ ـ كمال الدين محمد الحاسب: وقد ورد ذكره فقط في رسالة (السير والسلوك) المنسوبة للمترجم ولم يذكر اسمه في المصادر والنصوص الأخرى.

١١ ـ سراج الدين القمري: الذي ذكر في كتاب (درة الأخبار) ـ فقط ـ على أنه أستاذ المترجم[١].

مؤلفاته

يعد الطوسي من بين الذين اشتهروا بكثرة التأليف والتصنيف في مختلف العلوم والفنون المعروفة في عصره. كالتاريخ والعلوم والأدب والفقه والتفسير والأخبار والحكمة والفلسفة والأخلاق والهندسة والحساب والجبر والمقابلة والهيأة والنجوم (الفلك) وعلم التقويم والـ (زيج) وأحكام النجوم والاسطرلاب والموسيقى وبقية العلوم.

وقد عرفت مؤلفاته بسهولة العبارة والخلو من تعقيداتها والتهذيب وتنقيح المعاني وبعدها عن الحشو والزوائد الخالية من المعاني مما جعلها مورد رغبة الطلاب وإقبال العلماء بنحو أصبحت تلك المؤلفات من بين كتب الدراسة على امتداد قرون من الزمن ولهذا تناولها كثير من العلماء بالتعليق والتداول والشرح.

وقد كانت مؤلفاته باللغة العربية والفارسية، كما ترجمت بعض رسائله العلمية من العربية إلى الفارسية وبعض كتبه من الفارسية إلى العربية كما ترجم قسم من مؤلفاته إلى اللغات الأجنبية الأخرى.

وقد تناولت تلك المؤلفات علوم الرياضيات والأجوبة على المسائل المطروحة وكذلك جملة من المقالات والمعالجات المختصرة إلى جانب ترجماته لكتب كثيرة...

---

(١) مدرس رضوي.

وفيما يلي ثبت بأسماء مؤلفاته:

١ ــ تحرير (المجسطي): وأصل هذا الكتاب من بطليموس قلوذيست، وهو يشتمل على ثلاث عشرة مقالة وبعض الفصول و ١٩٦ شكلاً. وقد حرر الطوسي هذا الكتاب لحسام الدين وسيف الناظرين الحسن بن محمد السيواسي، وانتهى من تحريره في الخامس من شوال سنة (٦٤٤ هـ).

٢ ــ تحرير اقليدس: (أو تحرير أصول الهندسة) وهذا الكتاب نقله من اليونانية إلى العربية ثابت بن قرة وقد قام بتحريره الطوسي[١].

كتب الطوسي في مقدمة هذا الكتاب: «كتبت هذا الكتاب بعد (تحرير مجسطي) وفرغت من تحريره في ٢٢ شعبان ٦٤٦ هـ».

٣ ــ تحرير اكرمالاوس: وهو من كتب المتوسطات، والمقصود بالمتوسطات الكتب التي كان ينبغي أن تقرأ بعد كتاب اقليدس وقبل الـ (مجسطي) ــ وقد ورد في بعض نسخ الكتاب ثلاث مقالات وفي بعض نسخه مقالتان. وقد فرغ من تحرير هذا الكتاب في ٢١ شعبان (٦٦٣ هـ).

٤ ــ تحرير اكرثا وذوسيسوس: وهو أيضاً من بين كتب المتوسطات. ويتكون من ثلاث مقالات ويشتمل على ٥٩ أو ٥٨ شكلاً.

وقد فرغ من تحريره في جمادى الأولى سنة ٦٥١ هـ.

٥ ــ تحرير المأخوذات: في أصول الهندسة، وأصل هذا الكتاب من أرشميدس حيث نقله ثابت بن قرة إلى اللغة العربية.

وقد ذكر الطوسي في مقدمته:

---

(١) منه نسخة في الخزانة الغروية بخط ابن العتائقي، وله فائدة جليلة في الحكمة بخط المذكور، وفوائد أخرى في الحكمة بخطه. وبخطه أيضاً مسائل سئل عنها الطوسي في أولها: قال مولانا السيد ركن الدين الأسترآبادي: كتبت إلى حضرة المولى الأعظم سلطان المحققين في العالم نصير الملة والدنيا والحق والدين الطوسي عدة مسائل، ثم ذكرها وأجوبتها.

عَدَّ المتأخّرون هذا الكتاب في كتب المتوسطات وهو يشتمل على مقالة و ٥١ شكلاً.

٦ ــ تحرير كتاب المعطيات في الهندسة: إن مؤلف هذا الكتاب هو اقليدس، وقد ترجمه من اليونانية إلى اللغة العربية إسحاق بن حنين ونقّحه وأصلحه ثابت بن قرة، وقام الطوسي بتحريره وهو يشتمل على ٩٥ شكلاً.

٧ ــ تحري كتاب (كرة متحركة) (الكرة المتحركة): إن مؤلف هذا الكتاب (اطولوقس) وقد ترجمه إلى العربية ثابت بن قرة. وقام بتحريره الطوسي وهو يشتمل على مقالة و١٢ شكلاً. وقد فرغ من تحريره في يوم الجمعة ٧ جمادى الأولى سنة ٦٥١ هـ.

٨ ــ تحرير معرفة مساحة الأشكال البسيطة والكروية: من تأليف بني موسى أحمد وحسن ومحمد. وقد قام الطوسي بتحريره سنة ٦٥٣ هـ.

٩ ــ تحرير كتاب الليل والنهار: أو كتاب الأيام والليالي. إن مؤلف هذا الكتاب هو ثاوذوسيسوس. ويحوي مقالتين و ٣٣ أو ٣٠ شكلاً. وقد فرغ الطوسي من تحريره في التاسع من جمادى الأولى سنة ٦٥٣ هـ.

١٠ ــ تحرير كتاب المناظر: إن مؤلف هذا الكتاب هو اقليدس. وقد ترجمه إسحاق بن حنين إلى اللغة العربية وقام بإصلاحه وتنقيحه ثابت بن قرة. وانتهى الطوسي من تحريره في شوال ٦٥١ هـ.

١١ ــ تحرير كتاب جرمي النيرين وبعديهما: مؤلف الكتاب أرسطرخس. وهو يشتمل على ١٧ شكلاً. قام بتحريره نصير الدين في سنة ٦٥٣ هـ.

١٢ ــ تحرير طلوع وغروب (الشروق والغروب): مؤلف الكتاب هو أطولوقس وقد نقله قسطا بن لوقا من اليونانية إلى العربية وقام ثابت بن قرة والكندي بإصلاحه وتنقيحه كما قام الطوسي بتحريره سنة ٦٥٣ هـ والكتاب يحوي مقالتين و ٣٦ شكلاً.

١٣ ــ تحرير مطالع (المطالع): مؤلف الكتاب هو أسقيلاوس. وقد قام بترجمته من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية قسطا بن لوقا. وصححه ونقّحه يعقوب بن إسحاق الكندي. كما حرّره الطوسي. والكتاب يشتمل على ثلاث مقدمات وشكلين. فرغ من تحريره سنة ٦٥٣ هـ.

١٤ ــ تحرير كتاب المفروضات: مؤلف الكتاب أرشميدس. ترجمه من اليونانية إلى العربية ثابت بن قرة وحرره الطوسي، يحوي ٣٦ شكلاً وفي بعض النسخ ٣٤ شكلاً. فرغ من تحريره سنة ٦٥٣ هـ.

١٥ ــ تحرير كتاب ظاهرات الفلك: مؤلف هذا الكتاب هو أقليدس وقد ترجمه ثابت بن قرة من اليونانية إلى العربية. وحرّره الطوسي. يتضمن ٢٣ شكلاً ــ كما ورد في بعض النسخ ــ أو ٢٥ شكلاً كما ورد في نسخ أخرى. أما في الحال الحاضر فليس بين أيدينا سوى شكلين مما تضمنه الكتاب. وقد فرغ من تحريره في ربيع الأول سنة ٦٥٣ هـ.

١٦ ــ تحرير (كرة وأستوانة) الكرة والأسطوانة: أو شرح الكرة والأسطوانة.

مؤلف هذا الكتاب هو أرشميدس ــ وقد نقله من اليونانية إلى العربية ثابت بن قرة ــ وحرّره الطوسي يحوي هذا الكتاب ٤٨ شكلاً وفي بعض النسخ ٤٣ شكلاً.

١٧ ــ مقالة في تكسير الدائرة: وهو من تأليف أرشميدس أيضاً حرره الطوسي وأضافه إلى آخر كتاب. (تحرير الكرة والأسطوانة).

١٨ ــ تحرير كتاب المساكن: مؤلف الكتاب ثاذوسيسوس. وقد نقله إلى العربية قسطا بن لوقا. وحرّره الطوسي يحوي هذا الكتاب ١٢ شكلاً. فرغ من تحريره سنة ٦٥٣ هـ.

١٩ ــ المخروطات: مؤلف الكتاب هو ابلوثيوس وهو يتضمن سبع مقالات. ترجم المقالات الخمس الأول منها إلى اللغة العربية هلال بن هلال

الحمصي، أما المقالة السادسة والسابعة فقد قام بنقلها إلى العربية ثابت بن قرة. كما قام بتصحيحها وتنقيحها أحمد بن موسى وحررها الطوسي.

٢٠ ـ الأسطوانة: ورد اسم هذا الكتاب في فهرست كتب الطوسي التي ذكرها كل من الصفدي ومحمد بن شاكر. إلا أن صاحب (الذريعة) احتمل أن يكون هذا الكتاب هو نفس كتاب (تحري الكرة والأسطوانة) لمؤلّفه أرشميدس.

٢١ ـ كشف القناع عن أسرار شكل القطاع: هذا كتاب الشكل الأول من الأشكال ذات الأبعاد الثلاثة لا كرمانا لاوس الذي نقله الطوسي إلى الفارسية أولاً ثم إلى العربية. وهو مرتب في خمس مقالات. ويسمي البعض هذا الكتاب بـ (الشكل القطاع).

٢٢ ـ تربيع الدائرة: صنّفه أرشميدس وحرّره الطوسي.

٢٣ ـ حالات الخطوط المنحنية: من تأليف الحكيم الرياضي ابلنيوس.. يحوي أربع مقالات، ترجم المقالة الأولى أحمد بن موسى الحمصي. وترجم البقية ثابت بن قرة، ثم راجعه ونقّحه حسن وأحمد بن موسى بن شاكر. وحرَّره الطوسي.

٢٤ ـ تسطيح الكرة والمطالع: من تصنيفات بطليموس قلوذيست. نقله من اليونانية إلى العربية ثابت بن قرة. وحرره الطوسي.

٢٥ ـ رسالة في انعطاف الأشعة وانعكاسها: أو رسالة في انعكاسات الأشعة.

٢٦ ـ رسالة الشافعية: أو رسالة «في مصادرات اقليدس في الهندسة». ينقل وينقد المترجم في هذه الرسالة أقوال علي بن هيثم المتبحّر في علوم الرياضيات وأبي الفتح عمر الخيامي وعباس بن سعيد الجوهري في باب مصادرات اقليدس ويعرض رأيه في هذا الباب ويدلّل عليه.

٢٧ ـ كتاب التجريد في الهندسة: ويشمل سبع مقالات.

٢٨ ــ كتاب البلاغ: وهو عبارة عن شرح لكتاب إقليدس. من تأليف نصير الدين الطوسي.

٢٩ ــ رسالة في شكل القطاع السطحي: توجد نسخة من هذا الكتاب في المكتبة الوطنية بباريس.

٣٠ ــ مختصر كرات أرشميدس: ترجمة ثابت بن قرة وتحرير نصير الدين الطوسي.

٣١ ــ تحرير المائة والخمس مسائل من أصول الهندسة.

٣٢ ــ رسالة في باب تعيين قبلة تبريز، باللغة العربية.

٣٣ ــ جامع الحساب بالنحت والتراب: أو (جوامع الحساب)، يشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أبواب وبعض الفصول.

٣٤ ــ رسالة الحساب: باللغة الفارسية، وتوجد نسختها في مكتبة ملك الوطنية. (طهران).

٣٥ ــ رسالة في الحساب والجبر والمقابلة: يحوي هذا الكتاب بابين: الباب الأول في أصول قواعد الحساب، والباب الثاني في كيفية استخراج مجهولات الأعداد المتناسبة بطريقة الجبر والمقابلة. وقد ألّف في سنة ٦٦٧ هـ.

٣٦ ــ كتاب الظفر: وهو أيضاً في الجبر والمقابلة، وقد نسبه (الحاج خليفة) إلى الطوسي.

٣٧ ــ رسالة في علم المثلثات: ذكر في (تذكرة النوادر) أن نسخة هذا الكتاب بخط قطب الدين العلامة الشيرازي موجودة في مكتبة مولانا يعقوب بدواني في الهند.

٣٨ ــ «الرسالة المعينية» أو «المفيد»: وهو كتاب في علم الهيأة، كتب باللغة الفارسية. مؤلف في أربع مقالات. كتبه سنة ٦٣٢ هـ في قهستان باسم أبو الشمس معين الدين بن ناصر الدين المحتشم.

٣٩ ـ شرح المعينية: أو (حل مشكلات الرسالة المعينية) وقد كتب هذا الشرح بطلب من نفس معين الدين في قهستان.

٤٠ ـ زبدة الهيأة: وهو مختصر في علم الهيأة. كتب باللغة الفارسية ويحتوي على ثلاثين فصلاً.

٤١ ـ زبدة الإدراك في هيئة الأفلاك: وهي رسالة مختصرة في علم الهيأة كتبت في مقدمة ومقالتين، باللغة العربية.

٤٢ ـ التذكرة النصيرية: في علم الهيأة، يعد هذا الكتاب من أهم الكتب في هذا الفن وأجمعها لمسائله. وهو مرتب على أربعة أبواب، وقد ألّفه بناء على طلب عز الدين الزنجاني بتاريخ ٦٥٦ هـ. وقد تناوله جمع كبير من أخصائيي هذا العلم بالشرح والتوضيح.

٤٣ ـ رسالة في بيان الصبح الكاذب: وهي رسالة مختصرة جداً في هذا الباب ـ وتوجد نسختها في مكتبة مدرسة سبهسالار بطهران.

٤٤ ـ رسالة في تحقيق قوس قزح: وهي أيضاً رسالة مختصرة جداً ونسختها موجودة في مكتبة ملك الوطنية.

٤٥ ـ مختصر في معرفة التقويم: وهو كتاب معروف بأنه يتألف من ثلاثين فصلاً، ألّفه باللغة الفارسية سنة ٦٥٨ هـ بعد الشروع في مرصد مراغه.

٤٦ ـ ثلاثون فصلاً في الهيأة والنجوم: توجد نسخته في مكتبة اكسفورد.

٤٧ ـ (زيج ايلخاني): وهو كتاب ألّف باللغة الفارسية. يحوي أربع مقالات: المقالة الأولى في معرفة التواريخ، والمقالة الثانية في معرفة حركة الكواكب ومواقعها في خطوط الطول والعرض وتوابع ذلك، والمقالة الثالثة في معرفة الأوقات، والمقالة الرابعة في بقية أعمال النجوم وجداول حركات الكواكب(١).

---

(١) يقول محمد مدرسي زنجاني في كتابه (سركذست وعقائد فلسفي خاجه نصير الدين =

٤٨ ــ مدخل إلى علم النجوم: منظومة في علم النجوم باللغة الفارسية.

اختيارات مسير القمر: هذا الكتاب أيضاً عبارة عن منظومة باللغة الفارسية كتبت على وزن بحر الرمل، المثمن، المحذوف أو المقصور حول اختيارات حركة القمر وأحواله.

٥٠ ــ رسالة في التقويم وحركات الأفلاك: وتوجد نسختها في مكتبة (آستان قدس) «مشهد/ إيران».

٥١ ــ كتاب (البارع في علوم التقويم).

٥٢ ــ تحصيل در علم نجوم (الدراسة في علم النجوم): توجد نسخة هذا الكتاب في مكتبة اكسفورد.

٥٣ ــ التقويم العلائي: ألّف باسم علاء الدين محمد الملك الإسماعيلي.

٥٤ ــ نهاية الإدراك ودراية الأفلاك: ذكر في كتاب (كشف الحجب

= الطوسي عن المرصد: جمع (الطوسي) عديداً من العلماء ليعاونوه في العمل وباشر بإنشاء المرصد سنة ٦٥٧ وظل يعمل فيه حتى وفاته، وسمى الزيج المستنبط من هذا المرصد (الزيج الايلخاني) ونشره في كتاب خاص احتوى على جداول وطرائف حسابية جديدة لم تكن معروفة من قبل. لذلك كان هذا الزيج هو المعتمد عليه في أوروبا في عصر النهضة (انتهى). والزيج: معربة عن كلمة (زيك) الفارسية، وهي بمعنى الجدول الذي كان يستعمله القدماء لرصد النجوم وتعيين حركاتها. ونقل الزبيدي عن الشفاء ونقله الخفاجي صاحب الشفاء عن صاحب مفاتيح العلوم أن (الزايجة: في اصطلاح علماء النجوم صورة مربعة أو مدورة تعمل لموضع الكواكب في الفلك يستفاد منها في حكم المولد. وقال الزبيدي أيضاً في التاج: الزيج خيط البناء (زنة شداد) وهو الممطر. وفي مفاتيح العلوم: الزيج كتاب يحسب سير الكواكب سنة سنة وهو بالفارسية (زه) وهو الوتر ثم عرب فقيل «زيج» وجمعوه على زيجة (كقردة). هذا ولاحظ الزبيدي على الفيروزآبادي أنه أورد الزيج في الواو (مادة زوج) إشارة إلى أنه واوي وليس بذلك بل الأولى ذكرها في آخر المواد لكونها معرّبة فإبقاؤها على ظاهر حروفها أنسب. وقال الأصمعي في الأخير: لست أعرف أهو (أي الزيج) عربي أم معرب.

والأستار) أن نصير الدين ألف هذا الكتاب في عهد بهاء الدين محمد الجويني بطلب محمد بن عمر بدخشاني.

يرجى ملاحظة أن نسبة الكتب الخمس الأخيرة للطوسي غير أكيدة.

٥٥ ـ شرح ثمرة بطليموس أو «ترجمة ثمرة» (ترجمة الثمرة): بناء على تمنّي ورغبة حاكم أصفهان الخواجة بهاء الدين محمد بن شمس الدين الوزير فإنه قد تُرجم كتاب الثمرة لبطليموس وأضيفت إليه مطالب وموضوعات أخرى.

ويتضمن هذا الكتاب مائة عبارة ومقولة ولذلك يقرأ باليونانية انسطوريطا. وقد تمّت ترجمة هذا الكتاب وشرحه في سنة ٦٧٠ هـ.

٥٦ ـ بيست باب در معرفت اسطرلاب (مائة باب في معرفة الاسطرلاب): يرى صاحب «الذريعة» أن هذا الكتاب هو مختصر كتابه الكبير المعروف بـ (مائة باب).

٥٨ ـ مقالة در موسيقى (مقالة في الموسيقى) توجد نسخة هذا الكتاب في المكتبة الوطنية بباريس.

٥٩ ـ كتاب تحرير المنطق مختصر باللغة العربية يحوي تسعة فصول. توجد نسخة قديمة من هذا الكتاب في مكتبة ملك الوطنية بطهران.

٦٠ ـ أساس الاقتباس: يعد هذا الكتاب أكبر الكتب في علم المنطق وأهمها بعد كتاب «الشفاء». وقد كتب باللغة الفارسية. ويحوي تسع مقالات. وقد ألّف في سنة ٦٤٢ هـ.

٦١ ـ تعديل المعيار في نقد تنزيل الأفكار: أصل الكتاب ألفه المفضل بن عمر أثير الدين أبهريست، وقد نقده الطوسي وأسماه بـ (تعديل المعيار..).

٦٢ ـ مقولات عشر (المقولات العشر).

٦٣ ـ كتاب التجريد: أو (تجريد العقائد) أو (تحرير العقائد في الكلام) وهذا المختصر يعد أول كتاب يصنّف بهذه الطريقة وفق معتقدات وعقائد الشيعة

ـ وهو مرتب في ستة مقاصد أو موضوعات.

٦٤ ـ قواعد العقائد: وهو رسالة مختصرة في أصول العقائد ـ وقد ذكر اسم هذا الكتاب بصورة أخرى مثل: «رسالة اعتقادية» و «مقالة نصيرية».

٦٥ ـ فصول نصيرية: وهو كتاب صغير في أصول العقائد كتب باللغة الفارسية. وقد نقله إلى العربية ركن الدين محمد بن علي الفارسي الجرجاني.

٦٦ ـ تلخيص المحصل: أو (نقد المحصل)، وهو في علم الكلام. وهو عبارة عن تهذيب وتنقيح قام به الطوسي لكتاب (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين) للإمام الرازي، بالإضافة إلى نقود لبعض مواضيع الكتاب. وقد ألّفه باسم عطاملك الجويني سنة ٦٦٩ هـ.

٦٧ ـ آغازوانجام (البداية والنهاية): رسالة في المبدأ والمعاد وقد ذكرت أيضاً باسم: «رسالة في المبدأ والمعاد» وقد ذكر الطوسي نفسه في مقدمة هذه الرسالة اسماً آخر هو «تذكرة باد».

٦٨ ـ (رسالة اعتقادية) أو (اعتقادات) أو (العقيدة المفيدة): مقالة مختصرة حول ما يجب أن يعتقد به المسلم الشيعي.

٦٩ ـ رسالة إثبات واجب (رسالة إثبات الواجب): وهي رسالة مختصرة باللغة الفارسية، أورد فيها أربعة أوجه لإثبات الواجب (الله) (واجب الوجود) على طريقة المتكلمين، وثلاثة أوجه على طريقة الحكماء.

٧٠ ـ رسالة ديكر در إثبات واجب (رسالة أخرى في إثبات الواجب): وقد ألّفها على طريقة المناظرة.

٧١ ـ (الرسالة المقنعة): وهي رسالة في أصول الدين باللغة العربية. وقد شرح محمد مؤمن بن طاهر الدين الكرماني هذه الرسالة ونسبها في المقدمة ـ إلى نصير الدين الطوسي.

٧٢ ــ رسالة أصول الدين: وهي رسالة في أصول العقائد مؤلفة باللغة العربية.

٧٣ ــ رسالة أخرى في أصول العقائد: وهي رسالة كتبت باللغة العربية تبحث في التوحيد والعدل والمعاد والإمامة.

٧٤ ــ رسالة إمامت (رسالة الإمامة): وقد ألّفها بناء على طلب محمد الدين شهاب الإسلام علي بن نام آور.

٧٥ ــ إثبات الفرقة الناجية: يرى صاحب (الذريعة) أن هذه الرسالة من تأليف نصير الدين الطوسي.

٧٦ ــ رسالة جبر واختيار (رسالة الجبر والتفويض): وقد ورد اسمها بنحو آخر وهو (جبر وقدر وقضاء وقدر) أي (الجبر والقدر والقضاء والقدر).

٧٧ ــ شرح إشارات (شرح الإشارات): والمسمى بـ (حل مشكلات اشارات)، لقد طبع أصل هذا الكتاب باسم (الإشارات والتنبيهات) للفيلسوف الحكيم الكبير الشيخ أبو علي بن سينا. وقد تناوله جمع من كبار العلماء بالشرح ومنهم الإمام فخر الدين الرازي والذي أورد كثيراً من الإشكالات على الشيخ ابن سينا. ثم تناوله نصير الدين بالشرح أيضاً وردّ خلال الشرح على إشكالات الفخر الرازي، وقد استغرق عمله في هذا الكتاب عشرين عاماً حيث فرغ من الشرح في سنة ٦٤٤ هـ.

٧٨ ــ مصارع المصارع: كتب تاج الدين محمد بن عبد الكريم الشهرستاني كتاباً أسماه (المصارعات) وضمّن هذا الكتاب اعتراضات وإشكالات كثيرة على فلسفة ابن سينا وآرائه. (وادعى في كتابه أنه يصارع الشيخ). فألف كتابه (مصارع المصارع) ورد فيه على الاعتراضات والشبهات التي أوردها تاج الدين في كتابه.

٧٩ ــ أقسام الحكمة: رسالة مختصرة باللغة العربية. في بيان أقسام الحكمة بنحو موجز.

٨٠ ـ شرح مرموز الحكمة: إن كتاب (مرموز الحكمة) مؤلّف باللغة العربية ومنسوب لـ (أبو علي بن سينا). وله شرح باللغة الفارسية منسوب إلى نصير الدين الطوسي.

٨١ ـ شرح رسالة العلم: وهي رسالة مختصرة من تأليف أبو جعفر أحمد بن علي بن سعيد بن سعادة. وقد أرسلها تلميذه جمال الدين علي بن سليمان البحراني إلى نصير الدين الطوسي ليقوم بتوضيح موضوعاتها وشرح المسائل التي وردت فيها. وقد قام الطوسي بشرحها وتوضيحها بنحو بديع رائع.

٨٢ ـ الرسالة المنتخبة في معالم حقيقة النفس وما يتصل بذلك: رسالة مؤلّفة باللغة العربية. في حقيقة النفس. وتشتمل على ثلاثة فصول وخاتمة.

٨٣ ـ رسالة في ماهية العلم والعالم والمعلوم: وهي رسالة مختصرة باللغة العربية منسوبة إلى نصير الدين. وقد طبعت بطهران باسم (العلم اللدني والكسبي) في حاشية كتاب (المشاعر) للأخوند ملا صدرا.

٨٤ ـ لقاء النفس بعد فناء البدن: ألّف هذه الرسالة بطلب رفيقه في العمل مؤيد الدين العرضي.

٨٥ ـ رسالة درموجودات وأقسام آن (رسالة في الموجودات وأقسامها): رسالة مختصرة باللغة الفارسية.

٨٦ ـ رسالة في صدور الخلق من (حضرة) الحق: وهي رسالة مكتوبة باللغة العربية يتحدث فيها عن كيفية صدور الموجودات من المبدأ الفياض، ثم يتبادل آراء الحكماء في باب علم الله تعالى. وقد ألّف هذا الكتاب في سنة ٦٦٦ هـ. بناء على طلب قاضي القضاة في هرات (بأفغانستان).

٨٧ ـ رسالة إثبات جوهر مفروق (رسالة إثبات الجوهر المفروق): وقد ذكر لهذه الرسالة اسمان آخران هما (إثبات العقل) و (رسالة نصيرية).

٨٨ ـ رسالة در كيفيت صدور كثرت ازوحدت (رسالة في كيفية صدور

الكثرة من الوحدة): توجد نسخة هذه الرسالة في مكتبة ملك الوطنية بطهران.

٨٩ ــ رسالة در نفي وإثبات (رسالة في النفي والإثبات): وهي رسالة مختصرة باللغة الفارسية.

٩٠ ــ روضة القلوب: رسالة حول الحقيقة كتبت باللغة الفارسية.

٩١ ــ تحفة (التحفة) رسالة باللغة الفارسية حول معرفة النفس.

٩٢ ــ ربط الحادث بالقديم: وهي رسالة يبحث فيها عن ارتباط وعلاقة الموجودات الحادثة بالله الخالق تعالى. وفي هذه الرسالة يذكر أستاذه فريد الدين محمد الداماد النيسابوري.

٩٣ ــ رسالة رد إيراد كاتبي قزويني بر حكما (رسالة في رد إشكال الكاتب القزويني على أدلة الحكماء): ألّف علي بن عمر الكاتبي رسالة مختصرة في إثبات الواجب (الله) وفي هذه الرسالة عرض اشكالات على أدلة الحكماء. فألف الطوسي الرسالة المذكورة وأبطل إشكالات الكاتبي وأجاب عليها.

٩٤ ــ رسالة إثبات عقل فعّال (رسالة إثبات العقل الفعّال).

٩٥ ــ رسالة دراينكه مفهوم از إدراك تعقل است يا غير آن (رسالة في أنه هل المفهوم من الإدراك التعقل أم غير ذلك).

٩٦ ــ رسالة در اتحاد مقول ومقول عليه (رسالة في اتحاد المقول والمقول عليه).

٩٧ ــ رسالة در بحث از علل ومعلولات مترتبة (رسالة في بحث العلل والمعلولات المترتبة).

٩٨ ــ رسالة در كيفيت انتفاع بحس (رسالة في كيفية الانتفاع بالحس).

٩٩ ــ جام كيتي نما (مرآة العالم): في اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، وقد نسبت إلى الطوسي.

١٠٠ ــ شرح التهافت: هذا الكتاب أيضاً في اكتفاء القنوع نسب إلى نصير الدين الطوسي. أما شرح التهافت فهو لــ (علاء الدين الطوسي) وليس لنصير الدين الطوسي.

١٠١ ــ رسالة خلق أعمال (رسالة خلق الأعمال): باللغة الفارسية.

١٠٢ ــ رسالة در نفوس أرضية وقواي أنها (رسالة في النفوس الأرضية وقواها).

١٠٣ ــ (الفوائد الثمانية): وهي رسالة تشتمل على ثماني فوائد. في هذه الرسالة بحث في مسائل مختلفة. كلامية وفلسفية من قبيل الزمان والمكان والعلل والمعلولات ومعنى العصمة ومعاني الطبيعة وأفعال العباد وحول أن المبدأ الأول ليس ممكن الوجود.

١٠٤ ــ المقالات الست: وتشمل هذه الرسالة مقالات مختلفة.

١٠٥ ــ رسالة در إشارات به مكان وزمان آخرت (رسالة في الإشارات لمكان وزمان الآخرة): وهي رسالة مختصرة باللغة الفارسية.

١٠٦ ــ قوانين الطب: ذكرها الحاج خليفة ونسبها إلى الطوسي.

١٠٧ ــ حواشي بركليات قانون أبو علي سينا (حواشي على «كليات قانون» أبو علي ابن سينا): ذكر شاكر والصفدي اسمها وعدّاها من كتب الطوسي.

١٠٨ ــ حل مشكلات قانون ابن سينا: وهي أجوبة لتساؤلات وإشكالات نجم الدين الكاتبي القزويني.

١٠٩ ــ جواب أسئلة العلاّمة قطب الدين الشيرازي حول مشكلات قانون ابن سينا: ذكر العلامة الشيرازي في مقدمة (التحفة السعيدية) هذين الكتابين ونسبهما إلى الطوسي.

١١٠ ــ رسالة در جواب أسئلة سيد ركن الدين استرآبادي (رسالة في جواب أسئلة السيد ركن الدين الاسترآبادي): المذكور قدم عشرين سؤالاً حول المنطق

والحكمة إلى أستاذه في شهر محرم سنة ٦٧١، وقد أجاب على تلك الأسئلة ضمن هذه الرسالة.

١١١ ــ رسالة في جواب ثلاثة أسئلة لأثير الدين الأبهري أجاب عليها وأرسلها إلى الحكيم.

١١٢ ــ رسالة في جواب أسئلة شرف الدين محمد بن محمود الرازي: وهي أسئلة موجّهة إلى الروم أجاب عليها.

١١٣ ــ رسالة في جواب نجم الدين علي بن عمر الكاتبي القزويني: والتي يسأل فيها عن معنى قول ابن سينا، إن الحرارة تنقل في الرطب سواداً وفي ضده بياضاً. . الخ» ما المقصود من ذلك؟ فأجاب عليها بجوابين.

١١٤ ــ سأله أحد الحكماء حول التنفس فكتب حول ذلك رسالة.

١١٥ ــ قدم عز الدين سعد بن كمونة إلى الطوسي أسئلة حول مغالطات الكاتبي القزويني، فكتب رسالة في جواب ذلك.

١١٦ ــ شكك نجم الدين علي بن عمر الكاتبي القزويني في المسألة المنطقية: «نقيض العام أخص من نقيض الخاص». فكتب رسالة في الجواب على ذلك التشكيك.

١١٧ ــ رسالة جوابية بخصوص سؤال أحد العلماء حول مزاج الأعضاء.

١١٨ ــ رسالة في جواب لسؤال حول خيرية الوجود؟

١١٩ ــ رسالة في الأجوبة على أسئلة محيي الدين محيجا العباسي الذي كان تلميذاً للطوسي وفي سنة ٦٧١ قدم لأستاذه جملة من الأسئلة فأجاب عليها.

١٢٠ ــ رسالة في أجوبة المسائل الأسبوعية التي كان يطلبها عز الدولة سعد بن منصور بن كمونة.

١٢١ ــ أجوبة على أسئلة شمس الدين محمد الكيشي في المنطق والحكمة.

١٢٢ ــ رسالة في جواب الكاتبي القزويني: الذي سأل حول معنى مقولة الحكماء: «السالبة أعم من موضوع الموجبة».

١٢٣ ــ رسالة في جواب الإمام نجم الدين النخجواني حول تساؤله عن معنى قول الحكماء: «المجهول المطلق يمتنع الحكم عليه».

١٢٤ ــ معاوضات (المعاوضات): وهي رسالة تتضمن أجوبة على أسئلة الشيخ صدر الدين القونوي ــ وقد ذكر اسم آخر للرسالة هو: (أجوبة المسائل).

١٢٥ ــ رسالة أخرى في الإجابة على نفس العالم العارف المذكور.

١٢٦ ــ رسالة سؤالية: قدم ثلاثة أسئلة في هذه الرسالة إلى عين الزمان الجبلي.

١٢٧ ــ الأسئلة النصيرية: وهي أسئلة قدمها إلى (الفيلسوف الحكيم المتكلم: فيلسوف عصره ومتكلمه وحكيمه شمس الدين الخسروشاهي).

الكتب المترجمة من العربية إلى الفارسية والتي نسبت أعمال ترجمتها إلى الطوسي.

١٢٨ ــ ترجمة كتاب زبدة الحقائق لـ (عين القضاة الهمذاني) بناء على طلب ناصر الدين المحتشم قام بترجمة هذا الكتاب وشرح المسائل الغامضة فيه.

١٢٩ ــ ترجمة صور الكواكب لأبي الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي المتوفى سنة ٣٧٦ هـ.

١٣٠ ــ ترجمة الأدب الصغير لابن المقفع. وقد ترجمه بناء على طلب ناصر الدين المحتشم أيضاً.

١٣١ ــ ترجمة مالك وممالك (المالك والممالك): وهو ترجمة صور الأقاليم، وينسب (فلوكل) في (فهرسته) الترحمة إلى الطوسي.

١٣٢ ــ جواهر الفرائض بالفرائض النصيرية: وهي رسالة مختصرة في

أصول علم الفرائض والمواريث وفي هذه الرسالة ينقل الطوسي عن كتاب التحرير لأستاذه معين الدين سالم بن بدران المعري.

١٣٣ ـ شرح لأصول الكافي.

١٣٤ ـ تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين: وهو تفسير مختصر جداً، وبلغة عرفانية فسّر هذه السور الثلاث: الإخلاص والخلق والناس، وينسب هذا التفسير للشيخ ابن سينا أيضاً.

١٣٥ ـ أخلاق ناصري: وهو من الكتب المشهورة في هذا الفن وقد ألف هذا الكتاب سنة ٦٣٣ بناء على طلب ناصر الدين عبد الرحيم بن أبي منصور المحتشم القهستاني، في قصبة قاين.

١٣٦ ـ أوصاف الأشراف: رسالة مختصرة باللغة الفارسية حول أخلاق العرفاء والزهاد (من أهل السير والسلوك)، ألفها بطلب ورغبة شمس الدين محمد الجويني، وهي مرتبة في ستة أبواب.

١٣٧ ـ تكميل وترجمة أخلاق محتشمي: ألف ناصر الدين المحتشمي الذي يعد من علماء الإسماعيلية كتاباً في الأخلاق معتمداً على آيات القرآن والأحاديث الشريفة النبوية والآثار القيّمة. فجمعه عدد من علماء الدين وكبار الاسماعيليين وسلّموه للطوسي طالبين إياه إكماله وترجمته. وبناء على طلبهم فقد قام بإكماله وترجمته.

١٣٨ ـ نصيحت نامه: وهي جملة نصائح باللغة الفارسية كتبها لـ (آباقا خان) حين جلوسه على كرسي السلطنة.

١٣٩ ـ ذيل تاريخ جهانكشاي جويني.

١٤٠ ـ معيار الأشعار: باللغة الفارسية. كان يسمى قديماً بـ (رسالة العروض) ألف سنة ٦٤٩ هـ أقدم نسخة لهذه الرسالة موجودة ضمن مجموعة آثار الطوسي في مكتبة الدكتور محمود نجم آبادي.

١٤١ ــ الوافي في العروض والقوافي.

١٤٢ ــ رسالة آداب المتعلمين: وهي رسالة في آداب التعليم والتعلم وأخلاق المتعلمين والمعلمين. وهي معروفة لدى طلاب العلوم القديمة.

١٤٣ ــ كتاب الجوهر أو تنسيق نامة إيلخاني: وهي رسالة في صفات الأحجار الكريمة والمجوهرات وخواصها وقد ألّفها بأمر من هولاكو.

١٤٤ ــ آغاز وانجام (المبدأ والمعاد): وهو كتاب باللغة الفارسية، موزع على أربعة فصول، في الحيوان والنبات، والمعدن والمتفرقات والنوادر، وقد نسبه صاحب الذريعة، إلى الطوسي ويقال أن نسخة هذا الكتاب موجودة في مكتبة شيخ الشريعة الأصفهاني بالنجف الأشرف.

١٤٥ ــ رسالة في سلوك الملوك القدامى وتقاليدهم: وهي تتناول وصول الضرائب والخراج وموارد صرفها.

١٤٦ ــ رسالة في ضرورة الموت (وحتميته): وهي باللغة العربية تتحدث عن حتمية الموت ولا بديته.

١٤٧ ــ خلافت نامه: أو بتعبير (دولتشاه السمرقندي): خلافت نامه الهي.

١٤٨ ــ ساقي نامه: يذهب الحاج خليفة إلى أن هذا الكتاب من آثار الطوسي.

١٤٩ ــ قانون نامه: يقول الحاج خليفة أيضاً في كتاب كشف الظنون أن هذه الرسالة كتبت باللغة الفارسية وهي من تأليفات الطوسي.

١٥٠ ــ تبرّانامة مختصر في ذم أعداء النبي محمد ﷺ، وهي رسالة في أربعة فصول.

١٥١ ــ صلوات النصير: أو (الأئمة الاثنا عشر)، أو (إنشاء الصلوات على أشرف البريات وعترته).

١٥٢ ـ إثبات اللوح المحفوظ: في كشف الحجب والأستار نسب للطوسي.

١٥٣ ـ النقطة القدسية: وهي رسالة ألّفها الطوسي في شرح وبيان قول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: أن العلم نقطة.

١٥٤ ـ آداب البحث: رسالة ينسبها صاحب (الذريعة) إلى الطوسي.

١٥٥ ـ الرسالة النصيرية: رسالة في توضيح أن الحكيم لا يتعلق بلذائذ البدن.

١٥٦ ـ شريعة الأشر في إنجاح المقاصد والملمات: يذكر الخوانساري في كتاب روضات الجنات أن هذه الرسالة من تأليف الطوسي.

١٥٧ ـ مقامات الخواجة: وهو كتاب في مقامات العارفين وهو نفس بحث مقامات العارفين ضمن كتاب شرح الإشارات، ولكنه يُرى مستقلاً أحياناً.

١٥٨ ـ كتاب حزبدة العجائب: لقد نسب صاحب (آثار الشيعة) هذا الكتاب إلى الطوسي، ولكنه ـ قطعاً ـ ليس له وإنما هو لابن الوردي.

١٥٩ ـ شرح رسالة التنجيم: هذا الكتاب ينسبه صاحب (آثار الشيعة) إلى الطوسي أيضاً ولكن ثمة شك في هذه النسبة.

١٦٠ ـ رسالة مختصرة تتضمن بعض الفوائد: الفائدة الأولى: أن العقل والجسم ليسا كالجوهر والعرض. توجد نسخة هذه الرسالة في مكتبة الثقافة الوطنية.

١٦١ ـ رسالة في بعض المسائل: المسألة الأولى: في وجوب معرفة الله، المسألة الثانية: في وجود الباري. توجد نسخة هذه الرسالة في المكتبة الوطنية.

١٦٢ ـ فوائد مجموعة مقالات مختصرة.

الأولى: في تعارف الأرواح بعد مفارقة الأبدان.

الثانية: في الفرق بين الجنس والمادة.

١٦٣ ـــ رسالة في الرمل: وهي باللغة الفارسية كتبها بأمر من هولاكو.

١٦٤ ـــ مختصر الرسالة المذكورة: وقد ألّف هذا المختصر بأمر من هولاكو أيضاً.

١٦٥ ـــ رسالة في أحكام منازل الرمل الاثني عشر: وهي باللغة الفارسية.

١٦٦ ـــ رسالة الرمل: وقد كتبها باللغة العربية. وضح فيها أعمال ملأ الدوائر ويصطلح على ذلك في هذا العلم بـــ (تسكين الدائرة).

١٦٧ ـــ رسالة أخرى في الرمل: وقد كتبت بلغات ثلاثة هي: العربية والفارسية والتركية ـــ منسوبة للطوسي.

١٦٨ ـــ رسالة استخراج الخبايا: منسوبة أيضاً للطوسي.

١٦٩ ـــ رسالة أخرى وهي باللغة الفارسية.

١٧٠ ـــ رسالة أخرى في نفس الموضوع: توجد نسخة منها في المكتبة الوطنية بباريس، ويمكن أن تكون نفس الرسالة المذكورة أعلاه.

«بعض الكتب والرسائل المكتوبة وفقاً لمذهب الاسماعيلية ومنسوبة للطوسي».

١٧١ ـــ رسالة باسم (سير وسلوك): يقال أن هذه الرسالة كتبها مضطراً ومجبوراً عندما كان في قلاع الاسماعيلية.

١٧٢ ـــ رسالة التولّي والتبرّي: وهي مكتوبة بنفس وفكر إسماعيلي ويبدو أن هذه الرسالة كتبها في (قهستان) وفي المقدمة يذكر اسم ناصر الدين المحتشم ويلقبه معلم العصر والملك الكبير.

١٧٣ ـــ رسالة في النعم والمتع واللذائذ: وهي مكتوبة على الطريقة التعليمية الاسماعيلية ومنسوبة إلى الطوسي.

١٧٤ ــ رسالة باسم «مطلوب المؤمنين»: وهي مكتوبة في تأييد مذهب الاسماعيلية وينسبها المستشرق (ايفانوف إلى الطوسي. وقد قام هذا المستشرق بطبعها).

١٧٥ ــ كتاب روضة التسليم: وهو كتاب حول عقائد التعليميين وقد قام المستشرق (ايوانف) بطبعه.

إن نسبة هذه الرسائل للمترجم غير متأكد منها وإن سياق الرسائل الثلاث الأخيرة أو طريقة وأسلوب كتابتها ليس كأسلوب الطوسي وعلى الأرجح أنها نسبت إليه وليست له.

١٧٦ ــ يذكر صلاح الدين الصفدي في الفهرست، الذي يدرج فيه كتب الطوسي بعض الكتب التي تؤيد مذهب النصيرية. إلا أن المؤلف نفسه يقول: «لا أعتقد أنه قد كتب مثل هذا الكتاب».

بالإضافة إلى الكتب المذكورة والرسائل العلمية فإن هناك بعض مراسلاته (وربما تكون منسوبة إليه) مع العلماء وغيرهم توجد بعضها ضمن كتب التاريخ.

١٧٧ ــ رسالة من جانب هولاكو بعد فتح بغداد إلى الملك ناصر ملك الشام مكتوبة بإملاء الطوسي باللغة العربية وصورة هذه الرسالة مثبتة في كتاب (وصاف الحضرة).

١٧٨ ــ رسالة أخرى مكتوبة من جانب ملك المغول إلى الملك ناصر ومثبتة في كتاب جامع التواريخ.

١٧٩ ــ رسالتان في جواب علم الدين قيصر. مدرجتان في نهاية بعض نسخ (الشافية).

١٨٠ ــ رسالة إلى الكاتبي القزويني. باللغة العربية، وقد ورد في آخر الرسالة رد دليل الحكماء على إثبات الواجب.

١٨١ ــ رسالة أخرى باللغة العربية مكتوبة إلى جمال الدين علي بن سليمان

البحراني، والتي ذكر في بدايتها شرح رسالة العلم.

١٨٢ ــ رسالة أخرى إلى جمال الدين عين الزمان الجبلي، مكتوبة في بعض المجامع المذكورة.

١٨٣ ــ رسالة أخرى إلى محيي الدين محيا العباسي مكتوبة باللغة العربية، شوهدت في بعض المجامع.

١٨٤ ــ رسالة باللغة الفارسية إلى صدر الدين القونوي.

١٨٥ ــ رسالة باللغة الفارسية إلى أثير الدين الأبهري.

١٨٦ ــ رسالة باللغة الفارسية إلى شمس الدين الكيشي[1].

الطوسي الفقيه

لما جاء نصير الدين الطوسي إلى العراق زار مدينة الحلة وحضر درس المحقق أبي القاسم نجم الدين جعفر بن سعيد الحلي، فكان البحث في القبلة، في استحباب التياسر قليلاً لأهل الشرق من أهل العراق عن السمت الذي يتوجهون إليه، فاعترض الطوسي: إن التياسر إما إلى القبلة فيكون واجباً لا مستحباً، وإما عنها فيكون حراماً. فأجاب المحقق الحلي في الدرس بأن الانحراف منها إليها.

عمله في إنقاذ الإسلام

كان نصير الدين الطوسي ضحية من ضحايا الغزو المغولي الأول، حينما اجتاحت جحافل جنكيز خان (١٢١٥ ــ ١٢٢٧ م) البلاد الإسلامية ودمرت ما مرت به منها. وكان من تلك الضحايا مدينة نيسابور التي كانت تعجّ بالعلماء وتزخر بالمدارس.

ولم يكتف المغول بتدمير المدينة بل اعملوا السيف في الناس، فقتل من قتل واستطاع الفرار من استطاع، وكان بين الناجين نصير الدين الطوسي، فهام على

(١) الشيخ محمد حسن آل ياسين.

وجهه يطلب الملجأ الأمين فوجده في قلاع الإسماعيلية الحصينة[1]، تلك القلاع التي صمدت وحدها لجنكيز خان، فظل حقد المغول مضطرماً على الاسماعيليين إلى أن استطاعوا الثأر منهم في عهد هولاكو حفيد جنكيز.

ولم يكن نصير الدين وحده هو الذي احتمى بهذه القلاع، بل لقد لجأ إليها كثير ممن استطاعوا الفرار والنجاة.

وعندما تقدم المغول في غزوهم الثاني، وأعاد هولاكو سيرة جده، كانت الحملة هذه المرة من القوة بحيث هابتها القلاع الاسماعيلية فلم تستطع لها صدّاً، ونزل الأمير الاسماعيلي ركن الدين خورشاه على حكم المغول، فكان حكمهم قتله وقتل أعوانه ومن لجأ إليه، واستثنوا من ذلك ثلاثة رجال كانت شهرتهم العلمية قد بلغت هولاكو فأمر بالإبقاء عليهم، ولم يكن هذا الإبقاء حباً للعلم وتقديراً لرجاله، بل لأن هولاكو كان بحاجة إلى ما اختص به هؤلاء الثلاثة من معارف، فاثنان منهم كانا طبيبين هما موفّق الدولة ورئيس الدولة، والثالث كان مشهوراً باختصاصه في أكثر من علم واحد هو نصير الدين الطوسي، وكان مما اختص به: علم الفلك، وكان هولاكو مقدراً لهذا العلم تقدير حاجة لا محض تقدير، مؤمناً بفائدته له. لذلك رأيناه بعد ذلك يعنى بإنشاء مرصد «مراغة» ويوفر له كل ما يستدعي نموّه وتقدّمه...[2].

---

(١) يقول الدكتور علي أكبر فياض في كتاب محاضراته عن الأدب الفارسي والمدنية الاسلامية: «وكانت النهضة الاسماعيلية في قمة نشاطها في ذلك العصر وكانت لهم مشاركة تامة في دراسة الفلسفة والنهوض بها للاستفادة منها في تقرير أصولهم وإثبات دعاواهم. وقد أسسوا لهم في قلعة ألموت في جبال قزوين مكتبة عظيمة بادت على أيدي المغول. وكان يعيش في رعاية الاسماعيليين رجل يعد من أكبر المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا ألا وهو نصير الدين الطوسي قدر لهذا الرجل العظيم أن يقوم بإنقاذ التراب الإسلامي من أيدي المغول».
إلى أن يقول: «لقد فوض إليه هولاكو أمر أوقاف البلاد فقام بضبطها وصرفها على إقامة المدارس والمعاهد العلمية، وجمع العلماء والحكماء وتعاون معهم في إقامة رصد كبير في مراغة بآذربيجان ومكتبة بجانبه يقال أنها كانت تحوي ٤٠٠ ألف كتاب.

(٢) إن علم الرصد والفلك غير «صناعة المنجمين». فصناعة النجوم ضرب من الحساب =

جمع نصير الدين الطوسي إلى العلم الواسع العقل الكبير، فتريك سيرته رجلاً من أفذاذ الرجال لا يمر مثله كل يوم. وتشاء الأقدار أن تعده لمهمة لا ينهض لها إلاّ من اجتمعت له مثل صفاته: علم وعقل وتدبير وبعد نظر، فكان رجل الساعة في العالم الإسلامي، هذا العالم الذي كان مثخناً بالجراح.

كانت مهمة الطوسي من أشق المهمات، وكانت أزمته النفسية من أوجع ما يصاب به الرجال، فإنه وهو العالم الكبير ذو الشهرة المدوية بين السملمين، يرى نفسه فجأة في قبضة عدو المسلمين، ويرى هذا العدو مصراً على أن يبقيه في جانبه ويسيره في ركابه. وإلى أين يمشي هذا الركاب؟ إنه يمشي لغزو الإسلام في دياره والقضاء عليه في معاقله، فهل من محنة تعدل هذه المحنة؟

= غايته حساب الطالع والتنبّؤ أو التكهّن بأحداث المستقبل بواسطة رصد حركات الكواكب ومواقيت قراناتها. وكان القدماء يفرقون بين صناعة النجوم التعليمية وصناعة النجوم التجريبية، فعلم النجوم عندهم غير علم الأحكام كما يستفاد من كتب المسعودي والبيروني وابن رشد وغيرهم من قدماء الباحثين في هذه العلوم.

يعتقد المنجمون وهم غير الفلكيين والرياضيين أن جميع الكوائن العظيمة مثل انتقال الملك والدولة من أمة إلى أخرى وظهور الملل ونشوب الحروب وانتشار الأوبئة والقحوط والمجاعات أمور تدل عليها قرانات الكواكب ويمكن التنبؤ بها بواسطة الحساب. هذا واستخراج الطالع طالع المولود وطالع السنة وطالع العالم من جملة أعمال أهل هذه الصناعة، ولهم في استخراج الطالع طرق معروفة ولكن مداركها باطلة ونتائجها كاذبة أنكرها العلماء والعقلاء إذا استثنينا عدداً قليلاً من الناس. وقد نتج عن الهوس بما يسمونه (علم الأحكام) و (استخراج الطالع) كوارث جمة وفواجع مهمة، ومن أشهرها فاجعة (الغ بك) أمير سمرقند من الأسرة التيمورية وهو أكبر علماء الفلك فيما وراء النهر في المئة التاسعة ومؤلف الزيج المعروف باسمه ويعد من أنفس الأزياج. ومع ذلك كان لهذا الفلكي المشهور اعتقاد راسخ بصناعة التنجيم واستخراج الطالع حتى قاده هذا الاعتقاد الفاسد إلى حتفه في قصة معروفة خلاصتها: أنه أخذ الطالع لنفسه فوجد أنه يقتل بيد أكبر أولاده، فلم يهدأ وراح يسوم ولده سوء العذاب حتى قتل الولد أباه المذكور سنة ٦٥٤.

وحديث الامام علي عليه السلام مع بعض المنجمين الذين أشاروا عليه أن يتوقف في ساعة معينة عن السير إلى حرب الخوارج مشهورة أنكر فيه أحكامهم وزجر الناس عن العمل بموجبها. (الشبيبي).

إن أقل تفكير في التمرد على رغبة القائد المغولي سيكون جزاؤه حد السيف. . . وأنني لأتخيل الطوسي متأمّلاً طويل التأمل، مطرقاً كثير الإطراق، لقد كان يعز عليه أن يذهب دمه رخيصاً وأن يكون ذلك بإرادته هو نفسه، فلو أن سيفاً من سيوف المغول الجانية أودى به فيمن أودى بهم في رحاب نيسابور وسهول إيران لكان استراح. أما الآن فلن يستسلم للقدر الطاغي وسيثور على حكم الزمن الغاشم.

كان الطوسي ذا فكر منظم يعرف كيف يخطط ويدبر. وهو في ذلك آية من الآيات، وقد أدرك أن النصر العسكري على المغول ليس ممكناً أبداً، فقد انحل نظام العالم الإسلامي انحلالاً تاماً لم يعد معه أمل في تجميع قوة تهاجم المغول وتخرجهم من دياره، وكانت البلاد المحتلة أضعف من أن تفكر في ثورة ناجحة. على أن الغرب الإسلامي كان لا يزال سليماً، وكانت مصر هي القوة الوحيدة التي تتجه إليها الأنظار، وقد استطاعت مصر أن تذيق المغول مرارة الهزيمة وأن تردهم عنها، ولكنها لم تكن مستطيعة أكثر من ذلك، فمهاجمة المغول فيما احتلوه من بلاد بعيدة وإخراجهم من تلك البلاد كان فوق طاقة مصر.

وفكر نصير الدين طويلاً فأيقن أنه إذا تم للمغول النصر الفكري، بعد النصر العسكري، كان في ذلك القضاء على الإسلام، وها هو يرى بأم عينه الكتب تباد والعلماء يقتلون، فماذا يبقى بعد ذلك؟ . .

لقد استغل حاجة هولاكو إليه، وحرصه على أن يكون في معسكره فلكي عالم بالنجوم، فعزم على كسب ثقته واحترامه فكان له ما أراد، وصار له من ذلك سبيل لإنقاذ أكبر عدد من الكتب وتجميعها، كما استطاع أن ينجي من القتل الكثيرين مما كانوا سيقتلون.

ولما استتب الأمر لهولاكو خطا نصير الدين خطوته الأولى، وكانت هذه المرة خطوة جبّارة فقد أقنع هولاكو بأن يعهد إليه بالإشراف على الأوقاف الإسلامية والتصرف بمواردها بما يراه، فوافق هولاكو. وتتطلع نصير الدين فرأى أن المسلمين كانوا قد وصلوا من الانحلال الفكري إلى حد أصبح العلم عندهم

قشوراً لا لباب فيها، وأنهم حصروا العلم في الفقه والحديث وحدهما، وحرموا ما عداهما من سائر صنوف المعرفة التي حث عليها الدين العظيم، وانصرفوا عن العلوم العملية انصرافاً تاماً. فأعلن افتتاح مدارس لكل من الفقه، والحديث، والطب، والفلسفة، وأنه سيتولى الإنفاق على طلاب هذه المدارس، ولكنه سيجعل لكل واحد من دارسي الفلسفة ثلاثة دراهم يومياً، ولكل واحد من دراسي الطب درهمين ولكل واحد من دارسي الفقه درهماً، ولكل واحد من دارسي الحديث نصف درهم، فأقبل الناس على معاهد الفلسفة والطب، بعدما كانت من قبل تدرس سراً.

أحرز نصير الدين النصر الأول في معارك الإسلام، فالعلم لن ينقطع بعد اليوم، ولن يجمد المسلمون عن طلبه، ثم انصرف يخطط للمعركة الكبرى الكاسحة. فإذا كان إنشاء المدارس المتفرقة لن يلفت هولاكو إليها، ولن يدرك أهميتها، فإن إنشاء الجامعة الكبرى وحشد العلماء فيها وحشر الكتب في خزانتها، سيكون حتماً منبهاً لهولاكو فكيف العمل؟

هنا تبدو براعة الطوسي، فهولاكو استبقاه لغاية معينة، فراح يقنع هولاكو بأنه من أجل استمراره في عمله والاستفادة من مواهبه لا بد من إنشاء مرصد كبير، فوافق هولاكو على إنشاء المرصد الكبير، وفوض لنصير الدين المباشرة بالعمل.

لقد كانت هذه الموافقة الحلم الأكبر الذي حققته الأيام لنصير الدين، وبات بعدها مستريحاً للمستقبل لا يشغله شيء إلا الإعداد الدقيق والتخطيط السليم الموصل إلى الغاية القصوى»[1].

ضخّم نصير الدين أمر المرصد لهولاكو وأقنعه أنه وحده أعجز من أن يرفع

(١) يقول المستشرق روندلسن: «ثم اقترح الطوسي في مراغة على هولاكو: أن القائد المنتصر يجب أن لا يقنع بالتخريب فقط، فأدرك المغولي المغزى وخوله بناء مرصد عظيم على تل شمالي مراغة، وتم هذا العمل في ١٢ سنة. وجمع خلال ذلك الزيج الذي أتمه بعد وفاة هولاكو وهو الزيج الايلخاني. وقد أظهر خطأ أربعين دقيقة في موضع الشمس في أول السنة على حساب الأزياج السابقة، وجمع مكتبة عظيمة ضم إليها ما نهب من الكتب في بغداد».

حجراً فوق حجّر في ذاك البناء الشامخ، وأنه لا بد له من مساعدين أكفياء يستند إليهم في مهمته الشاقة، وأنه لا مناص من أجل ذلك من أن يجمع عدداً من الناس المختارين، سواء في البلاد المحتلة أو في خارجها، فوافق هولاكو على ذلك[(١)].

وهنا هب نصير الدين إلى اختيار رسول حكيم هو فخر الدين لقمان بن عبد الله المراغي، وعهد إليه بالتطواف في البلاد الإسلامية، وتأمين العلماء النازحين ودعوتهم للعودة إلى بلادهم، ثم دعوة كل من يراه متفوقاً في علمه وعقله من غير النازحين.

مضى العمل منظماً دقيقاً وانصرف العلماء بإشراف الطوسي منفذين مخططاً مدروساً، فلم يمض كبير وقت حتى كانت المكتبات تغص بالكتب، وحتى كانت مكتبة مراغة بالذات تضم مجموعة قلّ أن اجتمع مثلها في مكتبة أخرى، وحتى كانت المدارس تقام في كل مكان، وحتى كانت الثقافة الإسلامية تعود حيّة سوية، وحتى كانت النفوس مشبعة بالأمل والقلوب مليئة بالرجاء، وحتى كان الدعاة ينطلقون في كل صوب والهداة ينتشرون على كل وجهة. . .[(٢)].

ثم يموت هولاكو، ولكن الإسلام الذي أراد له هولاكو الموت يظل صحيح البنية، متوهّج الفكر، ثم يموت ابن هولاكو وخليفته (ابقاخان) والإسلام لا يزال بقيادة الطوسي صامداً، يقاتل ويقاوم ويدعو ويهدي.

ويأتي بعد ابقاخان، ابن هولاكو الآخر (تكودار) فإذا بالإسلام ينفذ إلى قلبه

---

(١) أول مرصد هو مرصد (أبرخسن) في اليونان أنشىء قبل الميلاد، وبعده بحوالي ثلاثة قرون أنشىء مرصد بطليموس في الاسكندرية. أما في الإسلام فإن أول مرصد أنشىء كان مرصد الخليفة المأمون في بغداد. وفي أواخر القرن الثالث أنشىء مرصد محمد جابر البستاني في الشام، وأنشىء في مصر المرصد الحاكمي وأنشىء في بغداد مرصد آخر.

(٢) قال ابن الفوطي في كتابه (مجمع الآداب): اتفق الحكماء الخمسة على رصد مراغة في أيام السلطان الأعظم هولاكو سنة ٦٥٧ ورئيسهم نصير الدين الطوسي، وهم فخر الدين الخلاطي وفخر الدين محمد بن عبد الملك المراغي ومؤيد الدين العرضي ونجم الدين القزويني، وهؤلاء هم الذين اختارهم نصير الدين وأنفذ السلطان في طلبهم.

وعقله، وإذا به يعلن إسلامه وتسلم الدولة كلها بعد ذلك في عهد غازان.

وكان الطوسي قد مات سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٤ م). مات قرير العين وهو يرى طلائع الظفر مقتحمة الدنيا بموكبها الرائع وبشائر النصر هازجة بأرفع صوت وأعلى نبرة. مات الطوسي مودعاً الأمر إلى تلميذه وأقرب المقربين إليه قطب الدين أبو الثناء محمود بن مسعود الشيرازي، فنهض بالعبء على ما أراده نصير الدين. فلم يجد «تكودار» الذي أصبح اسمه «أحمد تكودار» خيراً من الشيرازي خليفة الطوسي ليكون رسوله إلى العالم الإسلامي.

يقول العالم الأزهري الشيخ عبد المتعال الصعيدي: «لم يمت نصير الدين إلا بعد أن جدّد ما بلي في دولة التتار من العلوم الإسلامية وأحيا ما مات من آمال المسلمين بها».

إلى أن يقول: «. . . إن الانتصار على التتار لم يكن في الحقيقة بردهم عن الشام في موقعة «عين جالوت» وإنما كان بفتح قلوبهم إلى الإسلام وهدايتهم له».

وهذا ما حقّقه نصير الدين الطوسي.

هكذا استطاع نصير الدين الطوسي أن يهزم بالعقل والعلم الدولة الطاغية الباغية، وأن تنجح خططه في التمهيد لتحويل المغول من وثنيين إلى مسلمين[1].

الطوسي يحمي كتب بغداد

لا نريد هنا التحدث بالتفصيل عما جرى في فتح بغداد، بل أننا نريد معرفة مصير كتب بغداد وما جرى لها على أيدي الغزاة[2].

فمن أقدم الإشارات إلى ذلك ما ورد في الكتاب المنسوب ـ اشتباهاً وغلطاً إلى ابن الساعي ـ المتوفى سنة ٦٧٤ هـ قوله: «ويقال أنهم (المغول) بنوا

(١) يقول الدكتور عبد العظيم أنيس المعاصر: إن نصير الدين الطوسي كان واحداً من أعظم من أنجبتهم الحضارة العربية.

(٢) أشرنا بعض الإشارة إلى هذا الموضوع فيما تقدم. وهنا تفصيل لذلك الإجمال.

اصطبلات الخيول وطولات المعالف بكتب العلماء عوضاً عن اللبن». ثم ما ورد عن ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ من أن المغول استولوا على قصور الخلفاء وذخائرها «وعلى ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط والعد، وألقيت كتب العلم التي كانت بخزائنهم في دجلة وكانت شيئاً لا يعبر عنه». كما يذكر القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ عن خزائن كتب الخلفاء ببغداد عند الغزو المغولي بأنها «ذهبت فيما ذهب وذهبت معالمها وأعفيت آثارها». ويذكر ابن تغري بردي المتوفى سنة ٨٧٤ عن كتب بغداد بأنها أحرقت. كما يقول أن المغول «بنوا بها جسراً من الطين والماء عوضاً عن الآجر». ويقول: «وقيل غير ذلك». وهناك نص طريف لمؤرخ مكي توفي سنة ٩٨٨ أو ٩٩١ هـ جعل فيه بغداد على الفرات وقال: «ورموا كتب بغداد في الفرات وكانت لكثرتها جسراً يمرون عليها ركباناً ومشاة وتغير لون الماء بمداد الكتابة إلى السواد».

هذه أهم النصوص التي تدين المغول الذين غزوا بغداد سنة ٦٥٦ بإتلاف الكتب وخزائنها. وسأناقشها بعد أن أشير بإيجاز إلى المصادر التي سكتت عن مصير الكتب عند حادثة سقوط بغداد. وقد يفيد السكوت عدم حصول أي حادث للكتب.

فمن أهم المصادر التي سكتت عن هذه المسألة ما دوّنه رشيد الدين فضل الله الهمذاني المتوفى سنة ٧١٨ والذي يعتبر بحق مؤرخ المغول الأول، فقد سكت في تاريخه عن مصير الكتب، ولكنه ذكر القتل العام والنهب والإحراق والاستيلاء على قصور الخلفاء. كما نلاحظ السكوت أيضاً عند اليونيني المتوفى سنة ٧٢٦ وأبي الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ والذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ وغيرهم من المتأخرين كابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ.

أما المصادر التي أنارت الطريق للكشف عن المسألة، ففي مقدمتها معجم ابن الفوطي الموسوم بتلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب. حيث يذكر لنا هذا المؤرخ البغدادي المعاصر للحوادث التي نحن بصددها في ترجمة عز الدين بن أبي الحديد ما نصّه: «ولما أخذت بغداد كان (ابن أبي الحديد) ممن

خلص من القتل في دار الوزير مؤيد الدين مع أخيه موفق الدين، وحضر بين يدي المولى السعيد خواجة نصير الدين الطوسي وفوّض إليه أمر خزائن الكتب ببغداد مع أخيه موفق الدين والشيخ تاج الدين علي بن أنجب. ولم تطل أيامه فتوفى رحمه الله في جمادى الآخرة من سنة ست وخمسين وستمائة». وفي الحوادث الجامعة في سنة ٦٥٦: «كان أهل الحلة والكوفة والمسيب يجلبون إلى بغداد الأطعمة فانتفع الناس بذلك وكانوا يبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة...»[١] وفيه أيضاً أن علي شهاب الدين بن عبد الله عيّن صدراً في الوقوف وقد عمّر جامع الخليفة الذي أحرق أثناء الحادثة ثم فتح المدارس والربط وأثبت الفقهاء والصوفية وصرف لهم رواتبهم لما سلمت مفاتيح دار الخليفة إلى مجد الدين محمد بن الأثير وجعل أمره إليه». وفيه كذلك في حوادث سنة ٦٦٢ خبر قدوم نصير الدين الطوسي إلى بغداد لتفقد الأحوال والنظر في الأوقاف والأجناد والممالك وزيارته لواسط والبصرة وجمعه الكثير من كتب العراق لأجل الرصد. وأكد ذلك ابن شاكر الكتبي الذي يذكر تأسيس الطوسي لرصد مهم بمراغة فيه خزانة كتب مهمة ملأها من كتب بغداد وغيرها من المدن «حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد». وذكر

(١) قال الدكتور عبد المجيد أبو الفتح بدوي في كتابه: (التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الاسلامي) ص ٣٢٤:

رشيد الدين الهمذاني يذكر أنه أثناء حصار بغداد قدم على هولاكو وفد من مدينة الحلة والتمسوا أن يعين لهم شحنة فأرسل في أثرهم بعض جنده ليختبروا صدقهم ويقفوا على مدى إخلاصهم فأحسنوا استقبالهم وأقاموا الأفراح ابتهاجاً بهم (جامع التواريخ) (ج ١، م ٢، ث ٢٩٥ ـ ٢٩٦).

ويناقش الدكتور عبد المجيد هذا القول قائلاً:

إن ما ذكره رشيد الدين لا ينهض دليلاً على خيانة القوم بقدر ما يعكس لنا مشاعر الخوف التي سيطرت على عامة الناس: سنّيهم وشيعيهم على حد سواء.

إن الخيانة ـ في ظني ـ لا تتحقق إلا إذا وجدت القيادة الواعية المخلصة التي تجند الجميع في جهد منظم لدرء خطر يتهددهم. أما في حالة الضياع وانعدام القيادة وترك الناس يواجهون مصيرهم فإن مقاييس الأمانة والخيانة تصبح مقاييس حساسة يجب أن تستعمل بدقة وحذر بالغين في الحكم على الناس الذين من حقهم في هذه الحالة أن يجتهدوا لدرء الخطر عن أنفسهم. ولقد كانت بغداد تعيش حالة الضياع هذه وهي تواجه أشرس عدو عرفته البشرية في تاريخها الطويل.

ابن كثير ذلك أيضاً وقال: «نقل إليه ــ يعني الرصد ــ شيئاً كثيراً من كتب الأوقاف التي كانت ببغداد». وهناك إشارة عند ابن الفوطي إلى سوق الكتب ببغداد سنة ٧٢٢ كما أن المدرسة المستنصرية قد نجت أثناء حادثة سقوط بغداد «إذ كانت على وضعها حين وصفها ابن بطوطة سنة ٧٢٧ مطنباً في تصوير عظمتها. وقد ذكرها حمد الله المستوفي بعد زمن ابن بطوطة باثنتي عشرة سنة فقال: «إن بناءها من أجمل المباني الباقية في بغداد يومئذ». ولدى القلقشندي عن أوقاف بغداد ما يفيدنا في فهم مدى أثر المغول في نظم بغداد بعد سقوطها حيث يقول: «وأوقافها جارية في مجاريها لم تعترضها أيدي العدوان في دولة هولاكو ولا فيما بعدها، بل كل وقف مستمر بيد متوليه ومن له الولاية عليه، وإنما نقصت من سوء ولاة أمورها لا من سواها»[1].

والآن بعد ما أوردنا من نصوص، لنا أن نناقش الموضوع فنقول: أن أهم المصادر الأولية في موضوعنا هذا هي كتاب رشيد الدين فضل الله الهمذاني ومعجم ابن الفوطي والحوادث الجامعة. فالمصدران الأولان لم يذكرا شيئاً عن الكتب بوجه الخصوص، وإنما أشارا إلى النهب والقتل الذين صاحبا الحادثة بوجه عام. في حين أن المصدر الثالث وهو معجم ابن الفوطي ذكر إناطة أمر خزائن كتب بغداد بعد سقوطها بابن أبي الحديد وأخيه موفق الدين وابن الساعي، وذلك بأمر من نصير الدين الطوسي.

وهذا النص يشعرنا ببقاء خزائن كتب بغداد على حالها، وأنها كانت بتصرّف نصير الدين الطوسي الذي أمر بتعيين ثلاثة من كبار أدباء ومؤرّخي العصر للإشراف عليها وإدارتها. كما أن هذا النص ــ في الوقت نفسه ــ يدلنا على مدى التلاعب والتزوير في الكتاب المنسوب لابن الساعي الذي سبق لنا أن نقلنا ما ورد فيه عن مصير كتب بغداد حيث بدأ خبره بالتشكيك بلفظ: (يقال) ــ بأن المغول بنوا اسطبلات الخيول وطولات المعالف بكتب العلماء. في حين أن ابن الساعي وهو

(١) إن نجاة المدرسة المستنصرية وسلامة الأوقاف كان بمساعي الطوسي الذي استطاع إقناع هولاكو بأن يعهد إليه بأمور الأوقاف، كما أشرنا من قبل.

المؤرّخ الكبير المعروف كان ببغداد وقت الحادثة وهو ممن نجا منها، فلماذا يشكك في الأمر ولا يجزم فيه وهو شاهد عيان. هذا إلى جانب كونه أحد الثلاثة الذين أناط بهم نصير الدين الطوسي مسؤولية خزائن كتب بغداد بعد سقوطها. ولعل هذا الخبر عن كتب بغداد في هذا الكتاب كخبر الآخرين عن إسلام هولاكو قبل موته بطريقة عجيبة وبمعجزة للرفاعيين. وإخباره عن أبي سعيد آخر سلاطين الايلخانيين الذي كانت وفاة ابن الساعي قبل ولادته بأكثر من ثلث قرن من الزمان.

ثم إذا لاحظنا ما ذكره صاحب الحوادث الجامعة أيضاً وابن شاكر الكتبي وابن كثير والمقريزي عن نقل الطوسي للكثير الكثير من كتب بغداد والعراق إلى الرصد الذي أسسه بمراغة نشعر أيضاً بانتقال قسم كبير من كتب بغداد إلى خزانة الرصد المذكور. وبملاحظتنا لما نقله القلقشندي عن أوقاف بغداد بعد سقوطها نستشعر بأن قسماً من كتبها ــ وهو جزء من الأوقاف ــ لم تعترضه أيدي المغول. وفي بقاء المدرسة المستنصرية على حالها وسلامتها من أذى الغزو، مع علمنا بأنها كانت تضم خزانة كتب عظيمة فريدة لأمر يجلب الانتباه حقاً، ويفيد ببقاء خزانتها على ما كانت عليه قبل الغزو(١).

يتحدثون عن الطوسي

لقيت دعوة الطوسي استجابة كبرى لا من العلماء النازحين من مناطق الاحتلال المغولي فقط، بل من غيرهم أيضاً، من العلماء العرب وغير العرب الذين لبّوا الدعوة فدخلوا إلى مراغة حيث اجتمع هناك علماء من دمشق ومن الموصل ومن قزوين ومن تفليس ومن المغرب ومن سائر البلاد الإسلامية. ويحسن هنا أن نذكر ما كتبه العالم الدمشقي مؤيد الدين العرضي في مقدمة رسالته التي أنشأها في شرح آلات مرصد مراغة وأدواته والتي توجد منها نسخة خطية في مكتبة الإمام الرضا عليه السلام في مشهد. والعرضي هذا أحد العلماء العرب الذين لبّوا دعوة رسول الطوسي فترك دمشق ومضى إلى مراغة عاملاً تحت لواء الطوسي في

(١) الدكتور مفيد آل ياسين.

الميدان العلمي الواسع. وإليك ما كتبه في مقدمة رسالته: «.... وذلك كله بإشارة مولانا المعظم والإمام الأعظم العالم الفاضل المحقق الكامل قدوة العلماء وسيد الحكماء أفضل علماء المسلمين بل المتقدمين، وهو من جمع الله سبحانه فيه ما تفرق في كافة أهل زماننا من الفضائل والمناقب الحميدة وحسن السيرة وغزارة الحلم وجزالة الرأي وجودة البديهة والإحاطة بسائر العلوم، فجمع العلماء إليه وضم شملهم بوافر عطائه وكان بهم أرأف من الوالد على ولده، فكنا في ظلّه آمنين وبرؤيته فرحين كما قيل:

نميـل علـى جـوانبـه كـأنّـا	نميـل إذا نميـل علـى أبينـا
ونغضبـه لنخبـر حـالتيـه	فنلقـى منهمـا كـرمـاً ولينـا

وهو المولى نصير الملة والدين محمد بن محمد الطوسي أدام الله أيامه ولقد كنت:

واستكبـر الأيـام قبـل لقـائـه	فلمـا التقينـا صغـر الخبـر الخبـر

فللّه أيام جمعتنا بخدمته وأبهجتنا بفوائده وإن كانت قد أبعدتنا عن الأوطان والعشيرة والولدان، فإن في وجوده عوضاً عن غيره ومن وجده فما فاته شيء ومن فاته فقد عدم كل شيء فلا أخلانا الله فيه وأمتعنا بطول بقائه (انتهى).

وقال قاضي القضاة نظام الدين الأصفهاني يمدح نصير الدين الطوسي ويصف مرصد مراغة:

صفا شرب عيشي في صوى في مراغة	فظلـت كمـا شـاء المنـى أتفـرج
بها الرصد العالي النصيري مقصدي	إلـى الفلـك الأعـلا بـه أتـدرج
فللّـه بـانيـه وطـرق أبـانهـا	إلـى كشـف أسـرار الغـوامـض تنهـج
أرى عصـب التنجيـم أحسـن هيئـة	بـه يستـوي مـا فـي التقـاويـم عـوجـوا
دقـائـق علـم لا يجـدن ثـوانيـا	حـوى درجـاً منـه إلـى الغيـب يـدرج
تسـامـي الهضـاب الشـم تتلـع جيـدهـا	عسـاهـا بمـا يبنـى عليهـا تتـوج

فغالت لعمري الحظ أرض مراغة فمن كل إقليم عليها يعرج
فإن عيروا بابن المراغة شاعراً فمدح على وجه الهجاء يخرج
بناء لعمري مثل بانيه معجز تقربه الألحاظ والنفس تبهج
سيبلغ أسباب السماء بصرحه يناغي كعاب الزهر منها تبرج
أقول وقد شاد البناء بذكره وشيد قصراً لم يشده متوج
على الزهر أرصاد طلائع فكره إلى الرصد المعهود من أين يحوج
ترصدت لقياه هناك وقربه فكان منى من دونها الباب مرتج
ورمت سعود الجد في جنباته فساعدني سعد بودي ملهج
وجدت اسمه فألا علي مباركاً مقدمة منها الميامن تنتج
إلى السدة العلياء شمر ناهضاً لتقبيله منه البنان يهيج
فكلفته عرض الدعاء وخدمتي وحملته ما في الصحائف يدرج
ورمت على حال وقوف وقوفه فهمي أن أنهي إليه يفرج
وأصدرت عن تبريز ما أنا كاتب وصحبي ذموا العيس والخيل أسرجوا
لقصد جناب الصاحب الأعظم ارتمت طلائع أسفار لما ناب تزعج
تكفل دفع الجور عنهم وإنه مواعيد صدق صبحها يتبلج
ولولا عوادي الخطب جئت ملبياً دواعي أشواق لظاها تأجج

وجاء في ترجمة الطوسي في موسوعة (أعيان الشيعة):

. . . ويبدو أن هم الطوسي انصرف أول ما انصرف إلى إنقاذ حياة أكبر عدد من العلماء وحفظ أعظم عدد من الكتب، إذ أنه من الواضح أن الغزاة القادمين لا يمكن مقاومتهم بالقوة وأن الدولة في بغداد قد بلغت من التفسّخ والانحلال والفتن ما لن تستطيع معه أن تقف في وجه هذا السيل المغولي الجارف، وكان لا يصح التسليم وترك الوثنية تحل محل الإسلام، فإذا عجز المسلمون اليوم عن مقابلة السيف بالسيف فإنهم لن يعجزوا عن مقابلة آثاره بالعلم والثقافة والدعوة الحسنة،

ولن يتأتى ذلك إذ أبيد العلماء وانقرضت الكتب. لذلك اتخذ الطوسي من مرصد مراغة وسيلة لجمع الجم الغفير من العلماء وحمايتهم من القتل، كما انصرف إلى استخلاص الكتب وجمعها وحفظها فأدت النتيجة إلى أن ينقلب الأمر ويعود المغول بعد ذلك مسلمين منافحين عن الإسلام[1].

ويقول الدكتور مصطفى جواد: التحق نصير الدين الطوسي بهولاكو لينجي نفسه من الهلاك وليأتي بمعجزة القرن السابع: وهي نشر العلوم في الشرق وتأسيس أول أكاديمية علمية بالمعنى العلمي الحديث الذي تدل عليه كلمة academie وإقامة أعظم رصد عرف في الشرق وإنشاء أول جامعة حقيقية من النوع المعروف اليوم بـ universite[2].

---

(١) يصف الدكتور جعفر خصباك حال المسلمين إبان الغزو المغولي بقوله: كانت غالبية المسلمين في هذا الحين تنقصهم القيم الروحية التي نسميها الآن (الايديولوجية) التي تشد بعضهم إلى بعض. وقد كان الإسلام وهم أهم رابطة تجمع سكان المنطقة وتوحّد فيما بينهم قد أضحى آنذاك مجرّد ثقافة وأسلوب في الحياة وقد فقد قوته الدافعة القديمة وغلبت على أكثر المسلمين روحية الاستسلام للقضاء والقدر (انتهى).
ونقول: هذا ما أدركه نصير الدين الطوسي يومذاك فخطط لتحويل المسلمين من حال إلى حال، ونجح فيما خطط له.

(٢) ينقل الدكتور سليمان دنيا رئيس قسم العقيدة والفلسفة في جامعة الأزهر عن كتاب (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) تأليف جمال الدين يوسف الأتابكي الظاهري المخطوط بمكتبة الأزهر، قسم التاريخ تحت رقم ٦١٧ خصوصي، ٦٨٦٥١ عمومي، أن هولاكو أمر بقتل نصير الدين الطوسي فجرى حوار بينهما قال فيه نصير الدين: في الليلة الفلانية يخسف القمر.
قال هولاكو: احبسوه، إن صدق أطلقناه وأحسنَّا إليه، وإن كذب قتلناه، فحبس إلى الليلة المذكورة، فخسف القمر خسفاً بالغاً، فاتفق أن هولاكو تلك الليلة غلب عليه السكر فنام.
فقيل لنصير الدين ذلك، فقال نصير الدين: إن لم ير القمر بعينه وإلا فأغدو مقتولاً لا محالة، وفكر ساعة، ثم قال للمغول: دقوا على الطاسات، وإلا يذهب قمركم إلى يوم القيامة، فشرع كل واحد يدق على طاسة، فعظمت الغوغاء، فانتبه هولاكو بهذه الحيلة ورأى القمر قد خسف، فصدقه وآمن به، وكان ذلك سبباً لاتصاله بهولاكو.
= . . . .

أحدث هذا المعهد العلمي الكبير في جوار المرصد وغير بعيد عن خزانة الكتب، وكان يعج بالطلاب والوافدين عليه من كل فج عميق. وقد تميز صاحبه نصير الدين بحبه للطلبة واشتهر برعايته لهم ورفقه بهم وتوفير أسباب الدراسة والبحث لهم. وكان بقاء المرصد والمعهد يستدعي تخصيص مبالغ طائلة من المال. ذكر المؤرخون أن هولاكو بذلها لإنفاقها على بناء المرصد في دور التأسيس على يد نصير الدين(١) على أن اتّساع كل من المرصد والمعهد والمكتبة على توالي الأيام استنفذ تلك المقادير العظيمة. ولهذه العلة عني نصير الدين بإيجاد موارد مالية جديدة ينفقونها على الدار. وكان الإشراف على إدارة الأوقاف الإسلامية في جميع الممالك الايلخانية من خراسان إلى العراق مردوداً إليه، وكان ريع هذه الأوقاف جسيماً، فخصص الطوسي مقداراً كافياً منه لسد نفقات المرصد وملحقاته(٢).

= ثم يقول مؤلف الكتاب: ومن ثم صار الدق على النحاس إذا خسف القمر، ولم يكن له سبب غير ما ذكرنا.

ثم يقول: قال الشيخ شمس الدين، قال أحمد بن حسن الحكيم صاحبنا: سافرت إلى مراغة وتفرّجت في هذا الرصد. ثم يذكر بعض من رآهم هناك من العلماء من أمثال: علي بن الخواجا وشمس الدين محمد بن المؤيد العرضي وشمس الدين السرواني والشيخ كمال الدين الايكي وحسام الدين الشامي... ورأيت من آلات الرصد شيئاً كثيراً. ومنها ذات الحلق، وهي خمس دوائر متخذة من نحاس:

الأولى: دائرة نصف الليل، وهي مركوزة على الأرض.

ودائرة منطقة البروج

ودائرة العروض.

ودائرة الميل.

ورأيت الدائرة الشمسية، يعرف بها سمت الكواكب. واسطرلابايكون سعة قطره ذراعاً، واسطرلابات كثيرة.

(١) الوافي بالوفيات للصفدي، ١/ ١٨٢، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ٢/ ١٤٩، ومؤلفات أخرى.

(٢) ابن الفوطي، ٢/ ٢١٦ للشبيبي.

رثاؤه

رثي الطوسي بشعر كثير عربي وفارسي. فمما قاله بهاء الدين عيسى الأربلي في رثائه ورثاء عز الدين الاربلي الذي توفي في السنة نفسها:

ولمـا قضـى عبـد العـزيـز بـن جعفـر ... وأردفـــه رزء النصيـــر محمـــد
جــزعــت لفقــدان الاخــلاء وانبــرت ... شــؤونــي كمـرفـض الجمـان المبـدد
وجـاشـت إلـيّ النفـس حـزنـاً ولـوعـة ... فقلـت تعـزي واصبـري فكـأن قـد

أبناء نصير الدين الطوسي

تابع أبناء نصير الدين الطوسي رسالة أبيهم فمما يرويه صاحب كتاب (غاية الاختصار) في أخبار البيوتات العادية المحفوظة من الغبار) عن الباعث الذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب أنه ورد إلى مدينة السلام وفيها رأى أصيل الدين أبا محمد الحسن بن نصير الدين الطوسي. وبالغ جداً في الثناء عليه وفي إنهاضه همم العلماء والباحثين ومدحه بقوله:

يـا ابـن النصيـر ومـا الـزمـان مسـالمـي ... إلا وأنـــت علـــى الـــزمـــان نصيـــري
ســألــوك فــي علـم النجـوم لـو أنهـم ... قــد وفقــوا ســألــوك فــي التــدبيــر

وكان الحديث يدور بينهما عن الأخبار والأنساب، فقال له أريد أن تضع لي كتاباً في النسب العلوي...

والمؤلف ينوّه بالدولة الايلخانية وبنصير الدين الطوسي وبأولاده كثيراً، ذكره أكثر من مرة في كتابه.

وقد أنجب نصير الدين الطوسي عدة أبناء أصبحوا بعد وفاة أبيهم من رجال الدولة المعدودين وتقلّدوا المناصب التي تقلدها أبوهم قبل ذلك في أشهر الأقاليم التي كانت تابعة للمغول الايلخانيين. ومن ذلك فارس وآذربيجان واران والعراق.

ويذكر ابن الفوطي فيما يذكر من أخبارهم قوله: «ووصل بعد ذلك فخر

الدين أحمد بن خواجا نصير الدين الطوسي وقد أعيد أمر الوقوف بالممالك جميعها إليه وحذفت الحصة الديوانية في الوقوف على أربابها».

ويلي ذلك إشارة إلى أشخاص قلّدهم فخر الدين الطوسي إدارة شؤون الأوقاف نيابة عنه في العراق.

ولأبناء نصير الدين الطوسي ومنهم فخر الدين أحمد، وأصيل الدين الحسن، وصدر الدين علي، أخبار في كتابي ابن الفوطي: (الحوادث الجامعة) و (تلخيص مجمع الآداب). وكان فخر الدين أحمد بن نصير الدين كأبيه يشرف على مدارس بغداد ومنها (المستنصرية) وإليه تعيين الفقهاء والمدرسين في المدرسة المذكورة.

وكانوا جميعاً منقطعين للعلم والبحث وإنشاء المعاهد العلمية ودور الكتب الضخمة، معنيين بإصلاح ما فسد من الأحوال الاجتماعية في ممالك المغول. وإلى تجنبهم التحزب والاشتغال بالأعمال السياسية والتورط في الدسائس والتطلع إلى مناصب الحكم، مرد سلامتهم في الدولة المغولية على اختلاف عصورها.

وقد قتل من هؤلاء الأخوة فخر الدين أحمد سنة ٧٠٠ بمدينة سيواس بأمر من السلطان غازان، وفي ذلك يقول الشبيبي في كتابه (ابن الفوطي) ج ٢، ص ٢٠٨ ــ ٢١٠: «ومن أكبر الأدلّة على شر المغول وغدرهم بأصحابهم ورجال دولتهم مقتل فخر الدين هذا».

المغول

الغزو المغولي الأول

يقول نصير الدين الطوسي عن نفسه: أنه بعد وفاة والده عمل بوصيته في الرحيل إلى أي مكان يلقى فيه أساتذة يستفيد منهم. وكانت نيسابور في ذلك العهد مجمع العلماء ومنتجعاً للطلاب فسافر إليها.

وفي خلال وجوده في نيسابور زحف المغول زحفهم الأول بقيادة جنگيز خان حاملين الدمار والموت فاجتاحوا فيما اجتاحوا بلاد خراسان فانهزم أمامهم محمد خوارزم شاه، وانهارت بعده كل مقاومة وتساقطت المدن واحدة بعد الأخرى، وساد القتل والخراب والحريق وفر الناس هائمين على وجوههم: بعض إلى الفلوات وبعض إلى المدن البعيدة وبعض إلى القلاع الحصينة. ومن لم يستطع شيئاً من ذلك انطلق لا يدري أية ساعة يأتيه الموت.

وقد استطاعت قلاع الإسماعيليين أن تنجو بنفسها ولا تستسلم، فلجأ إليها نصير الدين الطوسي فيمن لجأ. وفيها أتم كتاب (أخلاق ناصري) و (الرسالة المعينية) وغيرها من الكتب.

والغزو المغولي الأول والغزو المغولي الثاني تحدثنا عنهما في كتابنا

(المغول بين الوثنية والنصرانية والاسلام) فلا نعيد الحديث عنهما هنا.

وكل ما سنفعله هو أننا سنعرِّف بعض التعريف بخوارزم ونلمّ ببعض الإلمام بسيرة علاء الدين محمد خوارزم شاه لارتباط ذلك بالحديث عن الغزو المغولي. ولما كنا في كتابنا (المغول) قد تبسّطنا في الحديث عن الغزو المغولي الثاني بقيادة هولاكو لارتباطه الارتباط الوثيق بغرب العالم الإسلامي ونتائجه الخطيرة على هذا الغرب. على عكس ما فعلنا في الحديث عن الغزو المغولي الأول بقيادة جنكيز، لذلك فإننا سنعود هنا إلى شيء من التبسط في الحديث عن جنگيز وغزوه، ليتم الحديث بقدر المستطاع عن الغزو المغولي بعامته سواء الأول منه أو الثاني.

وواقع الأمر أن كلا كتابينا: (المغول) وهذا الكتاب متمم أحدهما للآخر، ولا تغني قراءة أحدهما عن قراءة الآخر.

خوارزم

خوارزم إقليم يقع في المجرى الأسفل لنهر أموداريا (جيحون). وكان نهر جيحون يعد الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والأقوام الناطقة بالتركية، أي: (إيران) و (طوران) فما كان في شماله أي وراءه من أقاليم سمّاه العرب (ما وراء النهر)، ويمكن تقسيم هذه البلاد إلى خمسة أقاليم أجلها شأناً (الصُّغْد) مع قصبتيه بخارا وسمرقند. وفي غرب الصغد: خوارزم، ويشتمل على دلتا جيحون.

وفي الجنوب الشرقي: (الصاغانيان) ومعه (الختّل) وغيرهما من الكور الكبيرة في أعالي نهر جيحون. وإليه تعود (بذخشان) وإن وقعت في ضفته اليسرى أي الجنوبية، فإن المنعطف الكبير للنهر فيما وراء طخارستان يكاد يطوقها، ثم إقليما نهر سيحون وهما: فرغانة في أعلى النهر، وإقليم الشاش، وهو اليوم طشقند مع النواحي التي في الشمال الغربي الممتدة على مصب سيحون في مناقع بحر أرال.

وكما يفصل نهر أموداريا (جيحون) بين الناطقين بالفارسية والناطقين

بالتركية فإن نهر سراداريا (سيحون) يفصل بين العالم التركي المغولي والعالم الإسلامي.

وفتح المسلمون إقليم خوارزم سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م). وخضعت خوارزم سنة ١٠١٧ م للغزنونيين فحكمها (ألتونتاش) من قبل السلطان محمود الغزنوي وظلّت في حكمه وحكم أسرته حتى سنة ١٠٤١ م ثم خضعت للسلاجقة ومنهم انتقلت إلى من يمكن أن نسميهم (الخوارزمشاهية) الذين قامت دولتهم على أنقاض السلاجقة، وأشهر الخوارزمشاهية علاء الدين محمد خوارزم شاه.

إن أحدث ما ذكر عن خوارزم هو أنها: ناحية دلتا آموداريا (جيحون) التي تمتعت بحكم ذاتي فيما كان يتشكل منه ما كان يعرف باسم الاتحاد السوفيتي باسم جمهورية (كاراكلپاس) أو (قراقلباق)[١] وأنها تقع في السواحل الجنوبية لبحر آرال فيما سمي بآسيا المركزية.

ويكتب الاصطخري (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ = ٧ - ٩٥٨ م)، في كتابه: (المسالك والممالك) ما مضمونه:

«ومدن خوارزم الأخرى هي: درغان، وهزاراسپ، وخيوه، وخشميش، وأردخشميش، وسافردز، وگرگانج. وتدعى قصبة هذه النواحي (كاث) وفيها قلعة قديمة، وقد أتى السيل على المدينة فانتقل أهلها إلى مكان أعلى منها بعد أن بلغ السيل القلعة وخشي على مسجد آدينه الواقع في القلعة وقصر خوارزم شاه المحاذي للمسجد وعلى السجن المتاخم للقلعة، وثمة نهر صغير يجري وسط المدينة ويقع على ضفتي هذا النهر سوق طويل ذو سماطين..».

ويتعرض ابن حوقل لذكر موقع مدينة (كاث) على الخريطة التي رسمها بنفسه في كتابه (صورة الأرض) الذي يحتمل أن يكون تأليفه عام ٣٦٧ = ٩٧٧ فيقول: «تحت مصب النهر الخامس لمدينة ترمذ إلى الشمال من نهر جيحون».

وفي معجم البلدان يكتب ياقوت: كاث بلغة أهل خوارزم: الحائط في

---

(١) C.F.The Times. Atlas of the World Vol 11, P.1-43. And Eneyclo-Pacdia of Islam, Vol.1. P.1236.

الصحراء من غير أن يحيط به شيء، وهي بلدة كبيرة من خوارزم، وإنما هي من ناحية جيحون الغربية».

ويقول عن خوارزم:

خوارزم ليس اسماً للمدينة إنما هو اسم للناحية بجملتها. فأما القصبة العظمى فيقال لها اليوم الجرجانية، وأهلها يسمونها (كُرْكانج)، وكنت زرتها سنة ٦١٦ فما رأيت قط ولاية أعمر منها (انتهى).

وقد ذكرت خوارزم في الشعر العربي بين مدح وذم فمما جاء في ذمها:

ما أهل خوارزم سلالة آدم ... ما هم وحق الله غير بهائم
إن كان يرضاهم أبونا آدم ... فالكلب خير من أبينا آدم

وقال ابن عُنَين:

خوارزم عندي خير البلاد ... فلا أقلعت سحبها المغدقه
فطوبى لوجه امرىء صبحتـ ... ـه أوجه فتيانها المشرقه
وما أن نقمت بها حالة ... سوى أن أقامت بها مقلقه

وقال الموفق بن أحمد المكي ثم الخوارزمي يتشوقها:

أأبكاك لما أن بكى في ربى نجد ... سحاب ضحوك البرق منتحب الرعد
له قطرات كاللآلىء في الثرى ... ولي عبرات كالعقيق على خدي
تلفت منها نحو خوارزم والهاً ... حزيناً ولكن أين خوارزم من نجد

علاء الدين محمد خوارزم شاه

هو علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ ـ ٦١٧ هـ = ١١٩٩ ـ ١٢١٩ م) الذي غزا جنگيز بلاده سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) بعد أن قتل خوارزم شاه جماعة التجار الذين أرسلهم جنگيز إلى خوارزم حاملين أموالاً وعروضاً ليشتروا بها ثياباً لكسوة عساكر جنگيز، فأمر علاء الدين محمد بقتلهم والاستيلاء على ما يحملون،

ما أثار غضب جنگيز خان فقرر السير إلى خوارزم للانتقام من علاء الدين محمد خوارزم شاه، فما كان من هذا إلا أن تخاذل عن مقاومة جنگيز وأخذ يوزع الحاميات على المدن ويبتعد عن مواجهة جنگيز. وراح جنگيز يكتسح المدن مدينة مدينة مرتكباً فيها فظائع القتل والنهب والإحراق والتدمير حتى انتهى أمر خوارزم شاه فاراً إلى إحدى جزر بحر الخزر ومات هناك تاركاً بلاده لعدوه يدمرها تدميراً.

وكانت دولة خوارزم في عهد علاء الدين أقوى دولة إسلامية في الشرق الإسلامي استطاعت توحيد بلاد ما وراء النهر وإيران وضمّت إليها جميع الأراضي التي كانت تابعة من قبل لمملكة الغور، ولكن هذا التوحيد كان توحيداً سطحياً مبنياً على القهر والقتل والعسف..

ولقد بلغت حدودها من فرغانة إلى بحيرة آرال، وصارت الضفة اليمنى لنهر سيحون داخلة في نطاقها، بل خطب باسم خوارزم شاه في عُمان البعيدة. وفي سنة ١١٩٤ م اتخذ حاضرته في سمرقند بعد أن تخلّص من خصمه صاحبها عثمان[١].

(١) يقول (بارتولد) في كتابه (تركستان) ـ وقوله صحيح ـ: المصنفات التاريخية التي وضعت من أجل سلاطنة الغور وشاهات خوارزم لم تصل إلى أيدينا، ولهذا فإن معرفتنا بتاريخ هاتين الدولتين يرجع إلى المؤرخين النقليين من أهل القرن الثالث عشر..

إلى أن يقول: أما تاريخ شاهات خوارزم فإنه يشغل شطراً كبيراً من تاريخ (جهان كشاي) للجويني الذي يبدو في هذا المجال كأنه المصدر الوحيد لمير خواند والمؤرخين النقليين من الفرس السابقين له. كل من الجويني وابن الأثير اعتمد فيما يتعلق بشاهات خوارزم على مصنف لأبي الحسن علي بن زيد البيهقي بعنوان (مشارب التجارب وغوارب الغرائب) ووفقاً لألفاظ الجويني فإن هذا المصنف يمثل تكملة (لتجارب الأمم) لمسكويه المتوفى سنة ٤٢١ (١٠٣٠ م) وينقل الجويني أيضاً عن (جامع العلوم) لفخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ـ ١٢١٠ م، الذي وضعه من أجل خوارزم شاه تكش. أما عن التاريخ المبكر لخوارزم فإن مؤلفاً ضخماً يقع في ثمانين جزءاً لأبي محمد محمود العباسي الخوارزمي المتوفى سنة (٥٦٨ ـ ١١٧٢ م) عالج فيه الكلام على خوارزم وأهلها وقد اختصره الذهبي (القرن الرابع عشر). وفي صدد شاهات خوارزم يشير حاجي خليفة إلى كتاب من تأليف سيد صدر الدين بعنوان (تاريخ خوارزم شاهي). وثمة مصدر بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ فترة شاهات خوارزم =

ولما بلغ خوارزم شاه هذا المبلغ من القوة والسلطان طمع في أن يكون له في بغداد ما كان للسلاجقة ومن قبلهم للبويهيين من النفوذ والتحكم في الخلفاء وطلب أن يخطب باسمه على منابرها مع ما يستتبع ذلك من السلطة.

ولكن الخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر كانت بعد أن تخلص الناصر من السلاجقة قد استعادت الكثير من قوتها وبسطت سلطتها الفعلية بقوتها الذاتية على بقاع شاسعة، فلم يلتفت الناصر إلى طلب خوارزم شاه ورفضه رفضاً قاطعاً، وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهروردي ناصحاً محذراً، فاستقبله علاء الدين محمد بالإعراض وجعله ينتظر طويلاً قبل أن يأذن له بالدخول، ولما دخل عليه لم يطلب إليه الجلوس، فابتدأ الشيخ حديثه بقراءة حديث نبوي مؤدّاه أن النبي حذّر المؤمنين من إيذاء آل العباس. فرد خوارزم شاه قائلاً: أنا وإن كنت تركياً قليل المعرفة باللغة العربية لكنني فهمت معنى ما ذكرته من الحديث، غير أني ما أذيت أحداً من ولد العباس ولا قصدتهم بسوء. وقد بلغني أن في محبس أمير المؤمنين منهم خلقاً مخلدين، فلو أعاد الشيخ الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع وأجدى وأنجع.

فرد الشيخ بأن الخليفة يبايع على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاده، فإن

= يتمل في مجموعتين من الرسائل الرسمية لا تحمل الأولى منهما أي عنوان وهي محفوظة في مخطوطة فريدة كانت توجد في الماضي بقسم دراسة اللغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية الروسية. والغالبية العظمى من رسائل هذه المجموعة بقلم منتجب الدين بديع كاتب السلطان سنجر. ومن بينها مكتوب غاية في الطرافة بعث به خوارزم شاه ايل أرسلان إلى حكومة الخليفة العباسي وهو من تحرير الشاعر الوطواط المتوفى سنة ٥٧٨ (١١٨٢ م). أما المجموعة الثانية التي تحمل اسم (التوسل إلى الترسل) فهي من تحرير بهاء الدين محمد بن مؤيد البغدادي الذي كان في خدمة خوارزم شاه تكش.

وقد وضع محمد بن نجيب بكران من أجل خوارزم شاه محمد (١٢٠٠ ــ ١٢٢٠ م) مصنّفاً بالفارسية بعنوان (جهان نامه) وعلى ما نعلم فإن هذ الأثر محفوظ في مخطوطتين فقط، وهو يحتوي على معلومات طريفة في جغرافيا ما وراء النهر وتاريخ القراخطاي.

اقتضى اجتهاده حبس شرذمة لإصلاح أمة لا يقدح ذلك في طريقته المثلى.

وفشل الشيخ في سفارته

وعلى ما يروي الجويني في الجزء الثاني، ص ١٢١، فإن خوارزم شاه أراد أن يجد المبرر لمهاجمة الخليفة وغزو بغداد عاصمة الخلافة، فادعى أنه وجد بغزنة عند الاستيلاء عليها سنة ١٢١٥ م رسائل من الخليفة تحرّض الغوريين عليه، فاستطاع بهذا الادعاء أن يستحصل من (أئمة البلاد) على فتوى بأن الخليفة الذي يتآمر مثل هذا التآمر على ملك يجاهد في سبيل الإسلام ورفع رايته، يجوز لهذا الملك أن يعزله من الخلافة وينصب خليفة آخر مكانه، هذا فضلاً عن أن الخلافة هي من حق آل علي من نسل الحسين اغتصبها منهم آل العباس.

واستناداً إلى هذه الفتوى فقد أعلن خوارزم شاه عزل الخليفة الناصر ومنع الخطبة باسمه في صلاة الجمعة، وحذف اسمه من السكة، كما أعلن أنه بايع بالخلافة للسيد علاء الملك الترمذي، ويذكره بعضهم باسم السيد علي عماد الدين.

وهكذا نرى أن المتسلّطين في كل زمان وكل مكان يجدون في (أئمة البلاد) من يفتي لهم بما يهوون، ولو أن هؤلاء الأئمة كانوا في بغداد وطلب منهم الخليفة الناصر أن يفتوا بأن خوارزم شاه خارجي يجب قتاله لأفتوا بذلك.

على أن اللافت للنظر هنا توسّل خوارزم شاه بغصب العباسيين للخلافة من العلويين وتحديده أن المغصوب منهم هم آل علي من نسل الحسين. . .

فهل كانت بين رعايا خوارزم شاه جماهير شيعية أراد خوارزم شاه استهواءها بهذه الدعوة؟ وهل كانت هذه الجماهير ممن يقولون بإمامة الأئمة من نسل الحسين عليه السلام الاثني عشر ولذلك تعمّد ذكر الحسين عليه السلام ونسله؟.

من المعلوم أنه لم يكن لهذا الفريق مرشح للخلافة بعد السنة ٢٦٠ هـ وأصبحوا لا يهتمون بمن يتولاها، فمبايعة علوي حسيني بالخلافة لا تعنيهم ولا

يعترفون بصاحبها خليفة. ولكن من المؤكد أنهم يتعاطفون مع خليفة حسيني بما لا يتعاطفون به مع خليفة عباسي.

الواقع أن هذا الذي مرّ به في هذا الموضوع المؤرخون الجويني ومير خواند وحمد الله المستوفي القزويني مروراً غير متأن يستحق التأني الطويل والاستقصاء البعيد، مما هو غير متيسر لنا الآن، ولعلنا نعود إليه في وقت آخر. . .

على أن مما يستدعي الانتباه ما جاء في رحلة ابن فضلان المعروفة برسالة ابن فضلان وهي ما دونه عن رحلته التي وصل فيها في بعض ما وصل إليه إلى خوارزم وذلك سنة ٣١٠ وهو قوله عن أهل خوارزم: «وهم يتبرّؤون من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في دُبُر كل صلاة»(١).

ومع أن هذا كان في أوائل القرن الرابع الهجري، وأحداث علاء الدين محمد

---

(١) أحمد بن فضلان من أشهر رحالي العرب، أرسله الخليفة العباسي المقتدر الى ملك الصقالبة ـ كما يعبر عنهم مؤرخو العرب ـ مع ثلاثة رجال آخرين. رحل الوفد من بغداد في شهر صفر سنة ٣٠٩ فمر بهمذان فالري فنيسابور، وعبر نهر جيحون حتى بلغ مدينة بخارا عاصمة السامانيين.
ثم أوغل الوفد في البوادي حتى وصل الى ملك الصقالبة في حوض نهر إتل (الفولغا) سنة ٣١٠ فاستغرقت رحلته في الذهاب أحد عشر شهراً لاقى أثناءها مصاعب كثيرة وأهوالاً مذهلة وصفها ابن فضلان وصفاً دقيقاً بارعاً.
وكتب رسالة في وصف الرحلة بعد رجوعه الى بغداد ذكر فيها ما شاهده منذ انفصل عن بغداد الى أن عاد إليها. وتاريخ الرجعة وخط سيرها غير معروفين لنا، إذ أن خاتمة الرسالة قد ضاعت.
وتوجد مخطوطة لرسالة ابن فضلان في مكتبة الامام الرضا عليه السلام بمشهد ولكنها ناقصة في ختامها.
الطبعة الفريدة لهذه الرحلة بالعربية كانت الطبعة المتواضعة التي أصدرتها مديرية إحياء التراث العربي في دمشق في الخمسينات بتحقيق الدكتور سامي الدهان وأعيدت طباعتها سنة ١٩٧٨.
يصف ابن فضلان أهل خوارزم بقوله: «. . . وهم أوحش الناس كلاماً وطبعاً. كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير، وبها قرية على يوم يقال لها أردكوا، أهلها يقال لهم الكردلية كلامهم أشبه بنقيق الضفادع. . .».

خوارزم شاه كانت بين أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع، فإننا لا نحسب أن تحولاً قد طرأ على أفكار هؤلاء القوم فحولهم عما رآهم عليه ابن فضلان إلى العكس من ذلك.

ومع أن أهل خوارزم كانوا بعض رعايا خوارزم شاه لا كل رعاياه، وهم الأقل عدداً بين مجموع رعايا المملكة الواسعة التي اجتمعت لخوارزم شاه، فإن لهم أثرهم في توجهات خوارزم شاه ومع ذلك فهو لم يراعهم في تصرفه بأمر الخلافة.

وهنا نتساءل عن أمرين: الأول هو: ما هي حقيقة هؤلاء القوم؟ هل هم خوارج؟ إن ما ينفي كونهم خوارج هو أن الخوارج لا يتبرؤون من علي بن أبي طالب عليه السلام وحده، بل منه ومن عثمان، ولا نعرف عقيدة فاسدة في الإسلام تتبرّأ من علي بن أبي طالب وحده. وكان الأمويون يلعنونه على المنابر وقد أبطل ذلك عمر بن عبد العزيز.

والشيء الثاني الذي نتساءل عنه هو ما تساءل عنه قبلنا ياقوت الحموي وهو يروي حديث ابن فضلان عن بعض شؤون خوارزم. وهو: ماذا يعني ابن فضلان بخوارزم هنا؟ وقد قال ياقوت بعد أن نقل بعض أقوال ابن فضلان: لا أدري أي شيء عنى بخوارزم لأن خوارزم هو اسم الإقليم بلا شك. ونحن نسأل السؤال نفسه.

على أنه ربما كان للأمر وجه آخر لا يتعلق بوجود جماهير شيعية في مملكة خوارزم شاه يريد خوارزم شاه استهواءها، بل يريد تقاسم التعاطف الشيعي مع الناصر. فالناصر كان متشيعاً متجاهراً بذلك شأنه شأن المأمون والمعتضد ابن الموفق. وقد نص على ذلك معظم المؤرخين أمثال (ابن الطقطقي) في كتابه (الآداب السلطانية)، وعلي ابن أنجب البغدادي المعروف بابن الساعي في كتابه (مختصر أخبار الخلفاء) وابن واصل وغيرهم.

وهو الذي بنى ما يسمى سرداب الغيبة في سامراء وجعل فيه شباكاً من الآبنوس الفاخر أو الساج كتب على دائره اسمه وتاريخ عمله. ونقش في خشب الساج داخل الصفة في ظهر الحائط ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم، محمد رسول الله، أمير المؤمنين علي ولي الله، فاطمة، الحسن بن علي، الحسين بن علي، علي بن الحسين، محمد بن علي، جعفر بن محمد، موسى بن جعفر، علي بن موسى، محمد بن علي، علي بن محمد، الحسن بن علي، القائم بالحق عليه السلام.

فربما يكون خوارزم شاه قد أراد أن يزايد على الناصر في إظهار الميل الشيعي كسباً لعواطف الشيعة في العراق المتعاطفين مع الناصر. على أن ما يرد هذا هو أن خوارزم شاه كان يريد قبل كل شيء أن يسترضي جماهيره لا جماهير الناصر.

وإذا كان تساؤلنا وتساؤل ياقوت الحموي سيظل بدون جواب، وإذا تجاوزنا القول بأن ما تحدث عنه ابن فضلان ربما كان لا يتجاوز بلدة واحدة في خوارزم وفرضنا أنه يشمل خوارزم كلها، فإن خوارزم هذه لا تؤلف إلا رقعة محدودة المساحة والسكان بالنسبة إلى اتّساع ما يسيطر عليه خوارزم شاه من بلاد وكثافة ما يحويه من عباد. فهل كان يومذاك في مملكة خوارزم شاه الواسعة جماهير شيعية يحاول كسب تعاطفها معه؟..

ونحن نعرف من مشاهير الشيعة الذين ينتمون إلى خوارزم: أبا بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ أي أن بين ما رآه ابن فضلان في خوارزم وبين وفاة أبي بكر هذا ثلاثاً وسبعين سنة. ومحمود بن عمر النيسابوري شارح كتاب (تاريخ اليميني) يقول عن أبي بكر الخوارزمي إن أصله من طبرستان ومولده ومنشؤه بخوارزم.

وليس في هذا القول ما يوضح لنا ما نريد استيضاحه، فكونه مولوداً وناشئاً في خوارزم لا يدل على شيوع التشيع فيها ما دام أصله من غيرها.

محاولة غزو بغداد

ثم جهز خوارزم شاه جيشاً قوياً للزحف على بغداد، ولكن هذا الجيش لاقى عواصف ثلجية في جبال كردستان، ما حطمه وشتّته وتخطف الأكراد ما بقي منه فلم يرجع من الجيش إلى خوارزم شاه إلا شراذم منهوكة.

ولم نعد نسمع شيئاً عن الخلافة الجديدة، فيبدو أنها لم تنجح إذ لا الشيعة ينضمون تحت لوائها لأنها لا تتفق مع عقيدتهم، وكذلك السنيون الذين لا تقنعهم الأسباب التي طرحها خوارزم شاه لإلغاء الخلافة القائمة، وهم أدرى الناس بأهواء (أئمة الدين) المفتين.

وكل ما نعرفه هو أن خوارزم شاه عند وصوله إلى نيسابور في ذي القعدة سنة ٦١٤ هـ (شباط ١٢١٨ م) قد أمر فيها بعدم ذكر اسم الخليفة الناصر في خطبة الجمعة، وتم ذلك أيضاً في مرو وبلخ وبخارا وسرخس، ولم يتم في خوارزم وسمرقند وهرات.

ويرى بعضهم أن عدم تمام ذلك في هذه المدن ربما كان بسبب الصراع بين خوارزم شاه ووالدته حيث عضد رجال الجيش ورجال الدين والدته عليه.

على أن الذين ذكروا إسقاط اسم الخليفة من خطبة الجمعة لم يذكروا أن خوارزم شاه أحل إسماً آخر محل اسم الخيفة، وهذا يرشد إلى أن الخلافة الجديدة لم تنجح كما قلنا.

أما عن الصراع بين خوارزم شاه ووالدته فيعزى إلى غضب الوالدة على ابنها وكذلك غضب رجال الجيش لقتل الشيخ مجد الدين البغدادي. وصفة (الشيخ) اللاصقة باسمه هي صفة دينية، وإلا فإنه كان شاباً. وكان هذا الشيخ من تلاميذ الشيخ نجم الدين الكبرا مؤسس الطريقة الصوفية الكبراوية. ولا يوجد أي سبب واضح لقتله ولم يستطع أحد تعليل هذا القتل. على أن المتأخرين من أمثال حمد الله المستوفي القزويني قد رأوا أن القتل كان لوجود ارتباط غير أخلاقي بين الشيخ الشاب وبين والدة خوارزم شاه. ويستبعد ذلك (بارتولد) قائلاً أن من المستحيل قبول هذا القول لأن الملكة كان لها في ذلك الوقت حفيد.

ونحن الذين لا يمكن أن نتهم الملكة لبعد ما بين زماننا وزمان تلك الأحداث ولخطورة التهمة التي لا دليل عندنا عليها، نقول أن وجود حفيد لها لا يكفي لدفع

التهمة فكثير من الجدّات يكن في أعمار لا تتنافى مع توجيه التهم إليهن[١]..

وعلاء الدين محمد خوارزم شاه أدت مطامعه إلى ما أدت بما نوجزه حين نقول: إن جنكيز أرسل قافلة تجارية يقول الجويني أنها كانت تضم ٤٥٠ رجلاً كلهم مسلمون على رأسهم ـ كما يقول النسوي ـ عمر خواجه الاتراري والحمّال المراغي وفخر الدين الديزكي البخاري وأمين الدين الهروي، كانوا يحملون على ٥٠٠ جمل البضائع من الذهب والفضة والحرير الصيني وثياب الترغو وفرو القندس والسمور وغيرها من الأشياء الثمينة، ليشتروا بكل ذلك ما يكسو الجيش المغولي الذي يعده جنكيز لحربه المقبلة.

وبوصول القافلة إلى اترار حجزها ورجالها والي اترار وأخبر خوارزم شاه خبرها فأمره بقتل الرجال ومصادرة الأموال وإرسالها إليه فبادر ببيعها إلى تجار بخارا وسمرقند وقبض إثمانها، ما أدى إلى أن يغير جنكيز خان وجهة غزوه فيحوله إلى بلاد خوارزم شاه في تفاصيل ذكرناها في كتابنا (المغول بين الوثنية والنصرانية والإسلام) ولا نعيدها هنا. خوارزم شاه هذا الذي برر محاولته الهجوم على بغداد بإشاعة أن الخليفة كان يحرض عليه، وربما كان هو الذي أشاع اتهام أمه بالعلاقة الآثمة بينها وبين مجد الدين البغدادي تبريراً لقتله إياه. خوارزم شاه يستسهل اتهام الناس بكل شيء تبريراً لأفاعيله، كما فعل الآن باتهام رجال القافلة التجارية بالتجسّس لمصلحة جنكيز تبريراً لقتله إياهم وسلبهم الكنوز التي كانوا يحملونها.

وقد استسهل ما هو أعظم من ذلك بعد الكارثة التي حلت بجيشه الزاحف إلى بغداد، ثم ما بدا بعد مذبحة اترار من تهيّؤ جنكيز للانتقام وبروز مظاهر هذا التهيؤ بروزاً كاملاً، استسهل أن يُشيع اتهام الخليفة الناصر بأنه هو الذي حرّض

---

(١) لما علمت أم محمد خوارزم شاه بما جرى على ولدها من المغول بعد ذلك، خافت على نفسها فتركت مقرها متّجهة إلى الري فأصفهان فبلاد الجبل لتحتمي بها، وفي طريق الري صادفها المغول ومعها نساء ولدها وأمواله وذخائره التي يصفها المؤرخون بأنها: (لم يسمع بمثلها من الأعلاق النفيسة) فقبضوا عليها وعلى من معها، وصادروا ما معها (فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم وما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع ونفيس الجواهر) وأنفذوا كل ذلك إلى جنكيز خان في سمرقند.

المغول على غزو بلاد خوارزم. كأن المغول بحاجة لمن يحرّضهم بعد مذبحته في مبعوثيهم ونهبه لثرواتهم. وكما يقول (بارتولد) في كتابه (تركستان): «وتصرف خوارزم شاه حتى من وجهة نظر القانون الدولي المعاصر قد أعطى جنگيز خان أكثر من سبب كاف لإعلان الحرب، بحيث لم يحتج الأمر إلى تحريض ما من طرف ثالث».

ويزيد بارتولد على ذلك قائلاً: «وبهذه الطريقة نفسها نجد أنصار البابا باوربا يتهمون الإمبراطور فريدريك الثاني باستدعاء المغول، بينما يتهم الامبراطور البابا اتهاماً مماثلاً».

وتعليقاً على ما كان ينال البلاد الإسلامية التي كان علاء الدين محمد خوارزم شاه يفتحها ويضمها إلى ملكه، وما كان ينال شعوبها من جوره وظلمه، يقول بارتولد: «أصبح من العسير على محمد أن يسبغ على حربه مع حنگيز خان طابع الجهاد خاصة وأن ضحايا كارثة أترار التي جعلت الحرب أمراً لا مفر منه كانوا جميعاً من المسلمين بلا استثناء».

استطرادات لا بد منها

مما يذكر أن اكتساح جنگيز للعالم الاسلامي في الشرق كان متزامناً مع الحملة الصليبية الخامسة. ففي الوقت الذي سقطت بخارا بيد جنگيز سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) كان الصليبيون يحاصرون مدينة دمياط سنة ١٢١٩. على أنه كان للخوارزميين بعد ذلك شأن في الحروب الصليبية ببلاد الشام. فقد بقي من علاء الدين محمد خوارزم شاه: ولده جلال الدين منكبرتي، وبقي له ستون ألف مقاتل وبعد وقائع وأحداث له مع المغول سار سيرة سيئة في المسلمين أنستهم سيرة المغول فيهم، فبعد رجوعه من الهند سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) بعد فراره أمام جنگيز جمع فلول جيش أبيه وطفق يعيد سيطرته على جنوب إيران وغربها، ولكنه انصرف إلى محاربة أمراء المسلمين وخليفتهم ونهب بلادهم وتخريبها حتى اضطروا إلى محاربته، وأخذ يغزو دولة الخليفة في نفس السنة حتى تغلغل إلى

بعقوبا وبادرايا والراذان وباكسايا وتكريت وهو ينهب ويقتل[١]، وقد فتح داقوقا وأوقع السيف في أهلها وسبى حريمهم وهتك نساءهم وأحرق بلدهم وهدم سوره[٢]. وكان عسكره على ما وصفهم الذهبي: (مجمعة لا أخباز لهم بل يعيشون على النهب والإغارة)[٣]، وانتهى به الأمر أخيراً إلى الوصول إلى مدينة خلاط سنة ١٢٣٠ (٦٢٧) حيث افتتحها بعد حصار ستة أشهر فارتكب فيها من الفظائع والأهوال إلى الحد الذي قال فيه محمد بن سالم بن واصل: «فقتل كل من وجد في البلد وسبى عسكره الحريم وباعوا الأولاد ونهبت الأموال وجرى نظير ما جرى من التتر»[٤]. وكان من جملة الأسرى زوجة الملك الأشرف الأيوبي فانتهك السلطان جلال الدين عرضها في الليلة نفسها التي استولى فيها على المدينة (أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر، حوادث سنة ٦٢٨). وبعد خطوب وأحداث ليس هنا مكان ذكرها ومقتل جلال الدين سنة ١٢٣١ (٦٢٩) هامت جموع الخوارزمية في آسيا الصغرى والشام يعرضون خدماتهم على من يرغب في شرائها من حكام المسلمين فساهموا في النزاعات التي قامت بين الايوبيين وظلوا منذ سنة ١٢٤١ حتى ١٢٤٣ يعيثون فساداً في الجزيرة، على أنهم هم الذين استردوا القدس من الصليبيين سنة ١٢٤٤ (٦٤٢) بعد أن كان قد أعادها إلى الصليبيين الملك الأيوبي الصالح اسماعيل صاحب دمشق ليساعده الصليبيون على ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر.

---

(١) العراق في عهد المغول الايلخانيين، ص ٦.

(٢) مرآة الزمان: ج ٨، ق ٢، ص ٦٣٤.

(٣) دولة الاسلام، ج ٢، ص ١٠١.

(٤) يقول ابن الأثير (ج ١٢، ص ٤٩٤، ط بيروت ١٩٦٦) كان جلال الدين سيء السيرة قبيح التدبير لملكه لم يترك أحداً من الملوك المجاورين إلاّ عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته. فمن ذلك أنه أول ما ظهر في أصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان فحصر مدينة ششتر وهي للخليفة وسار إلى دقوقا فنهبها وقتل فيها فأكثر وهي للخليفة أيضاً. ثم ملك أذربيجان وهي لأوزبك وقصد الكُرج وهزمهم وعاداهم ثم عادى الملك الأشرف صاحب خِلاط ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم وعادى الاسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم فأكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة، وكذلك غيرهم. فكل من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده.

وإتماماً للفائدة ولأهمية تسليم القدس واستردادها لا بد من بعض التفصيل لما مر فنقول:

كان للعادل أخي صلاح الدين الأيوبي ثلاثة أولادهم: الكامل والمعظم والأشرف، وبعد وفاة العادل قام النزاع بين أولاده لا سيما بين الكامل والمعظم، فاستنجد الكامل بفردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة في غرب أوروبا مرسلاً إليه شيخ الشيوخ الأمير فخر الدين يوسف يدعوه أن يحضر لمساعدته في الشام وتعهد له أن يعطيه مقابل ذلك «بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل (مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك ص ٩٣ وما بعدها) للدكتور سعيد عاشور عن العيني في عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤) المقريزي: السلوك ج ١، ص ٢٢١ ــ ٢٢٣).

وصل الرسول إلى فريدريك وهو بصقلية فاستجاب للدعوة وغادر الغرب في يونية ١٢٢٨ (٦٢٥ هــ) قاصداً بلاد الشام فكانت هذه الحملة هي الحملة الصليبية السادسة.

وفي شهر شباط سنة ١٢٢٩ (٦٢٦) تم الاتفاق بين الطرفين على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا وطريق الحج من القدس إلى يافا وعكا. على أن تكون الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين. فدخل فردريك الثاني القدس في ١٩ آذار سنة ١٢٢٩ م (٦٢٧ هــ) ليتوج نفسه امبراطوراً في كنيسة القيامة. ثم عاد إلى أوروبا.

وفي سنة ١٢٣٩ (٦٣٧ هــ) استرد الناصر داود القدس من الصليبيين وفي ١٢٤٠ (٦٣٧ هــ) اشتد النزاع بين الأيوبيين فتآمر فريق منهم على العادل الثاني صاحب مصر فحل محله في حكم مصر الصالح نجم الدين أيوب فاستاء من ذلك الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق فاستنجد بالصليبيين لينصروه على الصالح أيوب في مصر وحليفه الناصر داود في الأردن وتعهد لهم بتسليمهم القدس وإعادة مملكة الصليبيين إلى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن. ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية

وعسقلان، فضلاً عن عدد آخر من قلاع الشام التي كانت بأيدي المسلمين (مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك للدكتور سعيد عاشور ص ١٠٨ وما بعدها، معتمداً على المقريزي: (السلوك ج ١، ص ٣٠٣).

فأسرع الصليبيون إلى تسلم القدس وحصّنوا قلعتي طبريا وعسقلان، ثم رابطوا بين يافا وعسقلان، ووعدهم الصالح اسماعيل بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها، فاتجهوا نحو غزة عازمين على غزو مصر (النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٢).

ثم حضر الصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور ابراهيم الأيوبي صاحب حمص على رأس جيوشهما لمعاونة الصليبيين على غزو مصر (النجوم الزاهرة: ج ٦، ص ٣٢٣). ولكن القوات الشامية التابعة للصالح اسماعيل والمنصور إبراهيم رفضت ذلك وانضمت إلى الجيش المصري ما أدى إلى فشل الصليبيين.

ولم يلبث النزاع أن دب مرة أخرى بين الصالح أيوب في مصر وعمه الصالح اسماعيل في دمشق، وساند الأخير الناصر داود في الأردن. وكان أن لجأ ملكا دمشق والأردن إلى طلب مساعدة الصليبيين وعرضا عليهم مقابل تلك المساعدة أن يوافقا على أن تكون سيطرة الصليبيين على القدس تامة، بمعنى أن يستولي الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه من المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهي المواضع التي ظلت ــ ولو اسمياً ــ في حوزة المسلمين وتحت إشرافهم منذ تسليم القدس للصليبيين بمقتضى اتفاقية سنة ١٢٢٩ (٦٢٧ هـ) (عاشور ص ١١١ عن المقريزي: السلوك، ج١، ص ٣١٥) وفي ذلك الوقت نفسه عرض السلطان الصالح أيوب على الصليبيين محالفته على ملك دمشق والأردن، مقابل الثمن الذي عرضه هذان الملكان على الصليبيين. وهكذا يكون الملوك الأيوبيون الثلاثة: الصالح أيوب والصالح اسماعيل والناصر داود قد أقروا في تلك السنة ١٢٤٣ ــ ١٢٤٤ (٦٤١ هـ) مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف. ويروي المؤرخ جمال الدين بن واصل أنه مر بالقدس عندئذ «فرأيت الرهبان على الصخرة وعليها

قناني الخمر ورأيت الجرس في المسجد الأقصى وأبطل الأذان في الحرم» (عاشور ص ١١٢ عن العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤١ هـ. أبو الفداء، حوادث سنة ٦٤١).

وفي ١١ يوليو سنة ١٢٤٤ (٦٤٢ هـ) اقتحم الخوارزمية القدس وكان عددهم عشرة آلاف واستولوا عليها واحتلوا فلسطين وهكذا عادت القدس نهائياً إلى المسلمين.

جنگيز خان

هو جنگيز الذي قاد المغول في غزوهم هذا، وصل إلى ما وصل إليه بعد صراعات لا سيما مع (جاموكا كورخانا) الذي اختارته سنة ١٢٠١ م القبائل المتحالفة امبراطوراً على القبائل المغولية التركية. ولم يلبث جاموكا أن انهزم سنة ١٢٠١ ــ ١٢٠٢ أمام جنگيز. وكان فيمن أخلص لجنگيز في هذا الصراع ثلاثة رجال مسلمين هم: جعفر خوجا الذي يقال أن جنگيز كان متزوجاً أخته، وحسن، ودانشمند الحاجب. وكان هذان الاثنان مع جنگيز في هجومه على خوارزم وأديا له خدمات جليلة لا سيما في مفاوضاته مع أهل البلاد المفتوحة. وقد عاش دانشمند ٢٥ سنة بعد جنگيز، وكان مؤدباً لأحد أحفاد جنگيز، ابن ابنه أو كتاي بن جنگيز.

وهؤلاء المسلمون وأمثالهم جاءوا في الأصل إلى تلك البلاد تجاراً. وكان التجار المسلمون القادمون من الغرب هم الذين يتولون التجارة مع منغوليا والصين.

وكان ممن عمل مع جنگيز قبل الهجوم على خوارزم، محمد يلواج الذي أرسله جنگيز رسولاً إلى محمد خوارزم شاه واتخذ منه جنگيز وزيراً ومستشاراً. وبعد استيلاء جنگيز على ما وراء النهر جعله حاكماً عليها، حيث قام بإعمار ما خربه المغول وأدار البلاد إدارة صحيحة أحسنت إلى الناس.

وممن عملوا مع جنگيز خان فخر الدين محمود بن محمد الخوارزمي الذي يقول عنه (ابن الفوطي): كان من أعيان وزراء جنگيز خان وعليه مدار الملك في

المشرق وإليه تدبير ممالك تركستان وبلاد الخطا وما وراء النهر وخوارزم. وكان مع ذلك الدهاء كاتباً سديداً يكتب بالمغولية والخوارزمية والتركية والفارسية الخطائية (لهجة من لهجات تركستان) والهندية والعربية، وكان غاية في الفهم والذكاء والمعرفة، وبتدبيره السديد انتظم للمغول ملكهم (انتهى).

ونحن ذكرنا فيما تقدم اسم محمد يلواج. وقد رأينا الشبيبي في كتابه (ابن الفوطي) يعلق في حاشية ٢٠٤ من الجزء الثاني من كتابه بعد أن نقل قول ابن الفوطي عن فخر الدين محمود ــ يعلق بقوله: وورد ذكر فخر الدين (يلواج: هذا أكثر من مرة في تاريخ مختصر الدول ولقب الصاحب المعظم وأنه حاكم البلاد الشرقية من شاطىء جيحون إلى منتهى بلاد الخطا وذلك في منتصف المئة السادسة. (انتهى).

مع أن ابن الفوطي لم يلقبه بلقب (يلواج). فهل محمد ومحمود هما اسمان لمسمى واحد ووقع اشتباه في اشتباه في التسمية، أم أنهما اسمان لمسميين اثنين ووقع اشتباه في اللقب. ومن المسلمين الذين عملوا مع جنكيز من اسمه جعفر، وربما كان هو جعفر خوجا المتقدم ذكره، وهو الذي أرسله إلى الملك (ألتون خان) عندما عزم على مهاجمة الصين. وقد وصف جعفر هذا لجنكيز أحوال البلاد والطريق الذي سلكه ما أفاد جنكيز في حملته التي انتصر فيها على ألتون خان.

ويروي الجويني أن القافلة التجارية التي أرسلها جنكيز إلى خوارزم والتي قتل محمد علاء الدين خوارزم شاه رجالها واستولى على ما كانوا يحملونه من نفائس. كان عدد رجالها ٤٥٠ رجلاً كلهم من المسلمين.

ويرى الدكتور السيد الباز العريني في كتابه: (المغول) «أن جنكيز خان لقي التأييد من التجار المسلمين الذين حققت لهم انتصارات جنكيز خان من الفائدة ما لم يتحقق لغيرهم». (انتهى).

وهنا تبدو المأساة الإسلامية على أشجى مظاهرها: الملك المسلم محمد خوارزم شاه لا يبالي أن يقتل ٤٥٠ تاجراً مسلماً ليغنم ما يحملونه من مال وفير. والتجار المسلمون المنتشرون في أنحاء مملكة جنكيز يؤيدون انتصارات جنكيز في

البلاد الإسلامية لأنها توسع مجالهم التجاري وتزيد في أرباحهم!! . . .

ويقول العريني عن زحف جنكيز (ص ١٢٠): «أمضى جنكيز خان صيف سنة ١٢١٩ على نهر أرتش، ثم تقدم بجيوشه في الخريف إلى (قاياليق) حيث انحاز إليه قوات الأمراء المسلمين في (آلماليق) و (قاياليق)، فضلاً عن أرسلان خان أمير (القارلوق). وصحب جنكيز خان أيضاً التجار المسلمون الذين استخدمهم وسطاء بين المغول والسكان الأصليين نظراً لدرايتهم بأحوال البلاد الداخلية» (انتهى).

وكما سنرى فابن تيمية ومن على شاكلته لا يريدون أن يروا هذه المواقف الإسلامية المتحالفة مع جنكيز سفاح المسلمين، ولا يعلقون عليها بشيء، بل يتجهون إلى الشرفاء من أمثال نصير الدين الطوسي، ليحولوا حسناتهم إلى سيئات[1].

وفي سنة ١٢٠٦ أصدر جنكيز خان قانون (الياسا)[2] الذي يحدد علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، وعلاقة الفرد بالمجتمع.

وهذا بعض ما تتضمنه الياسا:

١ ــ من وجد عبداً هارباً أو أسيراً هارباً ولم يرده إلى صاحبه قتل.

٢ ــ من أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل.

٣ ــ من وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حال القتال، وكان وراءه شخص، فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل ولم يناوله قتل.

---

(١) توفي جنكيز في ١٨ آب سنة ١٢٢٧ وهو في سن الثانية والسعين بعد أن سيطر على البلاد الممتدة من بكين إلى نهر الفولغا.

(٢) ياسا لفظة مغولية معناها: الحكم والقاعدة أو القانون. على أن لفظها اختلف في بعض المصادر سواء العربي منها أو الفارسي فقيل: ياسا، وياسه، ويساف، وياساف، ويسف. وكان المغول يرجعون إليها عندما يتولى الملك خان جديد وعندما يعقد ملتقى عام للتشاور في شؤون الدولة العامة، وعند الاستعداد للقتال وتعبئة الجيوش.

٤ ــ لا يأكل أحد من أحد حتى يأكل منه المناول أولاً، ولو كان المناول أميراً ومن يناوله أسيراً.

٥ ــ لا يختص أحد بأكل شيء وغيره يراه، بل يشركه معه في أكله.

٦ ــ لا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه، وإن مرّ أحدهم بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم وليس لأحد أن يمنعه.

٧ ــ منعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى.

٨ ــ منع من أن يقال لشيء إنه نجس، فإن جميع الأشياء طاهرة.

٩ ــ ألزمهم ألا يتعصبوا لشيء من المذاهب.

١٠ ــ منع من تضخيم الألفاظ وروائع الألقاب، فلا يخاطب الشخص مهما علت مكانته إلا باسمه فقط.

١١ ــ ألزم القائم بعده (النائب عنه) بعرض العساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج إلى القتال وأن يعرض كل ما في عسكره وينظر حتى الإبرة والخيط فمن وجده قد قصر في شيء مما يحتاج عند عرضه إياه عاقبه.

١٢ ــ ألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال في مدة غيبتهم في القتال.

١٣ ــ رتب لعساكره أمراء ألوف وأمراء مئات وأمراء عشرات.

١٤ ــ لا بد أن يخضع أكبر الأمراء لما يصدر عليه من حكم ولو قام بتنفيذ هذا الحكم أخس من عنده.

١٥ ــ أمر بإقامة البريد حتى يعرف ما في مملكته بسرعة.

١٦ ــ أمر بتنظيم حلقات الصيد لما لها من الأهمية في التدريب على أساليب الحرب.

وفي السياسة أيضاً ما يشير إلى أن عقوبة من يرتكب السرقة أو الفحش: الإعدام. ونهى أتباعه عن الإسراف في شرب الخمر وعن عصيان الولد لأوامر

أبويه ومخالفة الصغير للأخ الكبير وامتناع الغني عن إعانة الفقير وعدم احترام المرؤوسين للرؤساء (انتهى).

حوار عن جنكيز

نشر في جريدة النهار البيروتية مقال عن جنكيز خان فرددت عليه بالمقال الآتي الذي هو من صميم حديثنا عن جنكيز وقومه:

في المقال الذي نشرته «النهار» في ٩٤/٩/٢٨ عن جنكيز خان وقومه المغول ما يحملني على التعليق عليه بما يلي:

لم تكن هجمة المغول على البلاد الإسلامية وغير البلاد الإسلامية أول هجمة تنقض بها تلك الجماعة على الناس مكشرة عن أنيابها باسطة أيديها بالسيف بل سبقتها في التاريخ البعيد هجمات دامية عانت البشرية منها ما عانت وكابدت الأرض ما كابدت.

فمن تلك السهول المنبسطة في الشرق من آسيا، ومن تلك البقاع الممتدة امتداداً طويلاً عريضاً حيث تقوم اليوم جمهورية منغوليا انطلقت على فترات متباينة من التاريخ موجات من الناس العتاة القساة، كان قوام حياتهم الغزو العنيف لجيرانهم في الصين وتركستان غزواً عماده القتل والسلب. بل إذا أعوز الجماعة منهم ضرورات العيش، لم تبال تلك الجماعة بأن تستطيل على من هو أضعف منها من قومها، فتقتل فيه وتسلب وتنهب وتعيث ما استطاعت العيث.

ومن سلالات تلك الجماعات الدموية عرف الكون قبائل الهون في القرن الثالث قبل الميلاد، تلك القبائل التي تصدرت اكتساح أوروبا فهزمت القوط الجرمانيين وبدت بأقصى مظهر من مظاهر العنف والوحشية، فنشرت في أوروبا الهلع المقيم المقعد.

وفي ما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين عرفت آسيا ما عرفت من البلاء من قبائل تليو المغولية التي كانت مواطنها على ضفاف نهري أورخون وتولا حيث تقوم اليوم أولان بانور عاصمة منغوليا.

سيطرت قبائل تليو على المناطق الشاسعة في ما حولها وتحكمت في أهلها على اختلاف عشائرهم تحكماً قاسياً، على أنها هي نفسها كانت محكومة حكماً جائراً لا رحمة فيه. كانت السيطرة فيها لطبقة معينة هي الفائزة بالمغانم والأموال، وهي المتمتعة بالترف والنعيم. طبقة مؤلفة من القواد والحكام والقضاة وجامعي الضرائب، تلتف حول مقدمها الكاغان. وأما بقية الشعب فكان يتألف منها مجموعة الجيش، وكان عليها أن تملأ بطونها وتسد خلتها مما تجنيه من المعارك وما تنهبه من المقهورين المهزومين.

من هنا، من هذه الحقائق، أنكر ما ذكر في المقال المنشور في «النهار» من أن: «للحضارة المغولية ثقافة غنية وإرثاً فنياً كبيراً يعود إلى ستة آلاف سنة إلى الوراء».

ووجود ٢٠٠ تحفة فنية مغولية في المعرض الذي سمّاه الأميركيون «امبراطوريات وراء الجدار العظيم إرث جنكيز» والذي أقاموه في نيويورك ليس دليلاً على حضارة مغولية وثقافة غنية وارث فني يعود إلى ستة آلاف سنة إلى الوراء.

والتناقض: ظاهر في هذه المزاعم فكيف تكون هذه التحف إرث جنكيز الذي توّج سنة ١٢٠٦، ثم تكون في الوقت نفسه دليلاً على حضارة تعود إلى ستة آلاف سنة؟

لا أتردد في القول بأن المقال تخليط في تخليط. فاسمع إليه يقول: «إن الحفريات الأخيرة في بلاد منغوليا الداخلية وهي جزء من الصين الآن، أعطت صورة ثانية لهذا الشعب العظيم. ذلك أن جنكيز خان الامبراطور المغولي المتعطش للدم هو في نظر المؤرخين الآن مخطط حربي استراتيجي من الدرجة الأولى، ورجل سياسة موهوب استطاع أن يقيم تحالفات ويجمع معلومات متقدمة».

لا أفهم كيف أن الحفريات دلت على أن جنكيز مخطط حربي استراتيجي

ورجل سياسة موهوب. قد يكون جنگيز خان كذلك، ولكن الذي استعصى على فهمي، كيف أن الحفريات هي التي دلّت على ذلك؟!

والمقال مولع بذكر الحفريات، واعتماده دائماً على الحفريات. إنه يقول في ما يقول:

«من معلوماتنا السابقة عن جنگيز خان والمغول، اعتقدنا أن هؤلاء كانوا قبائل أمضت معظم وقتها على ظهور الأحصنة، إلا أن الحفريات تظهر شعباً محباً للزراعة منذ العام ٦٠٠٠ قبل الميلاد».

هنا أيضاً أعترف بعدم الفهم، كيد تدل الحفريات على أن تلك القبائل لم تمض معظم وقتها على ظهور الأحصنة؟

قد تكون تلك القبائل كذلك ولكن ما شأن الحفريات في إثبات هذا الادعاء، بل وما شأنها في إثبات أن المغول كانوا شعباً محباً للزراعة؟

أما القول بأن المؤرخين الآن يرون في جنگيز خان مخططاً حربياً استراتيجياً من الدرجة الأولى، فالمقال لم يذكر لنا من هم أصحاب هذا الرأي من المؤرخين، أهم المؤرخون الأميركان؟ كما لم يحدد الزمن الذي تعنيه كلمة الآن. فالآن زمن نسبي، يمتد إذا أردنا تمديده، ويقصر إذا أردنا تقصيره.

والمعارك التي خاضها جنگيز معارك واضحة المعالم يعرف دقائقها وتفاصيلها المؤرخون الذين جاءوا قبل (الآن)، بأكثر مما يعرف ذلك المؤرخون الذين جاءوا (الآن).

وإذا كان مؤرّخو (الآن) يعتمدون في معلوماتهم على (الحفريات)، فإن مؤرخي قبل (الآن) اعتمدوا على المشاهدات والحسيات وعلى ما هو ظاهر فوق الأرض مما لا يحتاج إلى الحفر والنبش.

نحن لا نقول أن جنگيز كان رجلاً بسيطاً ككل الرجال، بل نقول أنه كان رجلاً من أقوى الرجال عزيمة وتدبيراً وشخصية، وهذا لا يعني أنه كان مخططاً

حربياً استراتيجياً من الدرجة الأولى، وأن هذه الصفة اكتشفت فيه (الآن) وأن هذا الاكتشاف يستند إلى حفر الأرض.

نحن هنا نعطي صوراً عن معارك جنگيز التي انتصر فيها انتصارات كاسحة لم تكن نتيجة خطط حربية استراتيجية من الدرجة الأولى، بل كانت نتيجة ظروف أتاحها له عدوه الخائر العزم الواهي الهمة المنهزم النفس محمد بن تكش شاه خوارزم ما نوجزه في ما يأتي:

كان جنگيز عازماً على غزو تركستان ولم يكن في نيته التعرض لخوارزم، ولكن جيشه كان في حاجة إلى كسوة غير متوافرة في بلاده، وهي متوافرة في خوارزم، لذلك أرسل بعثة تجارية من ٤٥٠ رجلاً يذكر المؤرخ النسوي أن رجالها كانوا من المسلمين على رأسها كل من: عمر الاتراري، والجمال المراغي، وفخر الدين الديزكي البخاري وأمين الدين الهروي.

ويقول الجوزجاني أن قافلة البعثة كانت تحتوي على خمسمائة جمل.

أما مهمة البعثة فهي شراء الكسوة التي يحتاجها جنگيز لجيشه. وأما الخمسمائة جمل فكانت تحمل الذهب والفضة والحرير الصيني والفرو الثمين وغيرها مما هو في بلاد جنگيز لبيع ما تحمله وإضافة ثمنه إلى الكثير من الذهب والفضة لدى البعثة. ثم شراء ما يحتاجه جيش جنگيز من كسوة.

مضت القافلة الكبيرة حتى بلغت أول مدينة في خوارزم وهي مدينة أوترار، وكان وجودها في المدينة وجوداً بارزاً حمل والي المدينة على وقف مهمة رجالها وإبلاغ أمرهم إلى محمد بن تكش شاه خوارزم.

أدهش الحلي الكثير الذي تحمله القافلة شاه خوارزم إلى أن غشت المطامع بصيرته فأرسل إلى واليه في أوترار يأمره بقتل رجال البعثة حملة الذهب والفضة والفرو والحرير واحتواء جميع ما يحملونه وانفاذه إليه. فقتل الوالي التجار جميعاً وقبض الثروة الضخمة وأنفذها إلى خوارزم شاه، فأسرع هذا ببيعها على تجار بخارا وسمرقند وقبض أثمانها.

فكان من الطبيعي أن يثير هذا التصرف غضب جنگيز فيقرّر الانتقام من شاه خوارزم، فأرسل حملة بقيادة ولده اصطدمت بشاه خوارزم وجيشه اصطداماً عنيفاً استمر القتال فيه ثلاثة أيام بلياليها وبلغ عدد قتلى الخوارزميين عشرين ألف قتيل، وبقي الفريقان صامدين دون أن ينهزم أحدهما، وحين أقبل الليل عزم كل منهما على الانسحاب دون أن يشعر الفريق الآخر بذلك لئلا يتعقبه فيحيل انسحابه هزيمة، ولذلك عمد المغول إلى إيقاد نيرانهم وتركوها منسحبين، وكذلك فعل الخوارزميون.

إذا كان هذا الصدام لم ينته بهزيمة شاه خوارزم العسكرية، فإنه انتهى بهزيمته النفسية. قرر عدم الالتحام بنفسه بالمغول فانسحب بجيشه إلى بخارا وترك فيها عشرين ألفاً من هذا الجيش لمعاونة البخاريين في الدفاع عن مدينتهم، وذهب هو ببقية الجيش إلى سمرقند حيث ترك خمسين ألفاً، أمر أهل المدينة بجمع الذخائر والمؤن استعداداً للحصار ووعدهم بالعودة إليهم.

ثم مضى إلى خراسان فعبر نهر جيحون ونزل قرب مدينة بلخ حيث اتّخذ منها مقرّاً له. وزحف جنگيز إلى بخارا فلم تصمد أكثر من ثلاثة أيام لفقدان القيادة وانهيار النفوس.

ومن بخارا مضى إلى سمرقند فلم يكن حالها أحسن من حال بخارا، فدخلها جنگيز.

ولا نريد هنا أن نتحدث عن الفظائع التي ارتكبها جنگيز في المدينتين والتي تفوق كل تصور، إذ ليس المجال هنا مجال الحديث عن ذلك.

بعد سمرقند كان هم جنگيز ملاحقة شاه خوارزم، فأرسل إليه عشرين ألف فارس استطاعوا عبور النهر الذي كان يحتمي وراءه، فلم يكادوا يصلون إلى الضفة الثانية حتى ساد الرعب والهلع وانفرط النظام وأصبح همّ كل جماعة نفسها، وسلكت كل شرذمة جهة من الجهات أخذت تسرع إليها فراراً.

ومضى شاه خوارزم نفسه في شرذمة من تلك الشراذم تضم خواص أصحابه

حتى وصل إلى مدينة نيسابور، فلم يكد يستقر فيها حتى فوجىء بالمغول قادمين إليه فرحل إلى مازندران، فقصدوها إليه، وظل يفر وهم يطاردونه حتى انتهى إلى بحر الخزر، وهنا ركب الماء إلى جزيرة آب سكون، ولم يكن المغول مهيّئين لركوب البحر فتوقفوا على الشاطىء وكان آخر العهد بعلاء الدين محمد بن تكش شاه خوارزم.

وهكذا نرى أن انتصارات جنكيز لم تكن تحتاج إلى (مخطط حربي استراتيجي من الدرجة الأولى)، وأن الذي فتح له باب النصر هو الهزيمة النفسية التي مني بها شاه خوارزم، فأعدى شعبه بها فانهارت المعنويات وتمّ الاستسلام.

كما لا تحتاج إلى «رجل سياسة موهوب استطاع أن يقيم تحالفات ويجمع معلومات متقدمة». على أننا لا ندري السر في هذه الغيرة الأميركية المفاجئة على سمعة جنكيز، وما الذي حدث فأدى إلى الإشادة «بالثقافة الغنية والإرث الفني الكبير للحضارة المغولية»؟.

الإسماعيليون

ظل نصير الدين الطوسي نزيل قلاع الإسماعيليين طوراً في قلعة (ميمون دز) وطوراً في قلعة (ألموت) حتى الغزو المغولي الثاني بقيادة هولاكو واستسلام سيد القلعة ركن الدين خورشاه للمغول. وكان من نتيجة هذا الاستسلام قتل (خورشاه) ومن معه باستثناء نصير الدين الطوسي والطبيبين موفق الدولة ورئيس الدولة الذين أمر هولاكو بضمهم إلى معسكره وأجبرهم على الالتحاق به.

فمن هم الإسماعيليون؟

هم القائلون بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام بعد أبيه جعفر وبذلك اختلفوا عن الشيعة الإمامية الاثني عشرية (الجعفرية) الذين قالوا بإمامة موسى الكاظم بعد جعفر الصادق.

وقد كانت الدولة الفاطمية على المذهب الإسماعيلي. وبعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) حصل انشقاق خطير في صفوف الاسماعيليين ذلك أنه تولى الخلافة بعد المستنصر ولده أبو القاسم أحمد. ولكن أحمد هذا لم يكن الابن الأكبر للخليفة ولا كان هو المؤهل لولاية العهد بنظر بعض الاسماعيليين بل كان المؤهل لها، بنظرهم، أخوه الولد الآخر نزار ويرون أن الخليفة المستنصر عهد إلى نزار بولاية العهد فعلاً وأخذ البيعة له خلال مرضه إلا

أن وزير الخليفة الأفضل بن بدر الجمالي أخذ يماطل بذلك ليحول دون نزار وولاية العهد لأمور كانت بينه وبين نزار ولقرب أبي القاسم أحمد من الوزير الأفضل. كما يرون أن المستنصر توفي ووزيره الأفضل مسيطر على الحكم فتمت بذلك ولاية العهد وانتقال الخلافة لأبي القاسم أحمد الذي لقب بالمستعلي بالله[1].

وهكذا فقد انقسم الاسماعيليون عام ٤٨٧ هـ إلى فرقتين: واحدة تقول بإمامة أبي القاسم أحمد المستعلي بالله وسمّيت بالتالي المستعلية، والثانية تقول بإمامة نزار وسمّيت بالتالي النزارية.

الإسماعيليون النزاريون

على أثر تولي المستعلي بالله أبي القاسم أحمد الخلافة بعد المستنصر مضى نزار إلى الإسكندرية فتلقاه واليها ناصر الدين أفتكين بقبول حسن وبايعه هو وأهل الاسكندرية فلما علم الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بذلك خرج إلى الاسكندرية يقود جيشاً كثيفاً ولكنه انهزم وعاد إلى القاهرة. ثم جهز جيشاً آخر وعاد لحصار الاسكندرية والتضييق عليها بعد أن استمال بعض أتباع نزار من العربان فاضطر للتسليم هو وافتكين فأمنهما الأفضل ثم فتك بهما.

على أن في النزاريين من يقول إن نزاراً لم يقتل في مصر وإنه غادرها مع أهل بيته متخفّياً بزي التجار نحو سجلماسة حيث مكث عند عمته هناك بضعة شهور حتى عادت إليه الرسل التي أوفدها لإبلاغ الحسن بن الصباح عن محل إقامته فسار إلى جبال الطالقان مع أهل بيته ومن بقي من دعاته حيث استقر بقلعة ألموت مع الحسن بن الصباح.

---

(١) قال حظي الدولة أبو المناقب عبد الباقي بن علي التنوخي يرثي المستنصر ويؤيد المستعلي من قصيدة:

وليس ردى المستنصر اليوم كالردى ... ولا أمره أمر يقاس به أمر
وقد بكت الخنساء صخراً وإنه ... ليبكيه من فرط المصاب به الصخر
وقلدها المستعلي الطهر حسب ما ... عليه قديماً نص والده الطهر

وثمة من يقول إن الحسن بن الصباح كان في مصر حين وقوع الخلاف على ولاية العهد فلم يقر ما جرى وكان ممن يرون أن المستنصر كان مكرهاً على تولية ولده أحمد وأن الأمر هو لنزار لا لأحمد ففر الحسن بن الصباح من مصر داعياً إلى نزار ثم أرسل بعض فدائييه فأحضروا ابناً لنزار إلى قلعة ألموت. وفي قول آخر إنه لم يخرج من مصر حتى أخرج معه ابناً لنزار واسمه في سلسلة الأئمة النزاريين علي ولقبه الهادي. فأخفاه الحسن وستره. وبهذا أصبح الحسن بن الصباح الرجل الأول والموجه الفعلي للدعوة النزارية. ويقول الدكتور محمد كامل حسين عن الحسن الصباح «أصبح صاحب الأمر في الدعوة الجديدة دون أن يدعي الإمامة وإن كان العقل المدبر واليد الفعّالة لجميع الحوادث التي كانت تجري في العالم الإسلامي في ذلك العصر».

وبعد وفاة الحسن بن الصباح عام ٥١٨ هـ وعندما تولى أمر الدعوة النزارية الحسن الثاني بن محمد كيابزرك سنة ٥٥٨ هـ، وهو الذي يقرن اسمه بجملة «على ذكره السلام» طرأ تحوّل خطير على العقيدة الإسماعيلية النزارية ذلك أن الحسن الثاني المذكور دعا أتباعه إلى طرح جميع التكاليف الدينية والامتناع عن إقامة الفرائض وبذلك انقطعت الصلة بين هذه الفرقة، وبين العقيدة الإسماعيلية الفاطمية ولكنها ظلّت مع ذلك تحمل اسم «الاسماعيلية».

وفي ١٧ رمضان سنة ٥٥٩ هـ أذاع الحسن الثاني بأنه هو الإمام من نسل نزار بن المستنصر وبذلك أعلن ظهور الأئمة النزاريين بعد أن كان هو ومن قبله يحكمون باسم الإمام المستور. على أن الحسن الثالث جلال الدين حفيد الحسن الثاني الذي تولى الأمر سنة ٦٠٧ هـ. أمر بالقيام بالفرائض الدينية والعودة إلى ما كان عليه الحال قبل جده الحسن الثاني وأمر ببناء المساجد وقرب إليه الفقهاء والقراء وأحسن إليهم ثم اتصل بالخليفة العباسي الناصر لدين الله وبالملك خوارزم شاه وغيرهما من ملوك المسلمين وأمرائهم.

وقد توالى على حكم النزارية منهم ثمانية أشخاص هم: حسن الصباح الحميري وكيابزرك أميد وحسن بن محمد بزرك أسيد، ومحمد بن حسن وجلال

الدين بن محمد بن حسن وعلاء الدين محمد بن جلال الدين بن محمد وركن الدين خورشاه بن علاء الدين الذي قتله هولاكو وانتهت به دولة الإسماعيلية النزارية التي دامت ١٧٧ سنة.

وإذا كان يبدو أن الدعوة النزارية لم تبدل في أول ظهورها أمراً ولم تختلف في شيء في سوى القول بإمامة نزار لا المستعلي وإمامة من بعده من الأئمة المستورين والظاهرين إلا أنها فيما بعد تحولت تحوّلاً أساسياً جذرياً عن المبنى الإسلامي الشيعي الإسماعيلي وأصبحت ذات عقائد باطنية خاصة وغلب عليها وحدها على الرغم من ذلك اسم الإسماعيلية وهي التي تتبع في أيامنا آغاخان وهؤلاء هم الذين ظلّوا على الأخذ بما أعلنه الحسن الثاني محمد كيابزرك. أما النزاريون الذين عارضوه ثم دبروا اغتياله فقد ثبتوا على الإسلام. وهكذا انقسم النزاريون إلى قسمين مما سيأتي تفصيله.

الإسماعيليون المستعليون (البهرة)

أما الفرقة الثانية التي قالت بإمامة المستعلي بالله أبي القاسم أحمد فإنها بعد اغتيال الخليفة الآمر بن المستعلي بالله بأيدي النزاريين وقع فيها أيضاً انشقاق، ففريق منهم، وهم الصليحيون، رأى أن الإمامة انتقلت بعد المستعلي إلى ولَده الطفل الطيب وأن والده قبل وفاته أوصى بنقله إلى اليمن واستودعه الملكة الحرة (أروى) كما يرون أن الطيب لم يظهر بل استتر وبذلك عاد دور الستر من جديد، وفريق آخر قال بخلافة الحافظ وقد رفضت الملكة الحرة الاعتراف بخلافة الحافظ وسمّت نفسها كفيلة الإمام المستور الطيب بن الآمر. ولكن الحافظ استمال غيرها من اليمنيين فقلّد علي بن سبأ بن زريع حكم اليمن ولقبه «الداعي المعظم المتوّج المكنّى بسيف المؤمنين». وبذلك شاطرت اليمن بالانقسام الجديد بعد أن نجت من الانقسام القديم وكما يقع في كل انقسام تضعضعت أحوال اليمن وكانت الخلافة الفاطمية نفسها تمشي إلى الزوال، وما لبث نور الدين محمود بن زنكي أن مد يده إلى مصر وتقلد صلاح الدين الوزارة وانتهت الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ فأرسل حملة إلى اليمن بقيادة توران شاه الذي سيطر على هذه البلاد.

ويقول محمد حسن الأعظمي فيما كتبه لنا عارضاً رأي المستعليين الذين يطلق عليهم اسم: البهرة:

صنف الآمر كتاباً يدافع فيه عن وجهة نظره ويقيم الأدلة على إمامة أبيه المستعلي ما يدلنا أن الخصومة كانت في ذلك العهد على أشد ثورتها، حتى إن الخليفة لم يكتف بما يصنفه دعاته فتصدى بنفسه للدفاع وحمل القلم على النزاريين، فما لبثوا أن دبروا كميناً لاغتياله فطعنوه بسكين، وقبل أن تدركه الوفاة أدرك أن الأمر سيؤول إلى شر وأن الخصومة قد لا تنتهي عند هذا الحد وأرسل ولده (الطيب) بطريقة سرية وهو صغير لم يتجاوز الخامسة من عمره، مع ابن مدين داعي دعاته والدعاة الآخرين واستوصى به الملكة الحرة أروى بنت أحمد آخر الملوك الصليحيين الذين قاموا في خلافة المستنصر دعاة ينشرون المذهب الفاطمي في بلاد اليمن.

واستناب الآمر عنه في الملك أحد بني عمومته ولقبه بالحافظ. ومن هذا اللقب نستدل على أن الملك أصبح وديعة محفوظة وأمانة ترد إلى أهلها فإن الحافظ لم يكن من أبناء الأئمة ولا وارثاً شرعياً لها. ولكنه غصب الذمة واغتصب الوديعة واستأثر لنفسه بالملك. وقد خلا له الجوّ بموت الآمر وذهاب الطيب، فولّى عنه الدعاة وجوههم، وشاع الاضطراب وانفسح المجال للأدعياء والوزراء ينادون بأنفسهم. ولم يكن للحافظ من الأمر شيء وقد ازداد الحال من سيء إلى أسوأ في خلافة من جاء بعده وهم الظافر (٥٤٤ ــ ٥٤٩)، والفائز (٥٤٩ ــ ٥٥٥)، والعاضد (٥٥٥ ــ ٥٦٧)، حتى انقرضت أسرتهم بقيام الأيّوبيين، أما الطيب فقد ولى دعاة مطلقين بعد الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية فأصبحت هذه الدويلة دينية محضة بعد الصليحيين لا شأن لها بالسياسة الدنيوية. وقد اعتصموا بجبل حصين من جبال اليمن يتعاقب منهم الدعاة المطلقون بنص الأئمة الذين بدأوا دور الإستتار الكبير من عهد الطيب حتى بلغ عدد هؤلاء الدعاة ثلاثة وعشرين باليمن ثم انتقلوا بالدعوة إلى بلاد الهند وأقام بها الدعاة كذلك حتى بلغ عددهم مثل عدد إسلافهم باليمن، وكان جملتهم ستة وأربعين إلا أن الأخير منهم قتل في

سنة ١٢٥٦ هـ بالسم على أثر مكيدة دبرها منافسه عبد القادر نجم الدين دون أن ينص على خلف له. ومن ذلك الحين انقطع خبر الإمام. ولم تعد رسائله تصل إلى دعاته فأقام العلماء ذلك المنافس نائباً للداعي المقتول خوفاً من شتات شمل الجماعة حتى يرد نبأ صحيح من إمامهم المستتر من أبناء الطيب وبقيت هذه الدعوة موروثة في أسرة هذا النائب وأعقابه حتى اليوم.

سنة ٤٥٣ كان الصليحي قد كتب إلى المستنصر بالله يستأذنه في إظهار الدعوة ووجّه إليه هدية جليلة، منها سبعون سيفاً قوائمهما من عقيق، وبعث مع الهدية رجلين من قومه أحمد بن محمد والد الملكة الحرة أروى وأحمد بن المظفر والد السلطان سبأ بن أحمد، فقبل المستنصر هديته وأمر له برايات وكتب عليها الألقاب وعقد له الألوية وأذن له بنشر الدعوة. ولم تمضِ سنة ٤٥٥ إلا وقد ملك من مكة إلى حضرموت سهلاً وجبلاً. (قرة العيون لأخبار اليمن لابن الدبيع بدار الكتب المصرية، تاريخ (٢٢٤) ابن خلكان (ج ٢، ص ٧٤).

قام ذؤيب بن موسى الداعي المطلق بعد الحرة الملكة أروى بنت أحمد في اليوم الثاني والعشرين من شعبان سنة ٥٣٢ هـ وقام بعده اثنان وعشرون داعياً مطلقاً في اليمن بهذا الترتيب (٢) إبراهيم بن الحسين الحامدي، (٣) حاتم بن الداعي إبراهيم، (٤) علي بن الداعي حاتم، (٥) علي بن محمد بن وليد، (٦) علي بن حنظلة، (٧) أحمد بن المبارك بن الوليد، (٨) حسين بن علي بن الوليد، (٩) علي بن الحسين، (١٠) علي بن الحسين بن علي بن حنظلة، (١١) إبراهيم بن الحسين، (١٢) محمد بن حاتم، (١٣) علي بن إبراهيم، (١٤) عبد المطلب بن الداعي محمد بن حاتم، (١٥) عباس بن الداعي محمد بن حاتم، (١٦) عبد الله بن الداعي حسين بن عبد الله، (١٧) علي بن عبد الله، (١٨) ادريس بن الحسين، (١٩) حسن بن إدريس، (٢٠) حسين بن إدريس، (٢١) علي شمس الدين، (٢٢) محمد عز الدين.

ثم قام ثلاثة وعشرون داعياً مطلقاً في الهند بهذا الترتيب:

(٢٣) يوسف بن سليمان، (٢٤) جلال بن حسن، (٢٥) داود بن عجبشاه،

(٢٦) داود بن قطب شاه، (٢٧) شيخ آدم صفي الدين، (٢٨) أبو الطيب زكي الدين، (٢٩) علي بن حسن، (٣٠) قاسم زين الدين، (٣١) قطب الدين، (٣٢) فيرخان شجاع الدين، (٣٣) إسماعيل بدر الدين، (٣٤) أبو الطيب زكي الدين، (٣٥) موسى كليم الدين، (٣٦) نور الدين، (٣٧) اسماعيل بدر الدين، (٣٨) إبراهيم وجيه الدين، (٣٩) هبة الله المؤيد في الدين، (٤٠) عبد الطيب زكي الدين، (٤١) يوسف نجم الدين، (٤٢) عبد علي سيف الدين، (٤٣) محمد عز الدين، (٤٤) طيب زين الدين، (٤٥) محمد بدر الدين.

أما (النواب) (بعد اغتيال محمد بدر بن بدر الدين اشتهر بين فريق من الإسماعيليين لقب النائب أو الناظم بدلاً من الداعي): فأولهم عبد القادر نجم الدين ابن الداعي طيب زين الدين، وثانيهم عبد الحسين حسام الدين ابن الداعي طيب زين الدين، وثالثهم محمد برهان الدين بن عبد القادر نجم الدين ورابعهم عبد الله بدر الدين بن عبد الحسين حسام الدين، وخامسهم طاهر سيف الدين بن محمد برهان الدين. وقد عين ابنه الأكبر محمد برهان الدين نائباً له، ويقال للنائب عندهم أيضاً «المأذون». وهذه الرواية منقولة عن خصوم طاهر سيف الدين أما اتباعه فيقولون إن طاهر سيف الدين داعي حق متصل بإمام الزمان، وقد ذكرنا هذه الأشياء لمجرد البيان التاريخي، ومن العسير أن نحاول الوقوف على حقيقة الأمر في وجود صلة هذا الداعي بالإمام المستتر، وقد نشر بعض أحواله في كتاب في الهند وقصة الباكستان الذي نشر في القاهرة عام ١٩٥٠ م في مطبعة دار الفكر العربي.

قبل ذلك أيضاً شجر الخلاف بين أبناء هذه الفرقة لقيام دعاة آخرين ونسبة الدعوة إليهم. (انتهى كلام الأعظمي).

وقد اعتصم الاسماعيليون المستعليون بجبل حصين من جبال اليمن يتعاقب منهم الدعاة المطلقون حتى بلغ عددهم ثلاثة وعشرين. فبعد الملكة الحرة قام بالدعوة في اليمن ذؤيب بن موسى الداعي المطلق وتعاقب بعده الدعاة حتى محمد عز الدين وبقي مركز الدعوة في اليمن زهاء أربعة قرون ثم انتقلت الدعوة إلى الهند

وعرف أتباعها باسم «البهرة». ومن العوامل التي أثرت في نقل الدعوة إلى الهند ما كان من صلات تجارية بين اليمن والهند، وإقبال الاسماعيليين على التجارة، كل ذلك أتاح للدعاة فرصة بث الدعوة بين الهندوس حتى تكونت منهم مجموعات اسماعيلية مستعلية لا سيما في جنوبي بومباي. ويقال إن الاسم الجديد الذي أطلق على معتنقي المذهب «البهرة» مشتق من صفتهم المهنية التي طغت على كل مهنهم وهي التجارة وأن «البهرة» كلمة هندية قديمة معناها التاجر.

وبعد انتقال الدعوة إلى الهند انقسمت إلى فرقتين: فرقة السليمانية وفرقة الداودية وكان الانقسام بسبب من يتولى مرتبة الداعي المطلق فالداودية تنتسب إلى الداعي قطب شاه داود بن عجب شاه المتوفى سنة ١٠٢١ هـ، والسليمانية تنتسب إلى الداعي سليمان بن حسن الذي أبى أتباعه الاعتراف بداود واعترفوا بسليمان سنة ٩٩٧ هـ داعية لهم.

وللإسماعيلية البهرة في شبه القارة الهندية الباكستانية مؤسسات عظيمة ودور وعمارات وملاجىء ونحو ثلاثمائة مدرسة منها الجامعة العربية السيفية بسورت التي أسست قبل مائة عام لتدريس العلوم الدينية باللغة العربية وفيها يجد الطالب البهري جميع ما يحتاجه من مأكل ومشرب وملبس وكتب وأدوات كتابية وغير ذلك مجاناً. والباقي مدارس ثانوية وابتدائية تدرس سائر العلوم باللغات الانكليزية والأوردوية والكجراتية.

وللبهرة نحو مائة مسجد منبثة في كثير من المدن والولايات في شبه القارة الهندية الباكستانية وأكبر هذه المساجد مسجد بومباي المعروف بغرة المساجد ولكل جماعة في كل مدينة من المدن (داع) يعين للنظر في شؤون الجماعة الخاصة والهيمنة على سائر أحوالهم الشخصية.

وللبهرة في الخارج مؤسسات كبيرة ودور ضيافة واسعة أعدت خصيصاً للضيوف النزلاء من جماعتهم عند حلولهم في أي مدينة من المدن التي يكثر فيها إخوانهم أو التي يترددون عليها من وقت لآخر، من ذلك قصر سيفي بمكة المكرمة

والمدينة المنورة ثم قصور الضيافة في كربلاء والنجف الأشرف وبغداد والبصرة وعدن وإفريقيا الشرقية.

الخلط بين الفرقتين

يُخلط كثيراً بين أمرين: الأول بين الاسماعيلية النزارية الباطنية (الآغاخانية) ومذهبها وبين الدولة الفاطمية الاسماعيلية ومذهبها لأن الفاطميين هم أصحاب المذهب الإسلامي الشيعي الإسماعيلي الذي لا يمت بصلة إلى ما آل إليه المذهب الإسماعيلي النزاري الباطني (الآغاخانية) كما أوضحنا. وقد تعمد خصوم الفاطميين الخلط فضاعت الحقائق على طالبيها وأسيء إلى الفاطميين ومذهبهم إساءات ظالمة. والثاني: الخلط بين الإسماعيلية النزارية الباطنية (الآغاخانية) وبين الإسماعيلية المستعلية (البهرة) التي هي امتداد للمذهب الإسلامي الشيعي الإسماعيلي الفاطمي.

مثال للخلط بين الفرقتين وعقائدهما

وكمثال للخلط بين عقيدة الإسماعيليين البهرة وبين عقيدة الإسماعيليين النزاريين (الآغاخانية) وعدم توخّي الحقائق والجهل بها نورد مثالاً آخر على ذلك صدر في (موسوعة عبد الناصر في الفقه الإسلامي) المطبوعة حديثاً في عام ١٩٧٢ وهو ما ورد في الصحيفة ٣٢: «مذاهب شيعة علي، وهم طوائف كثيرة جداً، أشهرها الزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن علي والإمامية وهم فرق أشهرها الشيعة الإمامية الاثنا عشرية (الجعفرية) والإسماعيلية أو الباطنية ومنهم العبيديون أو الفاطميون. . والمذاهب الثلاثة لا تزال قائمة وإن كان الغموض حليف فقه الإسماعيلية منذ ظهورها حتى اليوم.

وجاء في الصحيفة ٣٥:

«أما الفرقة الاسماعيلية فلها أتباعها ولكن فقهها ليس بظاهر».

وجاء في الصحيفة ٣٦: «أما الشيعة الإمامية الإسماعيلية أو الباطنية فقد ظهر

مذهبهم في شمال إفريقيا ودخلوا به مصر حينما استولوا عليها وعلى بلاد الشام وكان مذهبهم المذهب الرسمي وشاركه بعض المذاهب الأربعة وبقي بمصر مدة دولتهم غير أن أحداً من أهل مصر لم يتبع هذا المذهب وقد انقرض هذا المذهب وأهله من مصر بزوال الدولة الفاطمية ولم يبق اليوم من هذه الطائفة سوى أتباع آغاخان بالهند وجنوب إفريقيا وبعض بلاد الشام ولا يعرف لهم فقه اليوم» وجاء في الصحيفة ٣٦: «أما مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية فكان مذهبهم منتشراً بالعراق وآسيا الشرقية وبعض بلاد الجزيرة وهو اليوم بالعراق وفارس وأتباعه أقلية في البلاد الأخرى».

هذا ما ورد في أحدث موسوعة عربية تشرف عليها مؤسسات حكومية وشعبية ومن هنا يحق لنا أن نتساءل إلى متى يظل الناس في هذا الجهل بالحقائق ومتى يمكن أن يرجعوا إلى المصادر الصحيحة ويكتبوا بتجرد وإخلاص وفهم؟...

١ ــ إن الزيدية ليست أشهر مذاهب الشيعة، بل أشهرها المذهب الجعفري وهو ما يطلق عليه المذهب الاثنا عشري وأحياناً الإمامي، وأتباعه يكاد يقارب عددهم خمس عدد المسلمين في العالم، وليسوا محصورين في العراق وفارس وليسوا أقلية في كثير من البلاد الأخرى.

٢ ــ في الأصل إن كلمة الإمامية تعم الزيدية والاثني عشرية والإسماعيلية الفاطمية وهي في الحقيقة مرادفة لكلمة (الشيعة) ولكنها في العصور المتأخرة أصبحت تطلق على الجعفرية (الاثني عشرية) ومن هنا فإن التقسيم الذي اعتمدته الموسوعة المذكورة مخطىء.

٣ ــ إطلاق صفة الباطنية على الإسماعيلية دون تمييز بين فرقتيها والقول بأن منهم العبيديين أو الفاطميين ثم القول بأن الغموض حليف فقه الإسماعيلية منذ ظهورها حتى اليوم. كل ذلك هو خطأ في خطأ.

فالباطنية في الحقيقة هي صفة الإسماعيليين النزاريين (الآغاخانية) ولا يصح أن تطلق على الفاطميين. وفقه الإسماعيليين الفاطميين لم يكن في يوم من الأيام

حليفه الغموض ولو قرأ المشرفون على الموسوعة كتاب دعائم الإسلام للنعمان قاضي الفاطميين وهو كتاب مطبوع في مصر نفسها عام ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م. لعلموا أن الفقه الإسماعيلي الفاطمي من الوضوح والظهور في درجة لا يزيد عليه فيها أي فقه آخر.

نعم ذلك القول يصح في الاسماعيليين النزاريين (الآغاخانية) وقد خلط مؤلّفو الموسوعة بينهم وبين الفاطميين لذلك قالوا في الصفحة ٣٦ «إنه لم يبق من أتباع هذه الطائفة اليوم سوى أتباع آغاخان بالهند وجنوب افريقيا وبعض بلاد الشام ولا يعرف لهم فقه اليوم».

في حين أن أتباع آغاخان شيء وبقايا أتباع المذهب الاسماعيلي الفاطمي المعروفين اليوم بالبهرة شيء آخر كما أوضحنا ذلك آنفاً. وكلا الفريقين لا يوجدان في جنوب إفريقيا بل يوجدان في شرقها وإن وجدا في الجنوب فبقلة.

٤ ـ القول بأن أحداً من أهل مصر لم يتبع مذهب الفاطميين هو قول مخطىء أيضاً. ولو رجع المؤلفون إلى كتاب «الطالع السعيد في علماء الصعيد»، وهو مطبوع في مصر لمؤلف مصري، (متوفى سنة ٧٤٨ هـ) لعلموا أن هذا المذهب كان منتشراً في كل مكان في مصر وأنه ظل منتشراً حتى إلى عهد الكتاب المذكور وحتى إلى ما بعد عهده وأن زواله من مصر كان نتيجة تصرفات وظروف هي كافية للقضاء على أي مذهب مهما كان منتشراً.

٥ ـ ليس هذا كل ما في الموسوعة من أخطاء فهي مثلاً تقول: «إن الإمام جعفر الصادق هو إمام الزيدية ومن يجهل هذه الحقيقة البديهية كيف يعتمد عليه في غيرها من الحقائق.

وفي الآتي من القول سيرد حديث آخر عن البهرة.

ـ ٢ ـ

نشرت إحدى المجلات مقالاً نقل فيه كاتبه أقوالاً لابن تيمية تتحدث عن الإسماعيليين وعن نصير الدين الطوسي وعلاقته بهم، وكان الحديث باطلاً في

باطل، كعـادة ابن تيمية حين يتحدث عمن لا يتفقون معه في الآراء، فكان ردّنا على ذلك بالمقال التالي الذي يتكرر فيه بعض ما مرّ مما لا بد منه في اطراد سير الرد.

نقل أحد الكتاب في مقاله الذي نشره في العدد الثاني عشر من هذه المجلة قولاً لابن تيمية عن الاسماعيليين ونصير الدين الطوسي هذا نصه:

إن التتـار لم يكونوا ليغيـروا على بغـداد، ولم يكونوا ليقتلوا الخليفة العبـاسـي وبقيـة القـواد المسلميـن إلا بمسـاعــدة المـلاحـدة الاسمـاعيليـة وأهـم رجالاتهم الذين حملوا وِزْرَ هذه الأحداث هو وزيرهم نصير الدين الطوسي في (ألموت)، إنه هو الذي أصدر الأمر بقتل الخليفة وفي بساط الحكومة العباسية» (انتهى).

وقلت في تعليقي على هذا الكلام مخاطباً ابن تيمية صاحب هذا القول ما يلي:

إن تعصبـك الأعمـى قد أوقعـك لا في الجهـل فقط، بل في الغباء أيضاً حين زعمت أن الاسماعيلية ساعدوا المغول في الإغارة على بغداد وفعلوا ما فعلوا.

في حين أن من له أقل إلمام بتاريخ تلك الأحداث يعلم أن الاسماعيلية كانوا الضحايا الأولى للمغول، فقد قتل المغول رجالهم وهدموا قلاعهم وقضوا على دولتهم».

من هم الاسماعيليون: نعيد هنا بعض ما تقدم لينتظم سير البحث إذ لا بد لنا قبل مناقشة أقوال ابن تيمية من أن نعرف القرّاء حقيقة (الاسماعيلية) الذين تعمّد من كتبوا عنهم أن يشوّهوا تاريخ الدولة الفاطمية بأن ينسبوا لرجال تلك الدولة العظيمة الاعتقاد الفاسد، مستغلّين انتساب الفاطميين في الأصل إلى المذهب الاسماعيلي في حين أن ذلك المذهب قد انشق عنه جماعة خرجوا على الفاطميين وعلى مذهبهم، وكانوا أشد أعدائهم والعاملين على تقويض دولتهم، ولكنهم ظلوا مع

ذلك يطلقون على أنفسهم اسم (الاسماعيليين) ويصرّون عليه، ثم زالت الدولة الفاطمية، وبقيت لهؤلاء المنشقّين دولة بعد الفاطميين في (ألموت) ظلت تصر على الانتساب إلى (الاسماعيلية) وتحمل اسمها، وبقيت وحدها في الميدان فصالت بهذا الاسم وجالت. في حين أنه لم يبق من الدولة الفاطمية إلا بقايا جماعة مشتتة، تجمع معظمها في الهند. وللتخلص من اسم (الاسماعيلية) الذي تشوّه بعقائد المنشقين أطلقوا على أنفسهم اسماً جديداً هو اسم (البهرة) وأصبح الواحد منهم يقول عن نفسه: (بهري) لا (إسماعيلي) حذراً مِنْ أن تنسب إليه العقائد التي أخرجتها الاسماعيلية المنشقة عن مسيرها الاول السليم، وأصبحت شيئاً مستقلاً.

فاستغل مزيّفو التاريخ الحاقدون على كل حقيقة ناصعة هذا الوضع، ورأوا في انتساب الدولة الفاطمية إلى المذهب الاسماعيلي فرصتهم الثمينة في إلصاق العقيدة المنشقّة بالفاطميين لأنها تحمل هي الأخرى اسم (الاسماعيلية). في حين لم يكابد الفاطميون وعقيدتهم من أحد مثل الذي كابدوه من هؤلاء المنشقين الذين جاهروهم بالعداء، ونصبوا لهم المكائد في كل مكان. واغتالوا بعض خلفائهم، وكانوا أشد الناس عليهم حرباً لا هوادة فيها.

فكيف جرت هذه الأحداث وكيف حصل الانشقاق، وما هي الحقيقة التي جهد الجاهدون في طمسها تضليلاً لذوي البصائر، وتعصّباً على الفاطميين؟

هذا ما نحاول أن نتحدث عنه بكل ما نستطيعه من الإيجاز، مضافاً إلى ما تحدثنا عنه من قبل وإن لزم بعض التكرار.

الانشقاق: بدأ الانشقاق بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ ــ ٤٨٧ هــ)، ذلك أنه تولى الخلافة بعد المستنصر ولده أبو القاسم أحمد.

ولكن أحمد هذا لم يكن الابن الأكبر للخليفة، ولا كان هو المؤهل لولاية العهد بنظر بعض الإسماعيليين بل كان المؤهل لها بنظرهم أخوه الولد الآخر (نزار)، ويرون أن الخليفة المستنصر عهد إلى نزار بولاية العهد فعلاً وأخذ البيعة له خلال مرضه إلا أن وزير الخليفة الأفضل بن بدر الجمالي أخذ يماطل بذلك ليحول

دون نزار وولاية العهد لأمور كانت بينه وبين نزار ولكون أحمد زوج شقيقة الوزير الأفضل، كما يرون أن المستنصر توفي ووزيره الأفضل مسيطر على الحكم فتمت بذلك ولاية العهد وانتقال الخلافة لأبي القاسم أحمد الذي لقب بالمستعلي بالله.

وهكذا انشقت عن الدولة الفاطمية ومذهبها الجماعة التي قالت بإمامة نزار، وعرفت في التاريخ باسم (الإسماعيلية النزارية) مقابل الذين اعترفوا بإمامة أحمد المستعلي بالله وظلّوا أتباعاً للخلافة القائمة ومذهبها، وعرفوا في التاريخ باسم (الإسماعيلية المستعلية)(١).

ثم تنوسي الاسمان مع الزمن وانفرد النزاريون باسم الإسماعيلي، وصار من يريد أن يميزهم عن غيرهم يطلق عليهم لقب (الآغاخانية). نسبة إلى (آغاخان) وتخلص بقايا الفاطميين من اسم الإسماعيلية لما طرأ على العقيدة بعد ذلك من تحول، كما سيأتي تفصيله، ورضوا باسم (البهرة).

ولما تم الأمر لأحمد المستعلي بالله مضى نزار إلى الإسكندرية فتلقاه واليها ناصر الدين أفتكين بقبول حسن وبايعه هو وأهل الإسكندرية. فلما علم الأفضل بن بدر الجمالي بذلك خرج إلى الاسكندرية يقود جيشاً كثيفاً ولكنه انهزم وعاد إلى القاهرة، ثم جهّز جيشاً آخر وعاد لحصار الاسكندرية والتضييق عليها فاضطر نزار للتسليم هو وأفتكين فأمنهما الأفضل ثم قتلهما.

على أن في النزاريين من لا يريد أن يسلم بهذه الحقيقة التاريخية، بل يقول

(١) للذين يلصقون عقائد الاسماعليين النزاريين بالفاطميين ننقل قولاً للدكتور جمال الدين الشيال أستاذ التاريخ الاسلامي بجامعة الاسكندرية، ذكره في الصفحة ٤٧ من كتابه (مجموعة الوثائق الفاطمية). قال الدكتور الشيال: «وقد ناصب النزاريةُ الفواطمَ في مصر العداء، ولم يلق الخلفاء الفاطميون ـ منذ عهد المستعلي ـ أعداء أشد قسوة من النزارية بحيث نستطيع أن نقول إن تاريخ الحركة الاسماعيلية بوجه عام، وتاريخ الدولة الفاطمية بوجه خاص كان من الممكن أن يتخذ شكلاً آخر غير الذي عرفناه لو أن الاسماعيلية النزارية اتحدوا مع الفاطميين في مصر بدلاً من انتهازهم كل فرصة ممكنة للمكيدة والاضرار بهم. والخلاف بين الفريقين يتصل اتصالاً وثيقاً بصميم المذهب ومبادئه الأساسية.

أن نزاراً لم يقتل في مصر وإنه غادرها مع أهل بيته متخفياً بزي التجار نحو (سجلماسة) حيث مكث عند عمته هناك بضعة شهور حتى عادت إليه الرسل التي أوفدها لإبلاغ الحسن بن الصباح عن محل إقامته فسار إلى جبال الطالقان مع أهل بيته ومن بقي من دعاته حيث استقر بقلعة ألموت مع الحسن بن الصباح الذي كان من أشد الناس إنكاراً لخلافة أحمد المستعلي وأكثرهم تحمّساً لنزار.

وثمة من يقول من النزاريين إن الحسن بن الصباح كان في مصر حين وقوع الخلاف على ولاية العهد فلم يقر ما جرى، وكان ممن يرون أن المستنصر كان مكرهاً على تولية ولده أحمد وأن الأمر هو لنزار لا لأحمد، ففرّ الحسن بن الصباح من مصر داعياً إلى نزار، ثم أرسل بعض فدائييه فأحضروا ابناً لنزار إلى قلعة ألموت.

وفي قول آخر إنه لم يخرج من مصر حتى أخرج معه ابناً لنزار واسمه في سلسلة الأئمة النزاريين علي ولقبه الهادي، فأخفاه الحسن وستره.

ونأخذ هنا رواية إسماعيلي نزاري معاصر هو الدكتور (عارف تامر)، ونعلم أنه من متتبعي التاريخ الإسماعيلي النزاري، ونحن وإن كنا لا نستطيع الجزم بصحة واحدة من الروايات في هذا الموضوع فإننا نقدم للقارىء روايته التي ينقصها ذكر المصدر الذي اعتمد عليه في إيرادها. وقد أوردها في الصفحة ٨٩ من الجزء الرابع من كتابه (تاريخ الاسماعيلية).

قال عارف تامر راوياً عن لسان الحسن بن الصباح دون أن يذكر من أين نقل هذا الكلام:

«. . . ساعدني الحظ فعثرت على علي الهادي (ابن نزار) مع والدته في منزل أحد دعاتنا في بلدة (بلبيس) فقابلته وبايعته وأوصيت به خيراً. وبما أن الوقت الآن قد أصبح سانحاً وعرش ألموت الاسماعيلي النزاري ينتظر من يجلس عليه من ذرية الإمام نزار بن المستنصر بالله، فإني دعوتكما إلي. . . . . بالذهاب إلى البلاد المصرية لإحضار الإمام علي الهادي مع والدته إلينا. . .».

إلى غير ذلك من التفاصيل التي ذكرها تامر. ومنها أنه عند إحضاره إلى (ألموت) كان صغير السن فتولى الحسن بن الصباح الوصاية عليه، وعهد بتربيته إلى الداعي (بزرك أميد) وفي سنة ٤٩٠هـ نصب إماماً وكان قد بلغ العشرين من عمره إذ أن مولده كان سنة ٤٧٠ وأن الوفود الإسماعيلية جاءت من كل مكان لمبايعته حتى من بلاد الشام، وأنه قضى في الإمامة أربعين عاماً أمضى معظمها في قلعة لمبسر وفيها كان مدفنه (انتهى).

ومهما يكن من أمر فقد أصبح الحسن بن الصباح الرجل الأول والموجّه الفعلي للدعوة النزارية.

وكان المقصود من القول بخروج نزار أو أحد أولاده من مصر والتجائه مع الحسن بن الصباح إلى قلعة ألموت ــ كان المقصود من ذلك ــ إظهار أن سلسلة الإمامة لم تنقطع وظلّت مستمرة من نزار إلى خلفائه بعده في ألموت.

ويعددهم النزاريون بهذا التسلسل:

١ ــ نزار بن المستنصر (المصطفى بالله) توفي سنة (٤٩٠ هـ ــ ١٠٩٧ م).

٢ ــ علي بن نزار (الهادي)، (٥٣٠ هـ ــ ١١٣٧ م).

٣ ــ محمد بن علي بن نزار (المهتدي)، (٥٥٢ هـ ــ ١١٥٩ م).

على أن التاريخ لا يسجّل أي نشاط لهؤلاء بل إن التاريخ النزاري نفسه يكتفي بسرد الأسماء دون الإشارة إلى أي ظهور لأصحابها، مما يدعو إلى التساؤل، بل إلى الشك والريب.

الانحراف: توفي الحسن بن الصباح سنة (٥١٨ هـ ــ ١١٢٤ م)، فخلفه من خلفه في قيادة الدعوة النزارية[1] دون أن يعلن هو أو غيره ممن خلفه عن عقيدة

(١) يقول تامر أن الذي خلفه هو (كيا بزرك أميد) وأن الإمام كان المهتدي، ثم خلف بزرك أميد ابنه محمد، وخلف محمد ابنه حسن في عهد الإمام القاهر الذي تولى الإمامة سنة ٥٥٢هـ. وأن من سميناه هنا الحسن بن محمد بن بزرك أميد هو الحسن بن القاهر، وهو الذي يقرن الاسماعيليون اسمه بكلمة (على ذكره السلام).

جديدة، حتى انتهى الأمر إلى الحسن الثاني بن محمد بن بزرك أُمِيّد سنة (٥٥٨ هـ ـ ١١٦٤ م)، فإذا به يعلن الأخذ بمفهوم جديد للدين. مصرحاً: أن القيامة نوعان: قيامة جسدية: وهي تكون في العالم الآخر. وقيامة روحانية: وقد أعلنها على أتباعه. فكان ما كان من الإباحة على أساس أن لا محرمات بعد اليوم. واستناداً إلى القول: (لو ظهرت الحقائق بطلت الشرائع).

ويصف المؤرخ علاء الدين عطاء الملك الجويني المتوفى سنة (٦٥٨ هـ ـ ١٢٥٩ م) إعلان حسن بن محمد عن حلول القيامة الروحية وما جرى ذلك اليوم على الصورة التالية:

«في اليوم السابع عشر من شهر رمضان في عام (٥٥٩ هـ ـ ١١٦٤ م) أمر حسن بإقامة منبر في ساحة ألموت متوجّهاً نحو الغرب. مع أربع رايات كبار ذات أربعة ألوان أبيض وأحمر وأصفر وأخضر على زواياها الأربعة وجمع الناس الذين سبق استدعاؤهم إلى (ألموت) من مختلف الأقطار في الساحة ورتب الذين من المشرق على الجانب الأيمن والذين من المغرب على الجانب الأيسر والذين من الشمال من (رودبار) و (الديلم) في المقدمة مواجهين للمنبر.

ونزل حسن عند الظهر من القلعة وعليه رداء أبيض وعمامة بيضاء واقترب من المنبر من الجانب الأيمن وارتقاه بأكمل خلق وتفوّه بالسلام ثلاث مرات، أولاً للديالمة ثم للذين على اليمين وبعد ذلك للذين على الشمال، وجلس هنيهة، ونهض بعدها واتكأ على سيفه وتكلّم بصوت عال موجّهاً خطابه لسكان الأكوان من جن وإنس وملائكة، فأعلن أن رسالة قد جاءته من الإمام المستتر مع دليل جديد.

ثم قال: «إن إمام وقتنا قد بعث إليكم صلواته ورحمته ودعاكم عباده المختارين، ولقد أعفاكم من أعباء تكاليف الشريعة وآل بكم إلى البعث».

ثم يقول الجويني: «وأكد حسن بالتصريح بأنه كما في عصر الشريعة إذا لم يطع إنسان ولم يعبد بل تبع حكم القيامة بحجة أن الطاعة والعبادة هما أمران روحيان كان ينكل به ويرجم ويقتل، كذلك الآن في عصر القيامة إذا تقيد إنسان

بحرفية الشريعة وواظب على العبادة الجسدية والشعائر فإن ذلك تعصب ينكل به ويرجم ويقتل من أجله».

ثم أكمل حسن كلامه قائلاً: «لقد أعفي الناس من تكاليف الشريعة لأن عليهم في فترة القيامة هذه أن يتوجّهوا بكل جوارحهم نحو الله ويهجروا كل الشعائر الدينية وجميع العبادات القائمة. فقد وضع في الشريعة بأن على الناس عبادة الله خمس مرات في اليوم وأن يكونوا معه. وهذا التكليف كان ظاهرياً فقط. ولكن الآن في أيام القيامة عليهم أن يكونوا دائماً مع الله في قلوبهم وأن يبقوا نفوسهم متوجهة دائماً نحو الحضرة الإلٰهية فإنها الصلاة الحقيقية» (انتهى).

وبالرغم مما رأينا في كلام حسن من التهديد والوعيد، والإنذار حتى بالرجم والقتل. فقد قوبل كلامه هذا بنقمة من الجموع الإسماعيلية الحاضرة، وكان في أول الناقمين أخو زوجته. على أنه من الطبيعي أن نجد إلى جانب ذلك من يرحب بطرح التكاليف وأن يلقى حسن المذكور من يماشيه في انحرافه، ويصف الجويني ما فعله هؤلاء تعبيراً عن انقيادهم لحسن بقوله: «. . . وفي ذلك اليوم الذي اقترفت فيه هذه القبائح وأفشيت فيه تلك المساوىء في (مأمون آباد) عش الكفر لعب الجميع على الجنك والرباب وشربوا الخمر بشكل مكشوف على نفس درجات ذلك المنبر في مكان جلوس الخطيب» (انتهى).

ولكن هذه المظاهر التي يبدو جلياً أن حسناً نفسه كان قد دبرها ليصور الناس بصورة الراضين عن فعلته، وليبرز بشكل المؤيد شعبياً، كانت طلاء مكشوفاً لحقيقة شعور الإسماعيليين المؤمنين وفي طليعتهم شقيق زوجة حسن، فصمموا على التخلص من المنحرف وتعهد بذلك شقيق الزوجة، وقرروا التنفيذ بعد فشل جهودهم لوقف الانحراف.

ففي يوم الأحد السادس من ربيع الأول سنة (٥٦١ هـ ــ ١١٦٦ م)، قام شقيق الزوجة «بطعن المضل في قلعة لمبسر وهكذا مضى من هذه الدنيا إلى نار الله الموقدة. . . » على حد تعبير المؤرخ الجويني.

وكان الحسن هذا بعد عام واحد من تاريخ إعلان ما أعلنه قدأدخل تطوراً آخر

على الدعوة، فبعد أن كان هو ومن سبقه يقولون بأنهم يحكمون باسم الإمام المستور، أعلن هو في السابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٥٩ هـ بأنه هو الإمام من نسل نزار بن المستنصر.

بين الانحراف والاستقامة: ولكن الانحراف لم ينته باغتيال أصله، بل بقي مستمراً على عهد خليفته ابنه (علاء محمد) الذي تولى بعد أبيه وهو في التاسعة عشرة من عمره وتوفي سنة (٦٠٧ هـ ـ ١٢١٠ م). كما كانت المعارضة الشديدة مستمرة، وإذا كان قد تزعّمها في عهد حسن، شقيق زوجته، فقد تزعمها الآن حفيد حسن وسميه جلال الدين حسن إذ كان على خلاف أبيه وجده في العقيدة متشدداً في خلافه لهما كل التشدد.

وكان متفقاً مع المعارضة بأنه بمجرد وصوله إلى الحكم سيزيل الانحراف ويعود بالحكم إلى القواعد الإسلامية، وهكذا كان، فما أن ولي بعد أبيه سنة ٦٠٧هـ حتى أعلن إلغاء كل ما قرره سلفاه وعنف الآخذين بمنهجهما ومنعهم بكل صرامة من الاستمرار على ذلك المنهج، وألزمهم الأخذ بأحكام الإسلام أخذاً كاملاً.

ويصف الجويني في كتابه (جهان كشاي) ما جرى قائلاً:

أمر جلال الدين بأن تحرق هذه الكتابات بحضور القزوينيين وحسب رغبتهم، وتلفظ بلعن لآبائه وأسلافه وطعن فيهم. ولقد رأيت كتاباً بيد أعيان وقضاة قزوين كان قد أملي من جلال الدين (حسن) تكلم فيه عن التزامه بالإسلام وقبوله شعائر الشريعة والتبرؤ من الإلحاد ومذهب أجداده وأسلافه. وكتب «جلال الدين» بضع كلمات بخط يده في صدر الكتاب فذكر تبرأه من مذهبهم وذلك بأن أضاف اللعنة: (ملأ الله قبورهم ناراً). (انتهى).

ولم يكتفِ بذلك بل اتصل بحكّام الأقطار الإسلامية يعلنهم العودة إلى الإسلام ليوثق الصلات بهم وبجمهور المسلمين بعد الذي شاع عن انحراف جده وما أعلنه من خروج على الشريعة، فراسل الخليفة في بغداد الناصر لدين الله، وخوارزم شاه، وغيرهما من الملوك والأمراء، كما أرسل والدته وزوجته إلى الحج وأمر ببناء المساجد، وقرّب إليه الفقهاء والقراء.

ومن البديهي أن لا يكون جلال الدين حسن قد استطاع استئصال جذور الانحراف، وأن يظل للانحراف أتباعه الآخذون به شأن جميع الدعوات في كل زمان ومكان، مهما عمل العاملون على محاربتها واضطهاد أتباعها.

على أن أمر دولة هؤلاء النزاريين لم يطل كثيراً بعد جلال الدين حسن، فقد توفي جلال الدين سنة (٦١٨ هـ ــ ١٢٢٥ م) وتولى بعده ابنه علاء الدين محمد الذي توفي سنة (٦٥٣ هـ ــ ١٢٦٠ م)، فتلاه ابنه ركن الدين خورشاه وهو الذي انتهى به ملك النزاريين بعد أن قتله هولاكو سنة (٦٥٤ هـ ــ ١٢٦١ م).

على أن الدولة إذا كانت قد انتهت فإن من أخذوا بأقوال الحسن الثاني بن محمد وانحرافه لم ينتهوا، بل ظل للدعوة من يحملها من جيل إلى جيل حتى هذا الجيل وهم اليوم أتباع آغاخان، وظلوا هم وحدهم منفردين باسم «الإسماعيليين» بعد أن تبرّأ من هذا الاسم من ورثوا أصحابه الحقيقيين وتسمّوا باسم (البهرة) كما مر.

ولكن إذا استطاع من عايشوا الحسن الثاني بن محمد ومن أتوا بعده من عصر إلى عصر حتى هذا العصر أن يتبرؤوا من الاسم الإسماعيلي بعد أن صار إلى ما صار إليه، فلم يكن باستطاعة أصحابه الأولين الذين حملوه حين كان نقيّاً صافياً، منبثقاً من الإسلام وقواعده أصولاً وفروعاً، ثم ماتوا وهو على نقائه وصفائه ــ لم يكن باستطاعتهم بعد أن طوتهم القبور أن يتبرؤوا منه ومن حامليه.

من هنا استغل المستغلّون ما جرى، ورأوا أنه ما دام الفاطميون ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام فهم اسماعيليون نسباً ومذهباً، وهم كانوا يعلنون ذلك لأن ليس في إعلانه ما يضيرهم ما داموا من أعرق الناس إسلاماً وإيماناً ــ ما دام الفاطميون إسماعيليين، وما دام أتباع الحسن الثاني بن محمد بن بزرك أميد يسمّون أنفسهم اسماعيليين، إذن فليلصقوا بالأولين عقائد الآخرين وليشنعوا عليهم. وهكذا كان من ذلك اليوم حتى اليوم.

وجاء قوم لم يكونوا ذوي نوايا سيئة ولكن رأوا أمامهم ما سطره أصحاب

النوايا السيئة، فحسبوه حقيقة أخذوا بها، كما جرى لمن وضعوا (موسوعة عبد الناصر في الفقه الإسلامي). مما مرّ ذكره:

إنصاف النزاريين: إذا كان ما ذكرناه عن (النزاريين) هو حقائق واقعة، فلا بد لنا في الوقت نفسه من إنصافهم حيث يجب الإنصاف، وتبرئتهم مما تَزَيّد به عليهم المتزيدون.

من ذلك أنهم أطلقوا عليهم اسم (الحشّاشون) نسبة إلى (الحشيش) المخدر المعروف، أطلقوه على النزاريين جميعاً سواء منهم من عادوا على يد جلال الدين حسن عن الانحراف أو من ظلوا عليه، زاعمين أن ما كانوا يقدمون عليه من اغتيالات مقرونة بضروب من البسالة الفائقة وتضحية بالنفس عزيزة المثال، إنما كان نتيجة لتخديرهم بالحشيش بحيث يفقدون إرادتهم وينفذون ما يؤمرون بتنفيذه بلا وعي..

وهذا من أعجب الافتراءات، إذ إن من المسلّم به أن استعمال الحشيش يقتل في النفس أسمى ما فيها من شجاعة وكرامة وغيرة. ثم إن مستعمله يبوح بأسراره ويكشف عن مكنوناته، وهذا عكس ما يقتضي أن يكون عليه الفدائي المكلف بمهمات لا ينبغي لها شيء بعد الشجاعة مثل الكتمان وحفظ الأسرار.

وأصل هذه الفرية هو ما ذكره الرحالة (ماركوبولو) عما زعم أنه (جنة شيخ الجبل)[1] والتي شاء له خياله أن ينطلق في وصفها انطلاقاً مغرقاً في التخيل والخرافة حيث يقول:

«أنشأ (الحسن بن الصباح) في واد يقع بين جبلين حديقة غناء فسيحة غرس فيها جميع أنواع الزهور وأشجار الفاكهة، وجعل فيها مقصورات ذات قبات بديعة الشكل وزخرفها بنقوش ذهبية. وأوجد في الحديقة أنهاراً من خمر وأخرى من عسل وثالثة من لبن. وأقام الحور العين والولدان المخلدين، والجميع يلهون بالموسيقى والغناء والرقص، وذلك كله لفتنة أتباعه بأن هذه هي الجنة التي وعد

(١) المقصود بشيخ الجبل هنا: الحسن بن الصباح.

الله بها المتقين. وأن في استطاعة شيخ الجبل أن يدخل جنّته هذه من يشاء ويحرم منها من يشاء، لذلك تفانوا في طاعته والامتثال لأوامره، ولم يكن يسمح لأحد بدخولها إلا لطبقة الفدائيين».

وتعليقاً على ما ذكره (ماركو بولو) يقول المستشرق الروسي (إيفانوف) وهو المتخصص بالدراسات (النزارية)، والذي زار ألموت مرتين لدراستها على الطبيعة والتأكد من بعض ما ورد عنهم[1] وعنها، يقول إيفانوف: «أي جنة وارفة الظلال في أرض يجتاحها الشتاء بجليده وزمهريره سبعة أشهر في العام» إلى آخر ما قال.

ثم تفنّن الزاعمون في مزاعمهم فكان مما قالوه:

إن الحسن كان يعتمد تعويد أتباعه الحشيش وإدمانه فلا يستطيعون الحياة بدونه وأنهم كانوا ينفذون كل ما يطلب منهم لقاء حصولهم على الحشيش، فإذا نفذوا الأوامر أعطوا الحشيش وأدخلوا الجنة!!.

وهكذا اختلفت تعليلات الزاعمين، فقد رأينا من يقول إن فقدانهم للوعي باستعمال الحشيش هو الدافع لهم، وهنا من يقول بأن تلهفهم على امتلاك الحشيش هو الدافع.

وبعد البحث الطويل عثرت على مصدرين، أنا ذاكر لهما في هذه الدراسة عن النزاريين وأصل تلقيبهم بالحشاشين:

وأول هذين المصدرين هو كتاب (مجموعة الوثائق الفاطمية) لمؤلفه الدكتور جمال الدين الشيال وفيه نص ثمين في هذا الموضوع، وذلك أنه لما اشتد الصراع بين النزاريين المنشقين عن الفاطميين، وبين الفاطميين، كان من وسائل هذا الصراع ما نسميه في اصطلاحنا الراهن الوسائل الإعلامية بإمكانيات ذلك العصر، فكان النزاريون يوزعون بيانات تبين فساد خلافة أحمد المستعلي ومن تلاه ويمكن أن يتلوه من الخلفاء فيرد الفاطميون على البيان ببيان وعلى الأدلة بأدلة.

---

(١) انصرف (ايفانوف) بكل قدراته العلمية العملية لدراسة المذهب الاسماعيلي وتاريخه، وله كتب كثيرة في هذا الموضوع.

فمن ذلك أن الخليفة الفاطمي (الآمر بأحكام الله) أصدر رسالة باسم (الهداية الآمرية في إبطال الدعوى النزارية)، فرد عليها النزاريون، فرد الفاطميون على الرد برسالة جاء فيها:

«لما صدرت هذه الهداية عن حضرة سيدنا ومولانا المنصور أبي على الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين.. أشرق بها نور الحق المبين، وعمّت بركتها جميع أهل الدين».

ثم تقول الرسالة: «ولما وصلت إلى دمشق ووقف عليها نفر من جماعة الحشيشية فلّت عزمهم وكدَّرت شربهم...» إلى آخر ما جاء في الرسالة.

ويرى الدكتور الشيال فيما جاء في هذه الرسالة أن الفاطميين هم الذين بدؤوا بنعت الإسماعيلية النزارية بهذا الوصف، وأن هذه الوثيقة صدرت في عهد الخليفة الآمر أي بعد نشوب النزاع بين المستعلي ونزار بنحو عشرين سنة.

ويفسر الدكتور الشيّال إطلاق هذا الوصف على النزاريين بأنه كان للتشهير بهم بمعنى أنهم في قولهم بإمامة نزار إنما كانوا يخرفون كما يخرف الحشيشية، أي أن الفاطميين لم يتّهموهم باستعمال الحشيش. بل وصفوهم بأوصاف مستعمليه بما يطرأ على عقولهم من التخريف.

وإذا كنّا لم نطلع على نصوص خاصة بردود النزاريين، فقد أطلعنا على نصوص وردت خلال ردود الفاطميين عليهم، ويبدو مما ورد في الرد على الرسالة التي وصف فيها النزاريون بالحشيشية أن الذي ورد فيها هو النص الكامل للرد النزاري. إذ جاء فيها ما يلي:

وصل كتاب من الدعاة المستخدمين في دمشق مشتملاً على فصل هذا نصّه: لما كان يوم الخميس السابع والعشرين من ذي الحجة بعد فراغ قراءة المجلس الشريف[1] على المستجيبين للدعوة الهادية. كثّرهم الله ــ ورد على المملوك رجل

(١) كان الدعاة يعقدون في العصر الفاطمي مجالس تسمى بالمجالس الشريفة، يلقون فيها المحاضرات، وفيها ما يتعلق بشرح المذهب وأصوله.

من القوم الماكرين لم تجر له بذلك عادة، وصحبه أحد المستجيبين للدعوة الهادية، فجلسا هنيهة، وأخرج الرجل من كمه نسخة الهداية الواردة من المقام الأشرف، وأن تلك النسخة كانت عند المستجيب، وخصَّ ذلك الرجل بسماعه إياها، وأن الرجل لما وقف على مضمونها اشتبه عليه أمره وضاق بها ذرعاً، وحملته تلك الحال إلى أن مضى بتلك النسخة إلى طاغوته، فطلب منه جوابها وخلاص مشكلاتها، فأجابه على ذلك في آخر الهداية، إذ كان البياض يسع الجواب، بهذه الفصول».

ثم يلي ذلك رد النزاريين على (الهداية). ويبدو جلياً أن الرد كان ــ بالرغم من إيجازه ــ إذ لم يتجاوز الصفحة الواحدة من كتاب «مجموعة الوثائق الفاطمية» ــ كان هو النص الكامل للرد. كما يبدو ذلك من قول الرد الفاطمي، بأن جواب النزاريين على رد الفاطميين كان على ما بقي من بياض من نسخة (الهداية). وبذلك يكون النزاريون لم يردوا على وصفهم بالحشيشية، بل مروا به مرور الكرام، وهذا يدل على أنهم لم يفهموا منه اتهامهم بتعاطي الحشيش، بل فهموا منه ما استنتجه الدكتور الشيّال:

«أنهم إنّما كانوا يخرّفون كما يخرّف الحشيشية».

ولو فهموه غير هذا الفهم، ولو فسروه بأنه اتهام لهم بتعاطي الحشيش لما سكتوا عن الرد على هذا الاتهام.

ورد النزاريون على هذا الرد، فرد الفاطميون على ردّهم برسالة أوردوا فيها وصفهم للنزاريين بالحشيشية مرة ثانية، إذ جاء فيها: «وقد وقفت يا أبناء الدعوة على ما سطرتموه في كتابكم من جواب الحشيشية ــ هداها الله وأصلحها ــ عما تضمنته الهداية. . .».

وكان تاريخ هذا الرد الأخير ٢٧ ذي الحجة دون ذكر السنة، وقد حدد الدكتور الشيال السنة استنتاجاً وهي: سنة ٥١٦ هـ.

وبهذا الرد ينتهي ما وصل إلينا من وثائق في هذا الموضوع، إذ إن كتاب

(مجموعة الوثائق الفاطمية) ينتقل إلى مواضيع أخرى تتضمن وثائق لا علاقة لها بالصراع العقيدي بين الفاطميين وبين الإسماعيليين النزاريين. وهنا لا يجوز أن يفوتنا ما في هذه الوثائق من معلومات عن أساليب الصراع الفكري في ذلك العصر وعن وسائل المتصارعين، وأداة ما يمكن أن نسميه «الإعلام» الحكومي، وعدم لجوء هذا الإعلام إلى وسائل القهر، بل اعتماده وسائل الإقناع مع ما في هذه الوسائل من كلمات قاسية. فهو لا يلغي حق خصومه في مناقشة عقيدته، ولا يفرض عليهم رأيه بالقوى المادية من قتل وسجن وتعذيب وإرهاب، بل يترك لهم حرية الرد عليه والرد على الرد. وهذا مما تميز به الحكم الفاطمي.

ففي حين كان لا يجرؤ إنسان في كل عهود الحكام السابقين للفاطميين واللاحقين لهم على أن يتفوه بما يناقض كلمة من كلماتهم أو رأي من آرائهم، فإذا فعل، كان القتل مصيره المحتوم ـ نرى هنا كيف عامل الفاطميون مخالفيهم ومناقضيهم في أساس عقيدتهم، وكيف ردوا على الكلمة بكلمة مثلها لا بالسيف وكيف قارعوا الحجة بالحجة لا بالإرهاب والموت.

والمصدر الثاني هو ما كتبه الكاتب الغربي (بول آمير) في كتابه (سيد ألموت) وهو الكتاب الذي ترجمه إلى اللغة الفارسية ذبيح الله منصوري، ونقل لنا مضمون ما جاء فيه عن هذا الموضوع بعض الأصحاب المجيدين للفارسية.

ويتلخص ذلك بأن الصفة التي أطلقت على النزاريين: (الحشاشون) هي في الأصل صفة: (الحشائشيون). وهي الصفة التي كانت تطلق في تلك العهود على من يتعاطون جمع الحشائش البرية التي تستعمل هي نفسها أدوية، أو تستقطر منها الأدوية، وقد كان يختص بذلك أفراد، فيهم من هم من الأطباء أو الصيادلة، كان يطلق على الواحد منهم لقب: (الحشائشي) حتى لقد أصبح ذلك مهنة من المهن المشتهرة، وكان لها أسواق خاصة بها وتجّار يتعاطون بيع الحشائش الطبية وشراءها[1].

---

(١) أدركنا في دمشق الأيام التي كانت فيها كل دار تقريباً تربي خروفاً وتعلفه ليكبر ويسمن. وكان يمر على تلك الدور بائع الحشيش الذي يعلف به الخروف فيطرق =

هذا ملخّص ما قاله بول آمير ونقول نحن:

وممن اشتهر بذلك من العلماء: أبو العباس أحمد بن مفرج الإشبيلي الأندلسي المعروف بابن الرومية المولود في إشبيلية سنة (٥٦١ هـ ـ ١١٦٥ م) فقد كان صيدلياً عقاقيرياً، كما كان نباتياً عشّاباً. وكذلك كان من رجال الحديث. وكما قيل عنه: «ودعته إلى الأسفار رغبته في سماع الحديث والاتصال بشيوخه، وميله إلى تحري منابت الأعشاب وجمع أنواع النبات». وكذلك: تقي الدين الحشائشي الذي كان في عصر هولاكو واشتهر بمعرفته الواسعة بالحشائش الطبية. وكانت له مؤلفات جليلة في النبات والعقاقير، وفي الحديث وعلمه. على أن الصفة التي غلبت عليه هي صفة (العشّاب).

وهناك أسر تحمل لقب الحشائشي وتتوارثه دون أن تعمل في (الحشائش)، ولا شك أن أسلافها ممن عملوا فيها فأطلق اللقب عليهم، وظل يطلق على أنسالهم حتى بعد أن تركوا العمل في الحشائش ومنهم مثلاً محمد بن عثمان الحشائشي المولود سنة (١٢٧١ هـ ـ ١٨٥٥ م) في مدينة تونس مؤلف كتاب (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب) وغيره من المؤلفات.

يقول بول آمير:

عمل النزاريون في ذلك بشكل واسع، فقد كان لهم في جبالهم قرى ودساكر ومزارع كان ينطلق فيها حتى النساء والأطفال في جمع الحشائش الطبية التي كانوا يتوسعون في زراعتها ولا يقتصرون على ما تنبته الطبيعة، حتى لقد كانوا يزرعونها في حدائق البيوت.

وكان جامعو الحشائش من الحقول والبراري يبيعون ما يجمعونه إلى أشخاص معينين متصلين بسيد ألموت حيث يصدرونها إلى مختلف المدن.

ويسمي (بول آمير) محمود السجستاني أحد وكلاء سيد ألموت واحداً ممن

= الباب ويصيح معلناً عن نفسه: (الحشّاش). وكان الصغار والكبار يلقبونه بـ (الحشّاش). وتجيء كلمة أخرى عن هذا الموضوع في الآتي من القول.

كان إليهم أمر استيراد هذه الحشائش ثم تصديرها. ويذكر حواراً جرى بين السجستاني وبين من يسميه علي الكرماني وهو من الموظفين عنده، يطلب إليه التنبه بأن لا يخلط الحشائش الطبية بغيرها من الحشائش الرخيصة قائلاً له: إذا نحن خلطنا مرة واحدة أنواعاً من زهر البنفسج والسبستان والأنذروت مع أخلاط نفايات الزهور وأرسلناها مرة إلى عملائنا في الري وكاشان وأصفهان وسائر المدن فإن أحداً منهم لن يشتري بعد ذلك منّا أدوية.

وكان في كل مدينة سوق خاص يسمى سوق الحشائشيين، وكانت الحشائش تجمع بألموت في جوالق يكتب عليها اسم المرسلة إليه واسم المدينة مع كلمة (سوق الحشائشيين). أما ما يستقطر منها فيوضع في قوارير خاصة محفوظة من عوامل الكسر وترسل مع أحمال الحشائش.

وبذلك كانت ألموت معروفة بأنها أحد المراكز الكبرى للأدوية الحشائشية واستيرادها ثم تصديرها. (انتهى).

ومن هنا لصق بالنزاريين لقب الحشائشيين. ثم استغله خصومهم فطوّروه إلى (الحشاشين). وللتأكد من هذا قمت برحلة إلى مملكة النزاريين مما يراه القارىء في موضع آخر.

من وقائع فدائييهم: ومن أشهر فتكاتهم اغتيالهم للقائد الصليبي الذي يسميه المؤرخون المسلمون باسم (المركيس) ويصفونه بأنه كان ذا دهاء ومقدرة وشجاعة.

وقد كان من أشرس من تولى الأمر في مدينة (صور) وأعتاهم، فتزيا اثنان من الفدائيين النزاريين بزي الرهبان مدفوعين من سنان راشد الدين ودخلا المدينة وتربّصا به حتى أمكنتهما منه الفرصة فقتلاه سنة ٥٨٨ هـ.

والواقع أنه كان للنزاريين تنظيم فدائي دقيق أنشأه الأمير الحسن بن الصباح في (ألموت)، ثم امتد إلى نزاريي بلاد الشام فأشرف عليه سنان راشد الدين، وكان

التنظيم على غاية من حسن الإعداد ودقة التنفيذ والتحلّي بالشجاعة والاستعداد للتضحية بالنفس.

وقد أعدته القيادة النزارية لترويع أعدائها والدفاع عن نفسها، وقد رأينا مثالاً لذلك في بلاد الشام في اغتيال القائد الفرنجي الصليبي (المركيس)[(١)].

ولشدة ما عانى الصليبيون منهم فإن شهرتهم بذلك قد وصلت إلى أوروبا نفسها، فعندما عزم (فيليب السادس) ملك فرنسا على إرسال حملة صليبية جديدة إلى بلاد الشام سنة (٧٣٣ هـ ـ ١٣٣٢ م) لم يخفِ الراهب الألماني (بروكارديوس) رعبه من فدائيي النزاريين، فصورَّهم بأروع صورة حاول فيها لشدة ذعره منهم أن يصفهم بصفات سيئة، هي تعبير عن الهلع المسيطر عليه وعلى غيره من الصليبيين من فعلاتهم بهم.

قال بروكارديوس مخاطباً الملك فيليب:

«. . . أنا أسمّي بين هذه المخاطر أولئك الذين ينبغي لعنهم والفرار منهم لأنهم باعوا أنفسهم وهم عطاش للدماء البشرية يقتلون البريء لقاء الثمن، ولا يكترثون من أجل حياة أو إخلاص، وهم كالشيطان يحولون أنفسهم إلى صورة ملائكة النور، وذلك بتقليد حركات الشعوب والأقوام المختلفة وملابسهم ولغاتهم وعاداتهم وأفعالهم. هكذا تصادفهم متخفين في ثياب الشياه. فعليك أن تذيقهم الموت في اللحظة التي يميزون بها. إنما عرفت هذا عنهم بما تواتر حولهم، أو بالكتابات الصادقة. لا يمكنني أن أبوح بأكثر من هذا، ولا أن أقدم معلومات أوفى. . . »[(٢)].

أما عن فعلاتهم في غير الصليبيين، وفيمن ناوأهم فقد كان معظمها في غير

---

(١) يقول أحمد الجندي في كتابه (لهو الأيام) ص ٣٤: وقد برز الاسماعيليون في حربهم ضد الصليبيين وخاصة في اعتمادهم على الاغتيالات التي تناولت الأمراء حتى يقال (في أوساطهم) إلى الآن إذا برع أحد في عمل من الأعمال: «لقد أتى برأس البرنس» لأن الاسماعيليين كانوا يأتون برؤوس البرنسات (الأمراء) الصليبيين إلى مدنهم بعد قتلهم.

(٢) كتاب (الحشاشون) لبرنارد لويس وترجمة محمد العزب.

بلاد الشام، في المناطق التي ينطلقون إليها من قلاعهم في ألموت وغيرها.

فمن ذلك أن فخر الدين الرازي في دروسه لطلاب الفقه في الري كان يتعمد تجريح النزاريين فبلغ ذلك سيد ألموت فقرر وضع حد لذلك، فأرسل إلى فخر الدين فدائياً اندسّ بين تلاميذ الرازي كواحد منهم، فظل سبعة أشهر يستمع لدروس فخر الدين ــ كأي تلميذ نشيط ذكي واع ــ. وفي يوم من الأيام طلب الانفراد بأستاذه في حجرته بحجّة مناقشة مسألة فقهية معقّدة. فلما تمّ ذلك شهر الفدائي مديته وهدّد بها الفقيه، فقفز فخر الدين جانباً وقال ماذا تريد أيها الرجل؟..

فقال الفدائي: أريد أن أشق بطنك من الصدر إلى السرّة لأنك لعنتنا على المنبر. وبعد عراك عنيف رمى الفدائي فخر الدين على الأرض وجلس على صدره. فأذعن فخر الدين المرعوب واستغفر الفدائي ووعد بأن يكف عن النزاريين.

فناوله الفدائي كيساً يحتوي على ٣٦٥ ديناراً مع الوعد بأن يصله مثله سنوياً.

ونفذ فخر الدين وعده، فكان على أكثر ما يكون احتياطاً في تجنّب كل كلام يسيء إلى النزاريين في دروسه المتوالية.

فاسترعى هذا التبدل في موقف فخر الدين انتباه أحد تلاميذه فسأله عن السر في ذلك، فقال الأستاذ:

إنه ليس من المصلحة أن نلعن (الإسماعيلية) لأن لديهم حججاً ثقيلة عويصة.. ومن قصصهم في هذا الموضوع أن حسن الصباح تابع إرسال السفراء إلى (سنجر)[١] ينشدون السلام ولكن عروضه لم تقبل.

---

(١) أحد ملوك خراسان السلاجقة، كان حكمه يشمل خراسان وغزنة وبعض ما وراء النهر. تغلب عليه الغزنويون سنة ٥٤٨ فأسروه وبقي في أسرهم ثلاث سنين وأربعة أشهر ثم أفلت منهم وعاد إلى خراسان، وزال بموته سنة ٥٥٢ ملك السلاجقة عن خراسان، واستولى على أكثر مملكته خوارزم شاه.

وفي يوم من الأيام استيقظ السلطان صباحاً فرأى مدية مضروبة بالأرض بجنب فراشه، فامتلأ لذلك رعباً.

فإذا برسل حسن الصباح يصلون إليه بالرسالة الآتية: «لو لم أبتغ الخير للسلطان فإن تلك المدية التي ضربت في الأرض الصلبة كان يمكن أن تغرس في صدره اللين».

وعند ذلك استجاب سنجر لدعوة السلام.

أما عن التهمة التي رماهم بها ابن تيمية فنقول:

العام (٦٢٠ هـ ـ ١٢٢٣ م) كان جنكيز خان امبراطور المغول قد حقق أهدافه الأولى فقضى على الدولة الخوارزمية واكتسح بلاد ما وراء النهر واجتاح بخارا وسمرقند وغزنة وهراة وغيرها من المدن الإسلامية، مرتكباً فيها أنواع الفظائع، فقال ابن الأثير يومذاك: «وهذا عظيم مثل خراسان وعراق العجم[(١)] أصبح سائباً لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه والعدو يجوس البلاد، يأخذ ما أراد ويترك ما أراد».

ومع ذلك فقد تهيب المغول بعض المعاقل الحصينة فأرجؤوا أمرها إلى حين، وكان من تلك المعاقل قلاع النزاريين[(٢)] المنيعة التي كانت معدّة أحسن الإعداد للدفاع ولطول الحصار فضلاً عن موقعها الجبلي الصعب الولوج.

---

(١) عراق العجم أو العراق العجمي: هو الذي عرف في عهد البويهيين باسم بلاد الجبل أو بلاد الجبال، وسماه السلاجقة: العراق العجمي. يقول في معجم البلدان عن بلاد الجبل أو بلاد الجبال: «هي ما بين أصفهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والري، وما بين ذلك من البلاد الجبلية والكُوَر العظيمة». ويقول حمد الله المستوفي (١٢٨١ ــ ١٣٤٩ م) في كتابه (نزهة القلوب): أن حدوده: آذربيجان، كردستان، خوزستان، فارس، المفازة الكبرى، قومس، كيلان، وإن أشهر مدنه: أصفهان، همذان، قم، الري السلطانية، قزوين، ساوه، الطالقان، كاشان، جرباذقان، نهاوند، يزد وغيرها.

(٢) النزاريون هو الاسم الذي سنعتمده فيمن ظلوا يسمون أنفسهم: الاسماعيليين بعد أن تبرأ منه أصحابه الأولون.

فعاد جنكيز إلى بلاده ومات بعد أربع سنين وتولّى بعده ابنه (أوغوتاي)، فاحتفل المغول بتنصيبه احتفالات حضرها مندوب لخليفة بغداد ومندوب لحاكم النزاريين في ألموت علاء الدين فيمن حضر من ممثلي الدول الأخرى المجاورة للمغول والمهددة بهم، كما حضرها بعض المندوبين المسيحيين.

وبالرغم من المعاملة الحسنة التي عومل بها مندوب الخليفة فإنه تسلّم رسالة كلها تهديد ووعيد. أما مندوب النزاريين فقد عومل بغضب ومهانة[١].

وسبب هذا الغضب وهذه المهانة أن المغول رأوا في عدم وصولهم إلى قلاع النزاريين نوعاً من الاعتزاز في نفوس النزاريين، فأرادوا إذلالهم حتى وهم ضيوفهم. وقد ترجم بعد ذلك هذا الغضب وهذه المهانة إلى اقتحام لقلاع النزاريين وهدم لها وقتل لحكامها ورجالها وإحراق لكتبها مما سنذكره بعد تقديم بعض التعريف بتلك القلاع:

قلاع النزاريين: تقع هذه القلاع إلى الشمال الغربي من مدينة قزوين، والذي يقصد قزوين من همذان يشاهد إذا قارب قزوين سلسلة جبال الديلم التي قامت عليها قلاع النزاريين.

وأهم هذه القلاع هي: ١ ــ ألموت: بعد أن تمرّد حسن الصباح على خلافة أحمد المستعلي، وأصر على أن نزاراً هو الأحق بالخلافة وصمّم على الانفصال عن الدولة الفاطمية وإقامة دولة يكون هو فيها المدبر الفاعل، فكّر أول ما فكّر بالاستناد إلى قاعدة لدعوته تتمتع بالحصانة الطبيعية، فوقع اختياره على قلعة ألموت، وكانت هذه القلعة مبنية على قمة جبل تتحكم بواد مغلق طوله نحو ثلاثين ميلاً وعرضه في أعرض نقاطه حوالي ثلاثة أميال وهي على ارتفاع أكثر من (٦,٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، ولا يمكن الوصول إليها إلا بواسطة ممر ضيّق حلزوني.

وهناك تفاصيل عن كيفية استيلائه على القلعة ليس هنا مكان ذكرها.

---

(١) مختصر تاريخ الدول لابن العبري.

وظلّت القلعة حصن النزاريين الحصين ترد عنها الهجمات المتكررة من أعدائها، حتى هجوم هولاكو كما سيأتي تفصيله.

٢ ــ وبعد قلعة ألموت تأتي قلعة (لمبسر) التي حكمها من النزاريين (كيابزرك أميد) طيلة عشرين سنة، وقد استولى عليها النزاريون سنة (٤٩٦ هـــ ١١٠٢ م). وتقع هذه القلعة في منطقة (رودبار) و (شاهرود) في موقع حصين.

٣ ــ قلعة قوهستان: استولى عليها النزاريون بعد أن استجاب أهالي قوهستان للدعوة سنة (٤٨٤ هـــ ١٠٩١ م).

٤ ــ قلعة گردكوه التي تقع جنوب دامغان وتشرف على الطريق الرئيسي بين خراسان وغربي إيران. سيطر عليها حاكمها من قبل السلاجقة (مظفر) وكان يضمر نزاريته، فلما ملأها بالمؤن أعلن تمرّده على السلاجقة وولاءه لحسن الصباح، وكان ذلك سنة (٤٩٠ هـــ ١٠٩٦ م).

٥ ــ قلعة شاه دز، وهي قلعة قريبة من أصفهان. كان يسيطر عليها عبد الملك بن عطاش.

هذه هي أهم القلاع النزارية التي يبلغ عددها المائة قلعة وكلها محكمة البنيان منيعة الجانب ومنها مع ما تسيطر عليه كانت تتألف مملكة النزاريين[١].

---

(١) اعتنى الاسماعيليون النزاريون بامتلاك القلاع في كل مكان حلوا فيه، لتوقعهم الاغارة عليهم في كل وقت. ولهم في بلاد الشام قلاع أهمها: قلعة قدموس، وهي ذات موقع جميل قائم على صخرة طبيعية تطل على مواقع بعيدة، فمنها يمكن رؤية أضواء ميناء طرابلس في الليالي القمراء، ورؤية جبال قبرص عند صفاء السماء. تبعد عن بانياس السورية ثلاثين كيلومتراً إلى جهة الشرق. وفي كتاب اسماعيلي مخطوط تأليف نور الدين أحمد اسمه (فصول وأخبار) ما يدل على أن الاسماعيليين اشتروها من ابن عمرون الدمشقي في حدود سنة ١١١٧ م. وفي الجهة الشرقية من القلعة غرفة كانت مقراً لشيخ الجبل سنان بن راشد الدين.
وقلعة الكهف: تبعد عن قلعة قدموس عشرون كيلومتراً وهي من قلاع الاسماعيليين التاريخية وكانت تتبع مقر الدعوة في آلموت، وانتهت إلى سنان راشد الدين. وفيها بقايا حمام كتب على بابه: بسم الله الرحمن الرحيم. أدخلوها بسلام آمنين. . . وعلى =

من حرض المغول؟:

رأينا فيما تقدم أن وفد الخليفة إلى حفلة تنصيب (أوغوتاي) لقي إلى جنب الترحيب تهديداً ووعيداً، وعاد إلى بغداد برسال معربة عن ذلك. وأما وفد النزاريين فقد لقي غضباً ومهانة. ولكل من المعاملتين أسباب وجذور ودلالات. فوفد الخليفة يمثل سلطة لم يصطدم بها المغول اصطداماً مباشراً بعد، ولكنهم يتهيؤون لهذا الاصطدام، فهم على ترحيبهم يريدون أن يفهموا الذين وراء الوفد أن عليهم التسليم أو انتظار عواقب عدم التسليم.

وأما النزاريون فقد استطاعوا أن ينجوا من غزو جنگيز وأن تظل قلاعهم سليمة ويظلوا هم سالمين، وهذا ما أثار حنق المغول عليهم حنقاً تجلّى في مقابلتهم لوفدهم، وفيما بدر منهم بعد ذلك عندما تهيّؤوا للغزو العام. فقد أعلنوا

= الله فليتوكل المؤمنون. . . أمر بعمارة هذا الحمام المبارك المولى العادل سراج الدين والفقير مظفّر بهاء الحسين أعزّه الله ونصره في ولاية العبد الفقير إلى شفاعة مواليه الأئمة الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين.

حسن بن اسماعيل العجمي الألموتي في سنة ٥٧٢ هـ

والقلعة تمتد طولاً ما يقارب مئة متر بعرض يزيد على خمسة عشر متراً على هضبة صخرية فوق واد سحيق يجري فيه نهر من ماء الشتاء: تحيط بها الجبال العالية.

وقلعة الخوابي: كانت تتبع قلعة الكهف. وقد جدد بناءها سنان راشد الدين سنة ١١٦٠ م.

وقلعة العلّيقة: تبعد عن قلعة قدموس حوالي خمسة عشر كيلومتراً إلى جهة الشمال الغربي.

وقلعة الرصافة: تبعد عن قلعة مصياف ثمانية كيلومترات إلى جهة الغرب الجنوبي. بناها سنان راشد الدين على قمة جبل يشرف على مسافات واسعة من الجهة الشرقية والغربية. وهي اليوم كومة حجارة.

قلعة مصياف: مبنية على صخور صلبة، وهي مسورة بسور طويل. ظلت عاصمة الاسماعيليين النزاريين في بلاد الشام، واتخذها سنان راشد الدين قاعدة له. ولا يزال الاسماعيلييون النزاريون يعتبرونها مقر تراثهم الاسماعيلي القديم.

بكل وضوح أن هدفهم استئصال النزاريين ولقوا بين المسلمين من يحرّضهم على ذلك ويمهّد لهم السبيل.

بعض المسلمين الذين كان الخطر المغولي لا يزال جاثماً على أبوابهم بكل جبروته وقوّته بعد غزو جنگيز خان، لم يروا في وثنية المغول إلحاداً، وإنما رأوا هذا الإلحاد في عقيدة النزاريين. وأصبح همّ المسلمين لا العمل على وضع الخطط للمستقبل القريب والبعيد، والاعتبار من الماضي بالتفكير في تنظيم القوى الإسلامية وجمع صفوفها لتكون سداً منيعاً في وجه غزو مغولي جديد متوقع في كل ساعة. لم يصبح همّهم هذا، بل كان همّهم كيف نقضي على النزاريين وقلاعهم.

إن التخلص من تلك الدعوة وأصحابها شيء لا يلام عليه من يريدون التخلص منها ومنهم، ولكن على أن يتم ذلك بالقوى الذاتية، لا سيما المعنوية منها من إقناع ودليل وحجّة، لا باستدعاء الأجنبي الوثني الطامع بالبلاد الإسلامية، والذي هو في الوقت نفسه أشد إلحاداً من كل ملحد، وأفظع فتكاً من كل فاتك.

كان (منكوقا آن) حفيد جنگيز هو الذي انتهت إليه خلافة جنگيز، وكان هو الحاكم الذي تسير بإشارته جيوش المغول في كل مكان. وكان له عدة إخوة يقودون جيوشه ويحكمون باسمه، أحدهم هولاكو.

على منكوقا آن هذا كان يتردد قاضي قضاة المسلمين شمس الدين القزويني، وكان همّ هذا القاضي أن يثير حفيظة الامبراطور المغولي على النزاريين ويحرّضه على اقتحام بلادهم، فلم يترك وسيلة من الوسائل إلا استغلها لإنجاح مقصده.

يقول رشيد الدين الهمذاني في كتابه جامع التواريخ في الصفحة ٢٣٣، من المجلد الثاني ـ الجزء الأول: «في ذلك الوقت كان قاضي القضاة المرحوم شمس الدين القزويني موجوداً في بلاط الخان. وذات يوم ظهر للخان مرتدياً الزرد وأخبره أنه يلبسه تحت ثيابه خشية الملاحدة، كما سرد له طرفاً من اعتداءاتهم وغاراتهم. وكان الخان يتوسم في أخيه هولاكو مخايل الملك، ويرى في عزائمه مراسم الفتح والغزو. وكان قد تفكّر فرأى أن بعض ممالك العالم قد دخل فعلاً في

حوزة جنگيز خان وبعضها لم يستخلص بعد».

ويقول الجوزجاني: (انظر طبقات ناصري، الصفحة ٤١٣ ــ ٤١٤) إن شمس الدين هذا كان على اتصال بالمغول، وكان إماماً وعالماً كبيراً، ذهب مرة إلى منكوخان وطلب منه أن يضع حدّاً لشر الملاحدة ويخلّص الناس من فسادهم.

ويقول الجوزجاني أيضاً: إن كلمات هذا القاضي كان لها أثر عميق في نفس منكوخان إذ نسب إليه الضعف والعجز لأنه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة التي تدين بدين يخالف ديانات المسيحيين والمسلمين والمغول، وما ذلك إلا لأنهم استطاعوا أن يغروا منكوخان بالمال، بينما هم يتحيّنون فرصة ضعف دولته، فيخرجون من الجبال والقلاع ليقضوا على البقية الباقية من المسلمين ويعفوا آثارهم.

هذا بعض ما حفظه المؤرخون من تحريض قاضي قضاة المسلمين (الإمام العالم الكبير) على حد تعبير الجوزجاني، أما ما لم يحفظوه فلا شك أنه شيء كثير.

وتدل تصرفاته على أنه كان داهية دهماء يعرف كيف يصل إلى قلب محدثه وعقله وكيف يستحوذ على عواطفه وشعوره. ثم انظر كيف استطاع أن يثير في نفس حفيد جنگيز خان ذكريات عدم توفق جده بالاستيلاء على قلاع النزاريين، حتى أدى الأمر إلى أن يروي لنا المؤرخ الموقف على هذا الشكل: «فرأى منكوخان أن بعض ممالك العالم قد دخل فعلاً في حوزة جنگيز خان وبعضها لم يستخلص بعد» ومن البدهي أن قلاع النزاريين كانت مما لم يستخلص بعد.

وتعقيباً على قول القاضي يقول صاحب جامع التواريخ: «فاستقر رأي منكوخان على أن يعهد بكل طرف من المملكة إلى واحد من إخوته ليخضعها لإرادته».

وكانت بلاد النزاريين من نصيب هولاكو.

هذه هي قصة من قصص بداية الغزو المغولي للبلاد الإسلامية على يد

هولاكو الذي انتهى إلى ما انتهى إليه من الوصول إلى بغداد وما جرى فيها من الفظائع والأهوال.

لقد كان بعض المسلمين محرضين على هذا الغزو، وكان بطل التحريض «قاضي القضاة الإمام العالم الكبير».

ويفجعك فيما يفجعك أن القاضي الإمام المحرض قد جعل من أبرز جرائم النزاريين أنهم لا يدينون بالوثنية دين المغول، كما تراه في أقواله المتقدمة. فلو دانوا بها لما كان عليهم من بأس عند قاضي المسلمين وإمامهم العالم الكبير.

واستطاع هذا القاضي الإمام أن ينجح في مسعاه فقضى المغول على دولة النزاريين، ولكنهم قضوا في الوقت نفسه على خلافة بغداد وأزالوا دولة العباسيين.

وليتنا نعرف رأي القاضي الإمام المحرض بالنهاية التي وصل إليها العالم الإسلامي نتيجة تحريضه.

صحيح أن المغول كانوا يعدون العدة لغزو العالم الإسلامي سواء حرضهم القاضي أم لم يحرضهم، ولكن الصحيح أيضاً أن «قاضي القضاة» كان من المحرضين المتحمسين لهذا الغزو وأنه أعطاهم المبرر ورفع لهم الشعار وكان من أخلص الأعوان...

وهنا نود لو سألنا ابن تيمية، الذي قال في بعض ما قال: «إن التتار لم يكونوا ليغيروا على بغداد ولم يكونوا ليقتلوا الخليفة العباسي وبقية القواد المسلمين إلا بمساعدة الملاحدة الاسماعيلية».

إنّا نود لو سألناه من هو الذي ساعد المغول على الإغارة على بغداد وقتل من قتلوا؟ أهو قاضي قضاة المسلمين أم الاسماعيلية الذين استهدفهم تحريض القاضي ثم استهدفهم تنكيل المغول؟![1].

---

(١) يقول العريني (ص ٢١١): صدرت الأوامر (من الخان المغولي الأكبر) بالتخلص نهائياً من هذا المذهب (الاسماعيلي) فتم الاجهاز على طائفة كبيرة من أقارب =

فقد كانت عصبية ابن تيمية تغشّي على بصيرته فيقع في فضائح تاريخية وغير تاريخية مما رأيناه هنا وما نراه غير هنا.

ومضى هولاكو بجيشه الجرار معلناً أنه إنما يمضي للتغلب على النزاريين ولما وصل إلى (كش) أقام مدة شهر، ثم أرسل عدة رسل إلى الملوك والسلاطين (المسلمين) تشتمل على هذه العبارات: «بناء على أمر القاءان قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وإزعاج تلك الطائفة، فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والآلات فسوف تبقى لكم ولايتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم. أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم فإنّا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة فإننا لا نقبل عذركم ونتوجّه إليكم فيجري على ولايتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى»[١].

ولبّى الملوك والسلاطين والأمراء المسلمون نداء هولاكو لمعاونته في مهمته (المقدسة)، ويصف رشيد الدين فضل الله الهمذاني في (جامع التواريخ) التسارع إلى تلبية النداء (الجهادي) فيقول: «أقبل من بلاد الروم السلطانان عز الدين وركن الدين. ومن فارس سعد بن الأتابك مظفر الدين. ومن العراق وخراسان وآذربيجان وأرّان وشروان وجورجيا الملوك والصدور والأعيان».

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد فبعد احتلال هولاكو لبغداد وزحفه إلى بلاد الشام انضم إليه من انضم من ملوك المسلمين وساروا معه لقتال إخوانهم المسلمين ومعاونته في فتح بلادهم. نذكر منهم الملك السعيد ابن الملك العزيز ابن الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي الذي سلم لهولاكو الصبيبة[٢] وانضم إليه في زحفه. ويقول عن ذلك أبو الفداء في تاريخه (ص ٢٠٤، ج ٣): «وسار

= خورشاه، بينما تقرر حشد عدد كبير من الاسماعيلية بناء على طلب المغول لإحصاء عددهم فتعرض هؤلاء الألوف للقتل، ولم يبق على قيد الحياة إلا من اعتصم بجبال فارس.

(١) جامع التواريخ.

(٢) هي قلعة بأعلى جبل شاهق تطل على بلدة بانياس الواقعة في سفح جبل الشيخ في سوريا ويدعوها العوام قلعة النمرود.

الملك السعيد معهم (المغول) وأعلن الفسق والفجور وسفك دماء المسلمين».

وفي معركة عين جالوت كان مع المغول يقاتل المسلمين، ولما انهزم المغول أسره المسلمين ثم قتلوه. وكان معهم أيضاً في هذه المعركة الملك الأشرف موسى صاحب حمص الذي استطاع الفرار عند حصول الهزيمة فلم يؤسر. وهو من أحفاد شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي.

ومن حرّضوا المغول على غزو الشام ومصر الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل بن الكامل بن العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي، وبعد النصر الإسلامي في معركة عين جالوت قبض عليه الظاهر بيبرس «وأحضر الفقهاء والقضاة وأوقفهم على مكاتبات من التتر إلى المغيث أجوبة عما كتب إليهم في إطماعهم في ملك مصر والشام» كما نص على ذلك أبو الفداء في تاريخه (ص ٢١٧، ج ٣). ثم قتله الملك الظاهر. وبصيرة ابن تيمية المغشاة بعصبيته لا ترى شيئاً من هذا. على أن الأيوبيين في الجزيرة والشام كانوا في أول من تعاون مع هولاكو فأرسلوا إليه يهادونه ويخطبون وده، وقد أسرع الناصر الأيوبي نفسه إلى إعلان خضوعه للمغول وأرسل ابنه العزيز سنة (٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م) «بتحف وتقادم إلى هولاكو وصانعه». أما الأشرف موسى الأيوبي صاحب دمشق فقد أسرع في تقديم ولائه لهولاكو، في حين بادر المنصور بن المظفر الأيوبي صاحب حماه بالفرار إلى مصر تاركاً حماه وأهلها يلقون مصيرهم، ثم فر الناصر يوسف من دمشق وتركها فوضى..[(١)]

(١) قال الدكتور فايد حماد عاشور في كتابه (العلاقات السياسية بين المماليك والمغول) ص ٣٦: كان من الطبيعي بعد سقوط بغداد بيد التتار أن يتابع المغول زحفهم إلى بلاد الشام وكان صاحب الشام في ذلك الوقت الملك الناصر صلاح الدين يوسف (بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي) وكان معادياً للمماليك في مصر فلم يجد بداً من الاستعانة بالتتار ضد سلاطين المماليك في مصر، فأرسل ولده الملك العزيز إلى هولاكو وبصحبته بعض الأمراء ومعهم الهدايا والتمسوا من هولاكو مساعدة الملك الناصر ضد المماليك في مصر...

وهكذا فإن عاشور هذا يرى أنه كان لا بد من الخيانة والتحالف مع المغول على المسلمين!!.

ونحن هنا نسأل ابن تيمية ومن لفّ لفّه وما أكثرهم ماذا كنتم ستفعلون لو أن ملكاً شيعياً هو الذي سلّم (الصبيبة) لهولاكو وانضم إلى جيشه؟ وماذا كنتم ستفعلون لو أن ملكاً شيعياً أو أي شخص شيعي كان يقاتل مع المغول في معركة عين جالوت؟

لقد انضم ملوككم إلى المغول وحاربوا المسلمين وكسبوا الخزي فتجاهلتم ذلك ورحتم تتهمون الأبرياء الشرفاء!.

وممن يتجاهل ابن تيمية جرائمهم ـ وهو يتهم الأبرياء ـ يتجاهل جرائمهم لأن عصبيته توحي إليه بهذا التجاهل، كبار عملاء هولاكو الذين وضعوا أنفسهم في تصرفه فعاونوه على سفك دماء المسلمين، منهم أبو بكر فخر الدين عبد الله بن عبد الجليل القاضي المحدث الذي ذكر صاحب كتاب (الحوادث الجامعة) أنه كان يتولى إخراج الفقهاء البغداديين ليقتلوا في مخيم هولاكو.

وصاحب (الحوادث الجامعة) مؤرخ معاصر شهد الأحداث بنفسه.

إن الذي كان يدهم بيوت فقهاء بغداد ويخرجهم منها ويسوقهم إلى هولاكو ليقتلهم هو (القاضي المحدث) الملقب بـ (فخر الدين).

إن حامل هاتين الصفتين وهذا اللقب كان جلاد هولاكو الساعي بدماء الفقهاء العلماء إلى السفاك السفاح، إنه يعرفهم واحداً واحداً لأنه منهم ويعرف مراتبهم ودرجاتهم، ويعرف بيوتهم ومجالسهم، فكان سهلاً عليه انتقاؤهم وسحبهم لتهرق دماؤهم. وابن تيمية يغمض عينيه عنه وعن أمثاله، ولا يرى فيما فعلوه ما يستحق المؤاخذة!.

نصير الدين الطوسي: ابن تيمية وآخرون غيره لم يرعهم مشهد الملوك والسلاطين والصدور والأعيان المسلمين مقبلين إلى مقر هولاكو مقدمين له فروض الطاعة واضعين أنفسهم ومن إليهم في يديه يصرّفهم كيف يشاء، ولم تثرهم مواكبهم المتدفقة براياتها وسيوفها وطبولها لتصب في الجيش الوثني السفاك

استجابة لنداء طاغية المغول وتلبية لدعوته، واستعداداً للسير تحت لوائه في غزوه المقبل! . .

ابن تيمية لم يبصر شيئاً من هذا وهو يتحدث عمن (ساعد المغول للإغارة على بغداد)، بل أكمل كلامه المتقدم قائلاً بعد أن ادعى على (الملاحدة الإسماعيلية) بأنهم هم الذين ساعدوا ــ أكمل كلامه قائلاً عن الإسماعيليين: «وأهم رجالاتهم الذين حملوا وزر هذه الأحداث هو وزيرهم نصير الدين الطوسي في ألموت، إنه هو الذي أصدر الأمر بقتل الخليفة وفي بساط الحكومة العباسية».

لم يبصر ابن تيمية وفود الخيانة متزاحمة على باب هولاكو ملوكاً وسلاطين وصدوراً وأعياناً، بل أبصر نصير الدين الطوسي وحده، لأنه عندما كان يكتب لم يكن ينظر ببصره، بل ببصيرته، وبصيرته كانت مغشاة بعصبيته فانحجبت عنها الحقائق وتجلّت الأباطيل! . .

ولا نريد هنا أن نعيد الحديث عن مواقف نصير الدين الطوسي بعدما تحدّثنا عنها في غير مكان ولكننا سنقتصر على ما لم نذكره هناك مما يتعلق باتهامات ابن تيمية فنقول:

يزعم ابن تيمية أن نصير الدين الطوسي كان أهم رجالات الاسماعيلية الملاحدة وأنه وزيرهم، وأنه هو الذي أصدر الأمر بقتل الخليفة.

يزعم ابن تيمية ذلك متجرّئاً على نصوص التاريخ، غير مبال بمنافاة قوله لأبسط حقائق تلك النصوص، يفعل ذلك لأنه يريد بأية وسيلة أن ينال ممن يكرههم، يكرههم لا لشيء يستدعي الكره، بل لأنهم لا يرون رأيه في كل شيء وكل من لا يرى رأيه فهو مكروه منه، بل هو حلال الدم، حلال الكرامة حلال الاستباحة: الاستباحة بالسيف أو الاستباحة بالقلم! . .

وبهذا الاستحلال، بفتاوى ابن تيمية سفكت دماء المسلمين في كسروان بلبنان، وكادت تسفك دماء المسلمين في بعلبك والهرمل، ودماء المسلمين في جبل عامل لولا أنهم لم يؤخذوا على حين غرة. . .

وبهذا الاستحلال استبيحت سمعة نصير الدين الطوسي!..

فما هي الحقيقة فيما رواه ابن تيمية عن نصير الدين الطوسي؟. وسنرى بعد ذلك الحقيقة فيما رواه عن النزاريين.

١ ــ هل صحيح أن نصير الدين الطوسي كان أهم رجال الاسماعيلية الملاحدة، وأنه وزيرهم؟.

٢ ــ هل صحيح أنه هو الذي أصدر الأمر بقتل الخليفة؟

إن الأمرين غير صحيحين وهما افتراء في افتراء، وإليك الحقيقة:

كانت ولادة نصير الدين في طوس وفيها درس دراسته الأولى على أبيه وخاله وعلى كمال الدين محمد المعروف بالحاسب، وبعد وفاة والده كان لا بد له من الاستزادة في الدرس، وكانت نيسابور في ذلك الوقت مجمع العلماء وملتقى الطلاب فذهب إليها وحضر حلقة درس كل من سراج الدين القمري وقطب الدين السرخسي وفريد الدين الداماد وأبي السعادات الأصفهاني وآخرين غيرهم. كما لقي فيها فريد الدين العطار.

وفي نيسابور قضى فترة ظهر فيها نبوغه وتفوّقه وصار من المبرزين.

وخلال وجوده في نيسابور زحف المغول زحفهم الأول بقيادة جنگيز حاملين الدمار والموت فاجتاحوا فيما اجتاحوا بلاد خراسان وانهزم أمامهم السلطان محمد خوارزم شاه وانهارت بعده كل مقاومة وتساقطت المدن واحدة بعد الأخرى، وساد القتل والخراب والحريق، وفر الناس هائمين على وجوههم: بعض إلى الفلوات، وبعض إلى المدن البعيدة وإلى بعض القلاع الحصينة. ومن لم يستطع شيئاً من ذلك انطلق لا يدري أية ساعة يأتيه الموت.

والقوة الوحيدة التي حيل بينها وبين المغول هي قلاع النزاريين ــ كما تقدم ــ وهي التي لجأ إليها نصير الدين فيمن لجأ.

وهنا تختلف أقوال المؤرخين في كيفية هذا اللجوء. ففيهم من يرى أن

المحتشم ناصر الدين عبد الرحيم بن أبي منصور متولي قهستان، قد ولي السلطة على قلاع النزاريين في خراسان من قبل علاء الدين محمد زعيم النزاريين آنذاك. وكان ناصر الدين هذا من أفاضل زمانه وأسخياء عهده، وكان يعنى بالعلماء والفضلاء، وكانت شهرة نصير الدين قد وصلت إليه وعرف مكانته في العلم والفلسفة والفكر، وكان من قبل راغباً في لقياه فأرسل يدعوه إلى قهستان، وصادفت الدعوة هوى في نفس المدعو الشريد ورأى أنه وجد المأمن الذي يحميه فقبل الدعوة وسافر إلى قهستان.

وبلغ علاء الدين محمد زعيم النزاريين نزول الطوسي على واليه ناصر الدين. فطلبه منه فلم يكن مناص للطوسي من إجابة الدعوة، فمضى ناصر الدين مصطحباً الطوسي إلى زعيمه علاء الدين في قلعة (ميمون دز).

ثم انتهت حياة علاء الدين قتلاً بيد أحد حجّابه فتولى أمر النزاريين بعده ابنه الأكبر ركن الدين خورشاه. وظل الطوسي مع ركن الدين في قلعة ألموت حتى استسلام ركن الدين للمغول في حملتهم الثانية بقيادة هولاكو.

هذا بعض ما يقال عن اتصال نصير الدين الطوسي بالنزاريين، ولكن هناك مؤرخين يخالفون هذا الرأي ويرون أن الطوسي ذهب إلى النزاريين مرغماً وأقام عندهم مكرهاً.

فقد جاء في (درة الأخبار) أن أوامر قد صدرت إلى فدائيي النزاريين باختطاف الطوسي وحمله إلى قلعة (ألموت) وأن الفدائيين ترصّدوه في أطراف بساتين نيسابور وطلبوا إليه مرافقتهم إلى ألموت وأنه امتنع فهددوه بالقتل وأجبروه على مرافقتهم، وأنه كان يعيش هناك سنواته شبه أسير أو سجين.

وكذلك فإن (سرجان ملكم) في تاريخه قد أيد إرغامه على الذهاب إلى (ألموت) وإن كان قد ذكر هذا الإرغام برواية تختلف عن رواية درة الأخبار غير أن (وصاف الحضرة) قد جاء بأمر وسط بين الأمرين. أي أن الطوسي قد ذهب مختاراً إلى ناصر الدين، وخلال مقامه عنده حدث ما عكر صفو ودادهما، فنقم عليه ناصر

الدين واعتبره سجيناً لديه، ثم أرغمه على مصاحبته إلى (ميمون دز) حيث عاش سجيناً لا يبرح مكانه.

على أنه مهما يكن من أمر، فسواء صح الافتراض الأول، وهو أنه ذهب إلى النزاريين مختاراً وأنهم لم يؤذوه ولم يعتبروه أسيراً سجيناً. أو صح أحد الأمرين الآخرين، وهو أنهم هم الذين اختطفوه وحجزوه لديهم، أو أنه ذهب مختاراً ثم فسد ما بينه وبينهم فضيقوا عليه وحبسوه. سواء صح هذا أو ذاك أو ذلك فليس في واحد منها إلا ما يدحض مزاعم ابن تيمية من أنه «أهم رجالات الإسماعيلية الملاحدة وأنه وزيرهم».

فإذا صح الافتراض الأول فهو لا يدل إلا على أن نصير الدين الطوسي كان مجرد لاجىء مع غيره من اللاجئين الفارّين بدمائهم إلى مكان يحميهم من القتل العام، فهو ليس من رجالات الإسماعيليين أصلاً، فضلاً عن أن يكون من أهم أولئك الرجالات، وموقع اللاجىء في ملجئه موقع الضعيف المقهور الذي يحس الذل والهوان في كل ركن يأوي إليه وكل خطوة يخطوها.

ولا يكتفي ابن تيمية بوصف الطوسي بما وصفه به، بل يزيد على ذلك بأنه كان وزيرهم!..

اللاجىء المقهور المستكين الذي لا يطمح بأكثر من الحمى الأمين يتحول عند ابن تيمية إلى وزير! أما إذا لم يصح الافتراض الأول فالطوسي كان أسيراً سجيناً في ألموت قاعدة (الإسماعيلية الملاحدة).

على أنه ما لنا ولكل هذه الافتراضات ما دمنا أمام نص صريح واضح لا لبس فيه ولا غموض، نص خطته أنامل نصير الدين الطوسي نفسه، فأرانا حقيقة حاله وما كان عليه. يقول نصير الدين الطوسي في آخر كتابه (الإشارات) الذي ألفه خلال إقامته في قلاع النزاريين ما نصه:

«رقمت أكثرها في حال صعب لا يمكن أصعب منه حال، ورسمت أغلبها في مدة كدورة بال لا يوجد أكدر منه بال، بل في أزمنة يكون كل جزء منها ظرفاً

لغصة وعذاب أليم وحسرة وندم عظيم وأمكنة توقد كل آن فيها زبانية نار جحيم ويصب من فوقها حميم. ما مضى وقت ليست عيني فيه مقطراً ولا بالي مكدراً ولم يجيء حين لم يزد ألمي ولم يضاعف همي وغمّي. نعم ما قال الشاعر بالفارسية (وهنا يستشهد ببيت شعر فارسي) ثم يتم القول:

«وما لي في امتداد حياتي زمان ليس مملوءاً بالحوادث المستلزمة للندامة والحسرة الأبدية، وكان استمرار عيشي أمير جيوشه غموم وعساكره هموم. اللهم نجّني من تزاحم أفواج البلاء، وتراكم أمواج العناء بحق رسولك المجتبى ووصيه المرتضى ﷺ، وفرّج عني ما أنا فيه، بلا إله إلا أنت أرحم الراحمين». (انتهى).

إنه في حال صعب لا يكون أصعب منه.

وإنه في كدورة بال لا يوجد أكدر منه.

وإنه في غصّة وعذاب أليم، توقد فيها زبانية نار جحيم، ويصب من فوقها حميم.

لقد بلغ إلى الحد الذي يبكي فيه كل يوم، يبكي وهو الرجل الصلد الصلب إنَّ أيامه غموم وهموم.

وأخيراً يسأل الله أن ينجيه مما هو فيه...

هذه هي حياة الرجل بين النزاريين.

هذا واقعه الذي يعيشه في ألموت لاجئاً أو أسيراً سجيناً، مقهوراً محزوناً!..

هذا هو الرجل عند نفسه، وعند الحقيقة المعاشة!.

أما عند ابن تيمية الذي يرى ببصيرته المغشاة بعصبيته الذميمة فهو هناك أهم الرجال والوزير الخطير.

وينقله ابن تيمية من موقع أهم الرجال ومنصب الوزارة في ألموت إلى الآمر

الناهي المسيطر في بغداد! . . إنه هو الذي أصدر الأمر بقتل الخليفة! . .

هولاكو قائد الجيوش الجرَّارة، الحاكم المطلق، قاهر الدول ومذل الملوك، يتخلى فجأة عن سلطاته ليجعلها في يد رجل غريب أسره بالأمس فيمن أسر من الرجال! .

هذا هو منطق ابن تيمية! . إن الذي يأمر وينهى، والذي يصدر أوامر القتل، وقتل من؟ . قتل الخليفة . . هو نصير الدين الطوسي لا هولاكو.

ولم يشرح لنا ابن تيمية سبب زهد هولاكو بالسلطة بعد انتصاره الحاسم، ولا علّة اعتكافه وتنازله عن الحكم لرجل غريب مثل الطوسي! . .

إن ابن تيمية لا يبالي أن يدافع عن الوثني الطاغية السفاك السفاح ويبرّئه من الأمر بقتل الخليفة ويلصق ذلك بالمسلمين، إنه لا يبالي بذلك بعد أن غطّت العصبية العمياء على بصيرته! .

وننقل لابن تيمية نصوص المؤرخين الذين ذكروا مقتل الخليفة، ننقلها وهو وراء القرون الخوالي، ننقلها له لأنه لا يزال يعيش فيما سطرته أنامله من أضاليل.

إن صاحب كتاب (الحوادث الجامعة) الأقرب عهداً بعصر هولاكو، بل المعاصر له، يقول: إن هولاكو أمر بقتله فقتل يوم الأربعاء رابع عشر من صفر ولم يهرق دمه بل جعل في غرارة ورفس حتى مات[(١)] ويقول أبو الفداء[(٢)] إنهم أي المغول قتلوه (ولم يقع الاطّلاع على كيفية قتله، فقيل خنق، وقيل وضع في عدل ورفسوه حتى مات، وقيل غرق في دجلة والله أعلم بحقيقة ذلك).

وقد ذكر المؤرخ الأرمني (قيراقوز) وهو معاصر (ت ٦٧١ هـ ـ ١٢٧٢ م) أن هولاكو قتل الخليفة بيده[(٣)] وكان في قوات هولاكو التي اشتركت في فتح بغداد

---

(١) الصفحة ٣٢٧.

(٢) الصفحة ١٩٤، ج ٣. وأبو الفداء عندما يذكر وفاة نصير الدين الطوسي في أحداث سنة ٦٧٢ ينصفه ويذكره بكل إجلال، ويصفه بأحسن الصفات.

(٣) العراق في عهد الملوك الإيلخانيين للدكتور جعفر خصباك.

كتيبة من الجورجيين وقد ورد طبقاً للتاريخ الجورجي الرسمي أن أحد قوّاد هولاكو المسمى (ايلكانوبان) قتل الخليفة بالسيف[١].

أما رشيد الدين فضل الله الهمذاني فقد ذكر قتل الخليفة بدون الإشارة إلى كيفية قتله. ويذكر السائح البندقي ماركو بولو الذي مرّ ببغداد بعد انقضاء الدولة الإيلخانية بقليل، قصة كانت ذائعة في عهده، خلاصتها أن هولاكو بعد أن قبض على الخليفة اكتشف بغرابة شديدة أن للخليفة برجاً مليئاً بالذهب، فاستدعاه بين يديه وأنّبه لجشعه وبخله اللذين منعاه من استخدام كنوزه في تكوين جيش يدافع به عن عاصمته التي كانت مهددة منذ مدة طويلة، ثم أمر بحبسه في ذلك البرج بدون طعام حيث مات هناك بين كنوزه[٢].

وكذلك فإن عبد الله بن فضل الله الشيرازي ذكر اختلاف الروايات في كيفية قتل الخليفة، وإلى أن أحدها ذكر أن الخليفة منع عنه الطعام وعندما طلب شيئاً من الموكلين به من الحراس وصل الخبر إلى هولاكو فأمر أن يقدم إليه طبق مليء بالذهب، فقال الخليفة وكيف يمكنني أكل الذهب، فصدر الأمر عن طريق المترجم أن يقال له: إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل، فلماذا لم تفرّقه على عسكرك وأعوانك لتفدي به نفسك والعدد الكبير من معاونيك فتحفظ بذلك ملكك. فلم يحر الخليفة جواباً[٣].

والحقيقة أن هاتين الروايتين: رواية ماركو بولو ورواية الشيرازي تعودان في الأصل إلى حقيقة واقعة، هي أن هولاكو بعد أن دخل بغداد أحضر الخليفة وطلب إليه إحضار كنوزه، فأحضر إليه بعض الأموال والجواهر، فرفضها هولاكو وقال له: اذكر ما تملكه من الدفائن، ما هي وأين توجد، فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء من الذهب في ساحة القصر، فحفروا الأرض حتى وجدوه، وكان مليئاً

---

(١) م. ن.
(٢) م. ن.
(٣) م. ن.

بالذهب الأحمر، وكله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال[١].

ومع كل هذه النصوص فإن الذي أمر بقتل الخليفة عند ابن تيمية هو نصير الدين الطوسي[٢].

نهاية النزاريين وقلاعهم

قبل أن يعبر هولاكو نهر جيحون متوجّهاً إلى البلاد الإسلامية سبقته مقدمة لجيوشه مهدت له الطريق وعملت أول ما عملت على حصار قلاع النزاريين. ففي شهر جمادى الآخرة سنة ٦٥٠ هـ تقدم «كيتبوقا» بهذه المقدمة تاركاً بلاط منكو قاآن. وفي أوائل شهر المحرم سنة ٦٥١ عبر نهر جيحون فهاجم أول ما هاجم ولاية قهستان فسيطر على بعض أجزائها، ثم تقدم لحصار قلعة (كردكوه) في ربيع الأول من السنة نفسها، واكتفى بأن أحكم حصارها بخندق حفره حولها وأحاط الخندق بسور كما أحاط جيشه بخندق آخر وسور آخر، ثم ترك عندها قطعة من الجيش ومضى إلى قلعة (مهرين) وحاصرها، وتقدم إلى مدينة (شاه) فكانت فيها أولى المذابح ورجع عنها في الوقت الذي كان قائد آخر من قواده يتغلغل في البلاد محدثاً مذبحة استمرت ثمانية عشر يوماً.

وفي التاسع من شوال سنة ٦٥١ هـ كان المحاصرون في قلعة گردكوه يقومون بغارة ليلية على محاصريهم المغول مستهدفة قائدهم (بوري) فتنجح في القضاء عليه وعلى مائة جندي من جنوده. فرأى كيتوبوقا في ذلك تحدياً ضخماً قابله بهجوم ساحق على ولاية قهستان استولى فيه على (تون) و (ترشيز) وأباح

---

(١) جامع التواريخ للهمذاني.

(٢) حتى الذهبي وهو في العصبية مع ابن تيمية فرسا رهان، حتى الذهبي لم يستطع أن يدعي هذه الدعوى على الطوسي، فقال في كتابه: (سير أعلام النبلاء) عن قتل الخليفة في الصفحة ١٨١ من الجزء ٢٣:
فضرب (هولاكو) أعناق الكل ورفس المستعصم حتى تلف. وقال في الصفحة ١٨٢:
ثم جرت له (هولاكو) محاورة معه (المستعصم) وأمر به وبابنه أبي بكر فرفسا حتى ماتا. وحسبنا أن يكون المكذب لابن تيمية هو الذهبي.

القتل والعسف والأسر. ولم تلبث قلعة (مهرين) أن سقطت ثم تبعتها قلعة (كمالي). ثم أرسل هولاكو رسالة إلى ناصر الدين المحتشم في قلعة (سرتخت). ويبدو جلياً من النص الذي أورده الهمذاني في جامع التواريخ أن السلاطين والملوك والأمراء والصدور والأعيان المسلمين الذين أشرنا فيما تقدم إلى تلبيتهم نداء هولاكو للانخراط في صفوفه، قد ساروا في ركابه في زحفه هذا وأنهم أخذوا في أداء مهماتهم في معاونة المغول منفذين أوامر هولاكو التنفيذ الكامل. فإن الذي حمل رسالة هولاكو إلى ناصر الدين المحتشم هو الملك شمس الدين كُرت، وسنرى فيما يلي أسماء أخرى.

كانت الرسالة تدعو المحتشم للدخول في الطاعة، وكان المحتشم قد شاخ وضعف ورأى تساقط القلاع النزارية من قبل بيد المغول فآثر إجابة الطلب ومضى مع الملك شمس الدين حاملاً معه الهدايا واتحف معلناً بذلك استسلامه الشخصي لهولاكو في حين أبقى على القلعة ولم يسلمها، فاعترض هولاكو على ذلك، ولكن ناصر الدين رد قائلاً: إن لهم ملكاً يدعى خورشاه يأتمرون بأوامره.

وقد تابع هولاكو خط زحفه حتى بلغ حدود (زاوة) و (خواف) ومن هناك وجّه قواده لاكتساح الولايات النزارية فلقوا مقاومة عند حدود قهستان تغلّبوا عليها خلال أسبوع وانتهت بأسر المقاومين. ثم تقدموا إلى (تون) ونصبوا عليها المجانيق، ثم استولوا عليها وقتلوا جميع سكانها مستثنين أراب الحرف، ثم عادوا إلى معسكر هولاكو يعلنون ظفرهم.

بعد هذه التمهيدات للاحتلال اتجه هولاكو بفيالقه نحو مدينة (طوس)، وتجاوزها موغلاً في السير باتجاه القلاع النزارية، وفي الطريق أرسل إلى ركن الدين خورشاه كبير النزاريين وفداً مؤلفاً من مغولي هو (بكتيحورجي) ومسلمين هما ظهير الدين سلار البيتكجي وشاه أمين. فأدى الوفد الرسالة وعاد ملتقياً بهولاكو وقد وصل إلى نواحي القلاع وشرع بهجماته عليها.

وبالرغم من أن النصوص التاريخية لا تعرب عن مضمون الرسالة فلا شك أنها كانت دعوة إلى التسليم وأن خورشاه لم يجب إلى ذلك بدليل أن هولاكو حين

تقدم إلى خراقان وبسطام في العاشر من شعبان سنة ٦٥٤ هـ أرسل وفداً مغولياً آخر إلى خورشاه يحمل رسالة أخرى، وأمر رجلي الوفد بتخويف خورشاه وتهديده ووعيده.

واستشار ركن الدين خورشاه من عنده من الرجال فأشاروا بعدم جدوى المقاومة ومالوا إلى التسليم. فرأى أن يرسل أخاه الأصغر شاهنشاه وأصيل الدين الزوزني على رأس جماعة من أعيان مملكته إلى هولاكو دليلاً على التسليم، فأكرمهم هولاكو ولكنه عاد فأرسل وفداً فيه صدر الدين وظهير الدين[1] وتوكّل بهادر وبخشي ومازوق برسالة إلى خورشاه تطلب إليه أن يخرب القلاع، إذا كان حقاً قد قبل التسليم ويأتي بنفسه إلى هولاكو.

فهدم خورشاه أقساماً من بعض القلاع كقلعة (ميمون دز) و (لمبسر) و (ألموت) نفسها، فحطم الأبراج ورمى الأبواب وأخذ يعمل في تخريب أسوارها وحصونها.

أما بشأن قدومه بنفسه إلى هولاكو فطلب إمهاله سنة ليغادر القلعة ويقبل إلى هولاكو، فلم يرق ذلك لهولاكو فتوجه من بسطام متقدماً نحو القلاع وأمر أن تجتمع الجيوش كلها وسار في قلبها، ثم أرسل رسلاً إلى خورشاه يقولون: «إذا أتى بنفسه لاستقبالنا فإننا سنعفو عنه رغم جرائره العديدة».

وظل هولاكو على تقدمه حتى تجاوز مدينة (فيروزكوه) وهناك التقى برسله عائدين بتعهد بتخريب القلاع وراجين أن يرضى ببقاء خورشاه عاماً واحداً في القلاع، على أن يستثنى من التخريب قلعتا ألموت ولمبسر لما فيهما من الذكريات النزارية باعتبارهما قاعدتي الحكم النزاري، وعزز خورشاه تسليمه هذا بأن كتب إلى حكام كردكوه وقهستان بأن يتوجهوا إلى هولاكو.

---

(١) هؤلاء السائرون في ركاب هولاكو المعاونون للمغول في غزو البلاد الإسلامية لم يكونوا يخجلون أن ينسبوا أسماءهم إلى (الدين) فهم ما بين ظهير الدين وصدر الدين.
وابن تيمية لا يرى في مساعدة هؤلاء وغيرهم من أمثالهم للمغول ما يجب أن يؤاخذهم عليه.

ولكن هولاكو ظل مصراً على التسليم العام الكامل وحضور خورشاه بنفسه معلناً هذا التسليم، وظل مستمراً بزحفه فتجاوز ولاية لار ودماوند إلى فِرَان ثم حاصر قلعة شاه دز الواقعة في طريقه فسلمت في يومين. ثم عاد يرسل الرسل إلى خورشاه ليحرضوه على التسليم. فخطا خورشاه في تسليمه هذه المرة خطوة أوسع حيث أرسل ابنه مع ٢٠٠ من الجنود، ورضي بأن يخرب القلاع جميعها دون استثناء.

فتوقف هولاكو في مدينة عباس آباد الري منتظراً تنفيذ الوعود. وفي السابع عشر من شهر رمضان سنة ٦٥٤ هـ بدأ خورشاه تطبيق ما وعد بتطبيقه فأرسل ابنه الذي كان لا يتجاوز الثامنة من عمره مع جمع من الأعيان والكبراء، فأعاد هولاكو الصبي لصغر سنه، ورضي بأن يرسل خورشاه أخاه الآخر إن كان لا يستطيع الحضور. فامتثل ركن الدين لهذا الأمر وأرسل أخاه شروان شاه وأصيل الدين الزوزني مع ثلاثمائة من كبار رجال الدولة فالتقوا بهولاكو في ضواحي الري.

ثم عاد شروان شاه إلى أخيه مصرّاً على تخريب القلاع وأمر شروان بأن تتجمع جيوشه المنتشرة وتلتقي في معسكر واحد، فلم يشعر النزاريون إلا وقد أحيط بهم وأصبحوا مطوقين من كل الأطراف. فأرسل خورشاه قائلاً: ما دمنا قد خضعنا ونحن نشتغل بتخريب القلاع فعلام أقبلتم علينا؟

أحاطت الجيوش بقلعة ميمون دز، ولكن عجز المغول عنها لمناعتها، فهم هولاكو بالرحيل لمداهمة الشتاء له، ولكن مستشاريه وبينهم سيف الدين البيتكجي(١) أصروا على البقاء والاستمرار في حصار القلعة، فأرسل رسالة جديدة إلى خورشاه تجمع بين الترغيب والترهيب فاستشار خورشاه رجال دولته، ثم أرسل وفداً من كبار رجاله على اختلاف مناصبهم لمقابلة هولاكو ودراسة الأوضاع والعودة بالرأي الأخير، فاستقبل المغول الوفد ثم أنزلوهم في أماكن متفرقة كل رجل بمفرده، ثم استجوبوهم واحداً واحداً. ولا شك أن هذا التصرف كان يراد به

---

(١) هذا منتم آخر للدين يسير في ركاب هولاكو لغزو البلاد الإسلامية ويخلص في النصح للمغول، نهديه إلى ابن تيمية.

شيئان: أولاً استطلاع حقيقة الحال في القلعة وبقية القلاع، ثم التهويل على الموفدين، لذلك عاد رجال الوفد إلى خورشاه مقتنعين بوجوب التسليم. وبعد أيام نزل خورشاه من القلعة ومعه نصير الدين الطوسي، وأبناء رئيس الدولة وهم أطباء، فكان نزوله توديعاً نهائياً للأرض التي ظلت مقراً لأسرته وحصناً منيعاً لها طيلة ما يقارب قرنين.

وكان استقبال هولاكو لخورشاه استقبالاً حسناً، إذ كان لا يزال محتاجاً إليه، ثم أوفد معه من يتسلم القلاع والحصون في قهستان وروودبار وقومس، وكانت مائة قلعة، فاستسلمت جميعها فيما عدا قلعتي كردكوه ولمبسر.

وكانت القلاع تضم الكثير من الخزائن والذخائر والنفائس والآلات مما كان النزاريون يجمعونه ويحتفظون به طيلة قرنين، فتسلم المغول ذلك كله ثم خربوا القلاع تخريباً تاماً.

وفي لمبسر امتنعت الأسرة الحاكمة ـ إذا صح التعبير ـ من أقرباء ركن الدين خورشاه وفريق من أتباعه ورفضوا التسليم وظلوا في المقاومة طيلة سنة، ولم يزعزعهم سوى حلول وباء فيهم أهلك الكثيرين منهم ما حمل الباقين على الاذعان. وهكذا استسلمت لمبسر.

أما گردكوه فقد رفضت التسليم رفضاً قاطعاً وظل النزاريون معتصمين فيها يقاومون مستبسلين عشرين سنة فيما يبدو.

ولما تم الأمر لهولاكو في تلك القلاع تقدم إلى القلعة الكبرى (ألموت) مستصحباً معه ركن الدين خورشاه، فلما بلغها هولاكو أوفد ركن الدين إلى القلعة ليحمل من فيها على التسليم، ولكن قائد القلعة رفض ذلك وصمم على المقاومة وظل يرد هجمات المغول بضعة أيام. فرأى هولاكو أن يؤمن من فيها على حياتهم ويدعوهم من جديد إلى التسليم فنجح هذه المرة ونزل القائد مستسلماً فدخل المغول القلعة وأعملوا فيها النهب والسلب.

ولم يخف هولاكو دهشته من مناعتها وروعة موقعها. وكان فيما قضوا عليه

في القلعة، المكتبة الكبرى التي تعب الاسماعيليون النزاريون في جمع نفائسها. وقد استطاع الصاحب علاء الدين الجويني أن ينقذ بعض ما فيها(١).

وترك هولاكو عند لمبسر من يحاصرها وتقدم في إتجاه قزوين حيث نزل في ٢٧ ذي الحجة سنة ٦٥٤ هـ على بعد سبعة فراسخ منها. ثم أرسل خورشاه إلى بلاط أخيه منكوقاآن، وقبل أن يصل أرسل منكوقاآن من قتله في الطريق بين أبهر وقزوين كما قتل أسرته رجالاً ونساءً وأطفالاً.

هذا ما جرى من المغول على من سماهم ابن تيمية الإسماعيلية الملاحدة، ومع ذلك فإن ابن تيمية يجعلهم أنصار المغول ومساعديهم.

هذا هو منطق ابن تيمية دائماً. . . .

في السهول التي مر فيها المغول

في تتبعي لأحداث المغول والإسماعيليين في أماكن حدوثها، زرت المناطق التي كان ينطلق فيها المغول ومما كتبته في وصف رحلاتي هذا المقال الذي أنشره هنا لارتباطه بالوقائع والأماكن التي نتحدث عنها:

هنا ترن في سمعك أصداء الحرب والعلم والشعر مجتمعة، فتحيرك إلى أيها تصغي وأين تنجذب.

---

(١) شهد علاء الدين الجويني مع هولاكو فتح قلاع النزاريين وعني بوصف ما جرى هناك وصفاً تاريخياً ممتعاً في كتابه الذي ألّفه بالفارسية وسمّاه (جهان كشا) قائلاً: كنت أعرف بأن هناك خزانة كتب ثمينة طبقت شهرتا الآفاق وقلت يحسن انتهاز الفرصة للاطلاع على هذه الخزانة فوافق هولاكو فوراً وزرت الخزانة وانتقيت أنفس ما فيها من المصاحف والكتب وأخرجتها كما «يخرج الحي من الميت» وحملت محتوياتها من آلات الرصد كذات الكرسي وذات الحلق إلى أنواع من الاسطرلابات التامة والمنصفة وذات الشعاع. وأما الكتب المجردة في عقائد الاسماعيلية ودعوتهم فذهبت طعمة للنيران. ثم أشار إلى ما اشتملت عليه الخزانة من الذهب وهي مقادير لا تحصى. هذا ومن النفائس التي ظفر بها علاء الدين الجويني في الخزانة كتاب في تاريخ الجيل والديلم ألف باسم فخر الدولة البويهي واستفاد منه الجويني، ونقل نبذة عنه في تاريخ تلك الأصقاع «الشبيبي في كتاب ابن الفوطي».

وهنا تتطاول أمامك صورة الطاغية السفاك مماشية لصورة العالم الزاهد، مطلتين معاً من أقاصي الماضي البعيد، فيشجيك هذا الماضي ويبهجك في آن.

هنا تتيه بين كل ذلك وتتدافع في ذهنك الأفراح والأتراح فلا ترى لك مخرجاً إلا الانغمار فيها جميعاً تطفو هنا وترسب هناك، وتتأوّه تارة وتبتسم تارة.

يا لها من أرض عجيبة هذه الأرض التي شددت إليها الرحال مطوحاً فيها بنفسي المجهدة لأبصر على الأرض ما روته لي صفحات الكتب من أحداث.

المغول! ويا لهول ما فعل المغول بأوطاننا! أين كان طريقهم ومن أين عبروا إلينا؟. كيف هي المرابع التي استقروا فيها بعد ذلك مسلمين، فكان منهم الدولة الايلخانية التي تصارع فيها الاسلام والوثنية فانتصر الإسلام.

وتلك هي أعجوبة التاريخ، فالوثنيون الذين قادهم أولا جنكيز، ثم حفيده هولاكو للقضاء على الإسلام في مواطنه عادوا مسلمين وقامت منهم الدولة الايلخانية في هذه البقاع التي اجتازها الآن كما قامت لهم دولة أخرى في الهند طبعت الهند بطابعها الذي لا يزال ماثلاً حتى اليوم.

أنا الآن في مدينة قزوين، وصور التاريخ المغولي بكلا وجهيه: الوثني والإسلامي تلتمع في ذهني وتمر تباعاً واحدة وراء أخرى.

كانت أربع صور لأربعة رجال هي الأكثر مثولاً أمامي هنا في مدينة قزوين: صورة (هولاكو) السفاح الغدار وصورة أحد ضحاياه (خورشاه) أمير الاسماعيليين النزاريين. وصورة غازان أول ملك مغولي أسلم فأسلمت الدولة بإسلامه، وصورة أخيه الجايتو محمد خدابنده الذي تابع المسيرة الإسلامية، والصورة الأخرى الماثلة كل المثول هي صورة مدينة (السلطانية) التي شرع في بنائها غازان ثم أنهاها أخوه (خدابنده).

يوم الأحد غرة شهر ذي القعدة سنة ٦٥٤ هـ كان خورشاه ينزل من قلعة (ميمون دز) نزوله الأخير ويودع تلك الأرض التي ظلت ما يقرب من قرنين مستقراً للدولة الإسماعيلية النزارية، منذ نزلها حسن الصباح سنة ٤٧٧ هـ حتى خرج منها

خورشاه سنة ٦٥٤ هـ وكان خروجه منها إيذاناً بأفول نجم حكم الإسماعيليين النزاريين.

نزل خورشاه من القلعة، فمضوا به إلى مضارب هولاكو الذي كان ينزل على بعد سبعة فراسخ من مدينة (قزوين)، ولما وصل إليه أدى التحية التي يؤديها الرعايا للملوك. فقبل الأرض بين يديه.

وكان هولاكو لا يزال محتاجاً إليه فأكرمه ووهبه وخلع عليه، ثم أتم ذلك بأن زوجه بفتاة مغولية، وأقام له حفلة زفاف بهيجة. ثم أمره بملازمته وأرسل حاشيته ومتاعه إلى مدينة قزوين.

أنا الآن على بعد سبعة فراسخ مما كان معسكراً لهولاكو، وإذا كنت جئت إلى هنا لأقرأ الماضي، فليس لهذا الماضي أن يشغلني عن استطلاع الحاضر، لا سيما إذا كان الحاضر مرتبطاً بالماضي.

إنني أعرف أن حمد الله المستوفي، وهو المؤرخ الجغرافي مات في قزوين، وحين طلب إلي صاحبي القزويني أن نقوم بجولة على معالم قزوين الأثرية، سألته هل للمستوفي قبر معروف، فأجاب بالإيجاب، فقلت حسبي من زيارة المعالم الأثرية زيارة قبر هذا العالم الخالد، ودعني من زيارة الدور والقصور، وذهبنا إلى ضريح حمد الله نزوره لعل في هذه الزيارة القصيرة رداً للزيارة الطويلة التي ما زالت تسعدني بها كتبه، ولعل في وقوفي دقائق على قبره اعترافاً بفضل ما أعطاني وقوفي سنين على مؤلفاته.

لقد وفت قزوين لحمد الله فأقامت قبره في وسط حديقة فاخرة تحت قبة خضراء زاهرة.

وخرجنا من قزوين قاصدين سلطانية الجايتو محمد خدا بنده، أو بالأحرى عاصمة الامبراطورية المغولية المسلمة، العاصمة الثانية بعد العاصمة الأولى لتبريز، سائرين على الطريق الذي سارت عليه جحافل المغول المجتاحة، ولكن في الاتجاه المعاكس لاتجاهها، فنحن ننحو الشرق وهي كانت تنحو الغرب.

وإذا كان هذا الطريق هو طريق المغول، فإنه كان أيضاً طريق العلماء والشعراء، فمن هنا مر الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي، ومر ابن عساكر وعبد الله بن خليفة الطائي، كما مر من مر من أمثال هؤلاء علماء وشعراء.

وهكذا كنّا نسير وفي الذهن مرئيات شتى من الأمس الذي انطوى في هذه الأرض بما فيه من صليل السيوف وصرير الأقلام، من جلجلة الوغى وترانيم الشعر، من رهج القتال، وأسمار البحث.

فما أروع ما تبعث في النفس هذه السهول من أسى طوراً ومن هوى طوراً آخر، وما أشجى ما يثير نسيمها هذا الذي يتهاوى على وجناتنا وجباهنا، ما أشجى ما يثير من تصوير الدماء المراقة. وما أحلى ما يهيج من تناجي العقول الخلاقة.

إذا كنت أنا مولعاً بالطبيعة الجميلة، مستغرقاً في مفاتنها المعشوشبة الخضراء على بسيط الأرض حيناً، والمزهرة المورقة على غصون الشجر حيناً آخر، إذا كنت كذلك فإن هنا في هذه السهول المديدة ما بعد قزوين كل ما أبغيه من ذلك، فحقول القمح تتابع إلى ما لا نهاية له، وزهور اللوز والفستق تماشينا إلى كل وجهة.

ولكنني لأول مرة لا أحس لهذا، بتوقد العاطفة وانفتاح الشعور، فأنا الآن متجه من مدينة قزوين إلى مدينة أبهر، في الطريق نفسه الذي شهد فاجعة من فجائع المغول التي حلت على أيديهم بالشعوب حين مروا بها، والتي تزيد على سفك الدماء، تزيد بالغدر.

لقد قبل أمير الاسماعيليين النزاريين الأرض بين يدي هولاكو مستسلماً خاضعاً، وعلى غير عادة هولاكو فيمن كان يظفر بهم متمردين أو مستسلمين، عادة إهانتهم ثم قتلهم، على غير عادته تلك، أكرم خورشاه، وزاد على ذلك بأن جعله صهراً للمغول وأحيا له عرساً من أعراسهم.

فعل ذلك لأنه كان محتاجاً إليه، فالقلاع الإسماعيلية الأخرى التي ناهز عددها المئة، لم يستسلم أكثرها بعد، كما أن هولاكو كان يتطلع إلى حصون

الإسماعيليين في بلاد الشام التي كان مصمّماً على الوصول إليها، فأغرى خورشاه بالإكرام، واستهواه بالانعام، واستصدر منه أوامر التسليم.

ومع أن خورشاه كان سيأمر بالتسليم إن لم يكن طوعاً فكرهاً، مع ذلك فربما كان اطمأن إلى أحمائه المغول الذين سيصير ابنه القادم سبطاً لهم.

وأوهم هولاكو خورشاه بأنه ارتأى إرساله إلى أخيه امبراطور المغول منكوقاآن في العاصمة قراقورم زيادة في تكريمه.

وفي الطريق بين أبهر وقزوين صدرت الأوامر لا بقتل خورشاه وحده، بل بقتل حاشيته وأقربائه وأفراد أسرته من النساء والرجال حتى الأطفال في مهادهم.

هنا في بقعة من بقاع هذا الطريق الذي نجوزه الآن، نجوزه بين اخضلال الحقول وتفتح الزهور، هنا في بقعة ما جرت تلك المذبحة الرهيبة.

وأوغلنا في السير لنصل إلى مدينة أبهر، وإذا كانت الطريق إليها تذكرك بالفواجع وتصور في ذهنك المذابح فإن الوصول إليها يفتح خاطرك على شيء آخر، على شيء يعيدك إلى صفاء النفس وتوهّج القريحة والترنم بالشعر.

لله أولئك العلماء الذي أخلصوا للعلم ونذروا نفوسهم له، فعانوا في سبيل تحصيله ونشره ما عانوا، لقد طافوا في الأرض سعياً وراءه، ومشوا من أقصى مكان إلى أقصى مكان لأخذ حديث من محدث، وتناول رواية من راو.

فهذا علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (٤٩٩ ــ ٥٧١ هــ) (١١٠٥ ــ ١١٧٦ م) ابن دمشق وربيبها، ثم محدثها ومؤرخها يترك دمشق متنقلاً من بلاد إلى بلاد طلباً للعلم ولقاء العلماء فيمضي إلى خراسان عن طريق أذربيجان ماراً بخوي وتبريز ومرند، وسمع من مشائخها ــ كما ينص المؤرخون ــ ثم بزنجان حتى وصل إلى أبهر، وفيها سمع من الشيخ أبي قاسم الحمامي، كما سمع من هبة الله بن أبي الهيجاء شيئاً من الشعر، كما روى الراوون.

ووصلنا إلى أبهر مجتازين بساتينها أولاً، ثم اخترقنا جادة القسم الحديث

منها، ولم يكن في منهجنا البقاء فيها، بل مضينا معجلين على أمل العودة إليها يوماً من الأيام.

هذه أبهر بين أيدينا، ولعل هذا المنزل أو ذاك هو الذي أوى إليه ابن عساكر، ولعله تحت هذا السقف أو بين هاتيك الجدران سمع من أبي قاسم الحمامي، ولعل هذه الحجرة أو تلك هي التي سهر فيها الليل مشدوداً إلى كتبه، منكباً على قراطيسه، ولعل هذه النافذة أو تلك هي التي سرى منها صوت هبة الله بن أبي الهيجاء منشداً إياه الشعر.

من دمشق، ومن بساتين غوطتها المتألقة بأزهار المشمش. من هناك إلى هنا إلى أبهر، إلى بساتينها المشعة بأزهار اللوز والفستق، كم من أطياف تموج في الضمير وتمور في الخاطر. هذه الأطياف التي حركها تذكر ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق الكبير، وهو يحط رحله هنا على باب من هذه الأبواب.

ومضت بنا السيارة لا تلوي على شيء، وهاجني الحنين إلى الماضي البعيد أولاً، إلى تلك العهود، عهود علمائنا وهم يجوبون وطنهم الكبير، فينزلون أينما نزلوا على دور يرون أنها دورهم، وعلى أهل يرون أنهم أهلهم.

ثم الحنين إلى دمشق وإلى السكك التي طالما جلت فيها طفلاً ويافعاً، والتي تذكرني بها الساعة سكك مدينة أبهر، وكم وددت لو جلت فيها ومشيت حيث مشى ابن عساكر، في الدروب الضيقة والأزقة المتكاثفة، فأنبعث من ذكراه جلداً على الصعاب قوياً على الشدائد.

وعنّ لي الشعر في تلك الأويقات فلم أجد أفضل من أن أردد شعر الشاعر العربي عبد الله بن خليفة الطائي من شعراء أوائل القرن الأول الهجري حيث مرّ هو الآخر بأبهر فكان من ذكره لها أن قال:

كأني لم أركب جواداً لغارة
ولم أترك القرن الكمي مقطرا
ولم أعترض بالسيف خيلاً مغيرة
إذا النكس مشى القهقرى ثم جرجرا

ولـــم أستحـــث الـــركـــب فـــي أثـــر عصبـــة
ميممـــــة عليـــــا (سجـــاس) و (أبهـــــرا)

وشعر الشاعر الآخر الذي قال ذاكراً (قزوين) و (أبهر) معاً:

نـــدامـــاي مـــن قـــزويـــن طـــوعـــاً لأمـــركـــم
فـــإنـــي فيكـــم قـــد عصيـــت نهـــاتـــي
فـــأحيـــوا أخـــاكـــم مـــن ثـــراكـــم بشـــربـــة
تنـــدي عظـــامـــي أو تبـــل لهـــاتـــي
أســـاقيتـــي مـــن صفـــو (أبهـــر) هـــاكـــه
وإن يـــك رفـــق مـــن هنـــاك فهـــاتـــي

والفرق بيني وبين الشاعرين أني لست من نظراء الشاعر الأول في الركوب للغارات وفي ترك الكماة مقطرين، وأن لا طاقة لي لاعتراض الخيل المغيرة، اعتراضها بالسيف.

وإنما كنت مثله أستحث الركب الميمم (عليا ابهر).

وأنا أقرب إلى الشاعر الثاني مني إلى الشاعر الأول. الشاعر الثاني الذي لم يهدد ولم يتوعد، بل استكان إلى نداماه وإلى معاطاتهم الشراب.

والفرق بيني وبينه أن نداماي في قزوين كانوا سقاة لا ساقيات، وأننا تعاطينا الماء القراح تارة والشاي الأحمر تارة. أما هو ونداماه فالله وحده يعلم بماذا كانت تطفح كؤوسهم. (انتهى).

بين ابن تيمية والذهبي

رأينا فيما تقدم كيف أن الذهبي كذّب ابن تيمية فيما ادّعاه على نصير الدين الطوسي. وهنا أيضاً سنرى أن الذهبي يكذب ابن تيمية فيما ادعاه على النزاريين. يقول الذهبي في الصفحة ١٨٠ من الجزء الثالث والعشرين من كتاب (سير أعلام

النبلاء): «وفيها سار الطاغية هولاكو بن تومي بن جنگيز خان في مائة ألف وافتتح حصن ألموت وأباد الإسماعيلية..».

بهذه الجملة الموجزة هدم الذهبي كل ما ادعاه ابن تيمية، وأبرزه مفترياً على الناس وأن خير ما نعلق به على تكذيب الذهبي لابن تيمية هو أن نردد: وشهد شاهد من أهله، فالذهبي يحمل نفس الذهنية التي يحملها ابن تيمية، ويتصف بنفس صفاته العصبية، ومع ذلك فقد ندّت عن قلمه هذه الشهادة الحاسمة، ذلك أن الحقيقة مهما حاول المحاولون طمسها، لا بد من أن تنكشف بعض الكشف من حيث لا يحس الطامسون...

ولتعرف مدى عصبية هؤلاء القوم فإن الذهبي الذي لا يترك كلمة في معاجم الشتائم إلا وينهال بها على من يتهمهم زوراً، إن الذهبي حين يذكر خيانة الملك العادل أبي بكر أخي صلاح الدين الأيوبي وتسليمه مدينة يافا للصليبيين وكذلك مغلّ اللد والرملة ومصالحته لهم وأن الصليبيين قويت نفوسهم بذلك حين يذكر هذا في كتابه (سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ١١٨) يكتفي بأن يعلق على هذه الخيانة بقوله: فالأمر لله، بعد أن كان قد أغدق عليه من قبل كل وصف جميل.

وكذلك فإنه حين يذكر خيانة الملك الأيوبي الآخر مظفر الدين يونس وانضمامه إلى الصليبيين ومشاركته لهم في قتالهم للمسلمين في وقعة قلنسوة من أعمال نابلس التي قتل فيها ألف مسلم، إن الذهبي هذا يقتصر في تأنيب هذا الأيوبي الخائن على قوله عنه: سامحه الله تعالى (ص ١٨٥، ج ٢٣). وإذا كان قال هذه الكلمة، فإنه لم يقل حتى مثلها عن الخائن الأيوبي الآخر إسماعيل الذي ذكر هو أنه اعتضد على أقربائه بالفرنج، فسلم القدس للصليبيين فضلاً عن طبرية وعسقلان حتى إن الرهبان وضعوا قناني الخمر على الصخرة، وأُبطل الأذان بالحرم.

إن هذا كله لم يثر الذهبي ولم يحمله على أن يسيء بكلمة إلى هذا الخائن، وهو الذي ملأ كتابه هذا وكل كتبه بشتم الكرام الشرفاء (انظر ص ١٨٨، ج ٢٣، من كتاب سير أعلام النبلاء).

ومن طرائف الذهبي الباعث عليها عصبيته أنه يقول عن الدواتدار[1] مجاهد الدين أيبك واصفاً له: «أحد الأبطال المذكورين والشجعان الموصوفين الذي كان يقول: لو مكنني أمير المؤمنين المستعصم لقهرت التتار ولشغلت هولاكو بنفسه» (سير أعلام النبلاء، ص ٣٧١، ج ٢٣).

ونقول للذهبي: لقد مكّنه المستعصم مما يريد فماذا فعل؟ نترك لرشيد الدين فضل الله الهمذاني صاحب كتاب (جامع التواريخ) ومؤرّخ تلك الفترة أن يجيب على السؤال، قال: «وقبل ذلك كان مجاهد الدين أيبك الدواتدار الذي كان قائداً لجيش الخليفة ومعه ابن كر قد أقاما معسكرهما بين بعقوبة وباجسرى» إلى أن يقول الهمذاني: «وفي فجر يوم الخميس من نهار عاشوراء، دهم بايجو وبوقا تيمور الدواتدار وابن كر وانتصرا عليهما فهزم جيش بغداد وقتل فتح الدين بن كر وقراسنقر. أما الدواتدار فقد فر هارباً».

هذا هو الذي يصفه الذهبي بأنه أحد الأبطال المذكورين والشجعان الموصوفين، وهذا ما فعله عندما مكّنه المستعصم من المغول كما طلب: أنه فر هارباً!.

ثم يتحدث عنه الهمذاني مرة أخرى وهو يصف معركة الدفاع عن بغداد: «ولما حمي وطيس الحرب في بغداد وضاق الحال على الأهالي، أراد الدواتدار أن يركب سفينة وأن يهرب إلى ناحية سيب ولكنه بعد أن اجتاز قرية العقاب أطلق جند بوقاتيمور حجارة المنجنيق والسهام وقوارير النفط واستولوا على ثلاثة سفن

---

(١) اشتهر في أواخر الدولة العباسية دواتداران. أولهما: الدواتدار الكبير، وهو علاء الدين الطبرسي الظاهري، كان داوتدار الخليفة الظاهر حظياً عنده، فلما استخلف المستنصر بعد الظاهر ثابر على تقديمه وتقريبه. وقد مات علاء الدين الدواتدار الكبير عن ولدين أشهرهما: مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير وهو المقصود بهذا الكلام.
والدواتدار تختصر على الأغلب بـ (الدوادار) أو بـــ (الديودار) والأصل في معناها: حامل الدواة، أي دواة الخليفة.
والدواتداران الذكوران من المماليك الأتراك.

وأهلكوا من فيها، وعاد الدواتدار منهزماً»[1].

ثم يتحدث عن تطور الأمور قائلاً: «وأرسل هولاكو فخر الدين الدامغاني وابن الجوزي وابن درنوش إلى المدينة ليخرجوا منها سليمان شاه والدواتدار. وفي يوم الخميس خرج الرجلان، فأعادهما مرة ثانية ليجرخا أتباعهما حتى ينضموا إلى قوات مصر والشام (أي القوات التي أعدها هولاكو لغزو الشام ومصر) وعزم جند بغداد على الخروج معهم، وكانوا خلقاً لا يحصى مؤملين أن يجدوا الخلاص فقسموهم ألوفاً ومئات وعشرات وقتلوهم جميعاً».

وكان فيمن قتل الدواتدار. هذه هي البطولة بنظر الذهبي: يفر الدواتدار وهو قائد الجيش من أول صدام مع العدو ثم لما يصل العدو إلى أطراف بغداد ويقضي شرف الرجال أن يموتوا دفاعاً عنها، يركب السفينة ويهرب، وعندما يطلب إليه هولاكو أن يُخرج أتباعه لينضموا إلى جيوشه التي ستغزو بلاد المسلمين يسرع إلى تلبية طلبه، ويغرر بالخلق الذين لا يحصى عددهم فيخرجون معه فيقتلهم المغول عن آخرهم ويقتلونه معهم ويموت هذه الميتة الذليلة، بدلاً من أن يموت في ساحة الوغى على رأس الجيش الذي عهد إليه بقيادته، وبدل أن يموت دفاعاً عن بغداد.

---

(١) يقول الدكتور جعفر خصباك في كتابه (العراق في عهد الملوك الايلخانيين) ص ١٩ ــ ٢٠، ط ١٩٦٨ عن الدواتدار هذا ما يلي: كان الخليفة محاطاً بعدد غير قليل من المقربين والمستشارين كان أهمهم على ما يبدو كتلة المماليك الشراكسة والأتراك وكانوا يسيطرون على الجيش العراقي ويتمتعون بإقطاعات وموارد مالية ضخمة وقد ختن عدد من أولادهم مع الخلفاء أنفسهم. وكان رئيسهم قبل سقوط بغداد هو أبو الميامن مجاهد الدين إيبك المستنصري الدواتدار الصغير وكان عدواً للوزير مؤيد الدين ابن العلقمي وقد وقف الخليفة إلى جانبه عندما اتهمه الوزير بالعمل على نقل الخلافة إلى الابن الأكبر للخليفة وكان يهون أمر هولاكو عند المستعصم ويمنع إرسال الهدايا الكبيرة التي رأى الوزير إرسالها لصرف الفاتح المغولي عن العراق، ويذكر رشيد الدين فضل الله أنه كان يلتزم الغوغاء والسفلة الذين كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب والاعتداء أيام فيضان عام ٦٥٤ هـ. وقد كان مجاهد الدين هذا هو قائد جيوش الخليفة وقد خرج للقاء جيوش المغول فلم يحسن التصرف ولم يبد أي كفاية فتحطم الجيش على يديه في الجانب الغربي بالقرب من بغداد.

ومـع ذلـك فهـو عنـد الـذهبـي (أحـد الأبطـال المـذكـوريـن والشجعـان الموصوفين).

أما لماذا كان كذلك عند الذهبي فلأنه قاد المذابح المذهبية في بغداد وأوقع بمحلة الكرخ الشيعية وقتل رجاله أهلها وسبوا نساءها ونهبوا دورها وارتكبوا العظائم سنة (٦٥٤)هـ.

هل تحالف المغول مع الصليبيين؟

واستطراداً في الحديث عن وقائع المغول ندلي هنا برأينا فيما يقال عن تحالف كان بين المغول والصليبيين لمهاجمة العالم الإسلامي، وقد أخذ بهذا الرأي كاتب فناقشت قوله بما يلي:

قال الكاتب فيما قال: «عملت أوروبا بقياداتها الدينية المسيحية المتعصبة ضد الإسلام على التحالف مع المغول الوثنيين. وكان الهدف توجيه حملتهم الهمجية باتجاه بلاد المشرق الإسلامي. وذلك لكي تدمر الحضارة العربية الإسلامية وتسحق البلاد الإسلامية، بما يعني عدم قيام قائم للإسلام بعد ذلك. وبالفعل تحركت تلك القوى الهمجية بقيادة جنكيز خان وهولاكو، وشنّت بالتحالف مع أوروبا الصليبية حملة تدميرية بشعة ضد مراكز الحضارة الإسلامية في بغداد، بعد أن كانت قد ألحقت دماراً مماثلاً في الحضارة الإسلامية في إيران...» (انتهى).

أما رغبة الصليبيين في التحالف مع المغول الوثنيين وتهالكهم على ذلك فأمر لا أختلف فيه مع أحد، فصليبيو أوروبا كانوا لا يبالون أن يضعوا أيديهم في أيدي الوثنيين ويحالفوهم على المسلمين الموحدين. وفي هذا ما فيه من الانحدار الإنساني إلى أحط دركات الانحدار، فمن يدعي توحيد الله وأنه يقاتل في سبيل إيمانه كان عليه ــ لو كان مخلصاً ــ أن يرى في الوثنية خطراً داهماً على أصحاب الأديان، كل أصحاب الأديان، وأن هذا الخطر يدفعه للتحالف مع المؤمنين بالله أينما كانوا لدرء هذا الخطر.

ولكن صليبيي أوروبا لم يبالوا أن ينتصر الوثنيون المشركون، ثم يستنصروا بهم حقداً على دين التوحيد الذي كان شعاره في التعامل معهم المجادلة بالتي هي أحسن، فقابلوهم بالقتال بالتي هي أسوأ، وهل أسوأ من الاستنجاد عليه بالوثنية؟!

ولو عقل أولئك الحاقدون لأدركوا أن الوثنية التي يستنصرون بها، ستلتهمهم ــ إذا قدَّر لها النصر ــ فيما تستطيع أن تلتهمه من أصحاب الديانات. .

قلت إن رغبة الصليبيين في التحالف مع المغول الوثنيين أمر ثابت، ولكن ماذا كانت رغبة المغول في الموضوع؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لا بد من عرض موجز للتحرك المغولي في اتجاه البلاد الإسلامية، وما كان من أمرهم بعد أن توغّلوا فيها، لارتباط ذلك فيما نتحدث عنه من شؤون التحالف الصليبي الوثني.

العام (٦٢٠ هـ ــ ١٢٢٣ م) كان جنگيز خان قد حقق أهدافه الأولى في البلاد الإسلامية فعاد إلى بلاده ومات بعد أربع سنين، فتولى بعده ابنه أوغتاي.

وقد كانت للمغول بعد حنگيز غزوات اصطدموا فيها بقوات المسلمين غربي مدينة أربيل سنة (١٢٣١ م)، ثم سنة (٦٣٣ ــ ١٢٣٥ م) حول أربيل نفسها، كذلك سنة (٦٣٤ هـ ــ ١٢٣٦ م) حيث اجتاحوا أربيل وارتكبوا فيها ما اعتادوا عليه من فظائع، ثم رحلوا عنها حين بلغهم أن الخليفة العباسي المستنصر جهّز عليهم الحملات. وفي سنة (٦٣٥ هـ ــ ١٢٣٧ م) وصل المغول إلى سامراء وعادوا عنها منهزمين، ثم رجعوا في السنة نفسها ووصلوا خانقين وهزموا جيوش الخليفة وغنموا غنائم عظيمة. وفي سنة (٦٣٩ هـ ــ ١٢٤١ م) ملكوا أرزن الروم وقتلوا منها كثيراً.

وهنا تجلّى لجميع مجاوريهم الخطر المحدق بهم من تعاظم قوة المغول، وما أخذوا يهددون به الدنيا كلها من غزو مريع. وتذكّر الجميع أفاعيل جنگيز في كل ما طالت يده من بلاد، وما سفك من دماء وسلب من أموال وهتك من أعراض وأحرق من مدن. تذكروا ذلك وكيف أنه لم يفرق في الناس بين أصحاب هذا الدين

وأصحاب ذاك، بل شمل الجميع بفظائعه.

فإلى جانب ما ارتكبه في المسلمين في بخارا وسمرقند والري وهمذان وكل المدن التي وصل إليها، مضى إلى المسيحيين الكُرج[1] فحشد له هؤلاء ما استطاعوا حشده من فرسان تغلب عليهم وعاملهم بمثل ما عامل به المسلمين.

وأكثر من ذلك فإن المغول أرجؤوا إلى حين غزو البلاد الإسلامية، واتّجهوا نحو أوروبا الشرقية المسيحية فاستولوا على جميع البلاد الواقعة بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم، وأحرقت موسكو وأخضعت أوكرانيا وبولونيا وارتكبت فيها الأهوال، ثم وصلوا إلى المانيا وهنغاريا، وتقدموا إلى النمسا وسواحل بحر الأدرياتيك.

فعانت أوروبا المسيحية من فظائعهم مثلما عانت آسيا الإسلامية، ما حمل البابا غريغوري التاسع، إلى استنهاض الحكام المسيحيين لصد المغول.

هذا كله نسيه صليبيو أوروبا فمدوا أيديهم إلى المغول الوثنيين حين رأوهم يعتزمون الانقضاض من جديد على المسلمين.

أخطر العهود: في ذروة هذه الفتوح مات أوغتاي سنة ٦٣٩هـ، وقام نزاع على خلافته، ولم يتول خليفته كيوك خان الحكم إلا سنة (٦٤٤هـ ــ ١٢٤٦ م)، وكانت زوجة أوغتاي هي التي تدير الملك إلى تولي ابنها كيوك (٦٤٤هـ ــ ٦٤٧هـ) (١٢٤٦م ــ ١٢٤٩ م).

وبعد كيوك انتقل الحكم إلى فرع آخر من أبناء جنگيز هم أبناء تولوي حيث تولى منكوقاآن بعد شيء من النزاع حكمت خلاله زوجة كيوك خان.

وعهد منكوقاآن من أخطر العهود في تاريخنا ففيه تقرر غزو البلاد الإسلامية

---

(١) كان الكرج مسيحيين يسكنون جبال القبق (القوقاز). قال عنهم ياقوت: الكرج جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القبق فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تنسب إليهم وملك ولغة برأسها وشوكة وقوة وكثرة عدد. وبلاد الكرج: هي ما يعرف اليوم باسم جورجيا.

وتم هذا الغزو على يد أخي منكوقاآن، هولاكو كما سنرى.

تحريض صليبي: ما إن أحس صليبيو أوروبا بأن تحركاً مغولياً تبدو طلائعه، وأن إعداداً لشيء ما يُعدّ حتى تحركوا باتجاه المغول واضعين قواهم في خدمتهم، محرضين لهم على المضي باجتياح البلاد الإسلامية.

وبالرغم من أن قرار الغزو كان تصميماً مغولياً بحتاً، وأن تنفيذه كان ينتظر الساعة المناسبة، فيجب أن لا ننسى أنه قد حرضت عليه وقوت عزيمة المغول فيه رغبة أخرى في قهر العالم الإسلامي وتمزيقه، وهي رغبة أوروبا التي كانت لا تزال متشبثة بالحروب الصليبية.

وكان يتزعم الحركة الصليبية يومذاك ملك فرنسا لويس التاسع المغالي في صليبيته، المغرق في عصبيته، حتى لقد أطلقوا عليه لقب (القدّيس).

وعلى ذلك فقد رأى في المغول حلفاء له فيما يصبو إلى تحقيقه، لا سيما وهناك ما اشتهر عن بعض زوجاتهم المسيحيات وما لهن من الأثر عليهم. فأرسل إلى منكوقاآن سنة (٦٥٠هـ ـ ١٢٥٣ م) بعثة برئاسة الراهب (غيوم روبرك guillame robruk)[١] سارت من عكا إلى القسطنطينية ومنها إلى شبه جزيرة القرم، ثم مدينة (سراي)، ثم عبرت منافذ الأورال ونهر إيلي، إلى أن وصلت إلى قراقورم، حيث قابل رئيسها منكوقاآن.

ويبدو جلياً أن الهدف كان إنشاء تحالف صليبي مغولي يتقدم فيه المغول من الشرق والصليبيون من الغرب لحصر العالم الإسلامي وتحطيمه.

ولقد قوبلت البعثة بترحيب في البلاط المغولي وعادت تحمل رسالة جوابية إلى لويس التاسع.

يقول جان سيردي جوانفيل ـ وهو الذي رافق لويس التاسع في حملته

---

(١) هو راهب فرانسيسكاني وقد ألف كتابا عن رحلته إلى منغوليا التي استمرت من العام ١٢٥٣ إلى ١٢٥٥ باللاتينية ونشر الكتاب بالفرنسية سنة ١٩٨٥ وفيه وصف موضوعي دقيق للحياة المغولية يومذاك.

الصليبية، فكان بذلك شاهد عيان ـ يقول في مذكراته عن تلك الأيام متحدثاً عن علاقة لويس التاسع بالمغول في الصفحة ٨٤ من طبعة سنة ١٩٦٨ التي عربها الدكتور حسن حبشي:

بينما كان الملك (لويس التاسع) مقيماً في قبرص (كانون الأول سنة ١٢٤٨) أنفذ إليه ملك التتار استعداده لمعاونة الملك في غزو الأرض المقدسة وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين.

ولقد بالغ الملك في إكرام وفادة الرسل وأنفذ بالتالي سفارة من لدنه إلى ملك التتار عادت بعد عامين وأرسل معهم إليه خيمة على هيئة كنيسة وهي خيمة غالية لأنها مصنوعة بأكملها من القماش القرمزي الجميل الرائع، وأراد الملك أن يرى ما إذا كان في قدرته اجتذاب أولئك التتار للايمان بديننا فأمر بنقش الخيمة بصورة تمثل بشارة سيدتنا العذراء بالمسيح وجميع أسس عقيدتنا. وأرسل الملك هذه الأشياء جميعها بصحبة أخوين من الجماعة المبشرين يعرفان لغة التتار ويستطيعان هداية المغول وتعليمهم السبيل إلى الإيمان.

ويتحدث (جدانفيل) بعد ذلك في الصفحة ٢١٧ عن عودة رسل لويس التاسع قائلاً: كان عدد شعب هذا الأمير (التتاري) المسيحي كبيراً حتى لقد أنبأنا رسل الملك أنهم شاهدوا في معسكره ثمانمائة كنيسة صغيرة محمولة على عربات.

ثم يقول: ويوجد بين التتار كثير من المسيحيين الذين يعتنقون عقيدة الإغريق.

ويقول في الصفحة (٢١٨): نذكر ما فعله الايلخان بعد تلقيه رسل الملك وهداياه من إرساله عهد أمان لجمع جميع الملوك الذين لم يدينوا بالطاعة بعد، فلما جاءوه أمر بنصب كنيسة الملك وخاطبهم بقوله: «أيها السادة، لقد بعث ملك فرنسا إلينا ملتمساً عطفنا للدخول في طاعتنا. وهاكم الجزية التي أنفذها إلينا فانظروها، فإذا لم تستسلموا لنا فإنا مرسلون في طلبه للقضاء عليكم. وإذ ذاك أعلن أكثر الحاضرين استسلامهم للملك التتاري خوفاً من الملك الفرنسي.

ثم يقول جوانفيل بعد ذلك: عاد مبعوثو الملك وفي صحبتهم آخرون من قبل ملك التتار العظيم الذي حملهم كتباً منه إلى ملك فرنسا جاء فيها: «السلم خير فإنه إذا ساد أرضاً أكلت كل ذات أربع حشيش السلام، كما أن من يدبون على قدمين يفلحون الأرض التي تخرج كل طيب في سلام أيضاً.

وأننا نقص عليك هذا الخبر لتزداد معرفتك إذ لن تعرف معنى السلام إلا إذا عقدته معنا، فقد ثار بريسترجون علينا، كما ثار علينا فلان وفلان غيره من الملوك فحكمنا السيف فيهم جميعاً».

ثم راح يعدد له هؤلاء الملوك. ثم قال: «لذلك ننصحك أن تبعث إلينا عاماً بعد عام بشيء من ذهبك وفضتك، وبذلك تبقينا أصدقاءك، فإن لم تفعل هذا دمرناك أنت وشعبك كما فعلنا مع من ذكرنا لك من الملوك».

ويعقب جوانفيل على هذا الكلام قائلاً: ويجب أن تعلم أن الملك ندم أشد الندم على إرساله رسلاً إليه.

وكان قد قال في الصفحة (٢١١): أن سفر رسل الملك كان من انطاكية وأن سفرهم منها إلى ملك التتار استغرق مدة عام كامل وأنهم كانوا يقطعون في كل يوم مسافة عشرة فراسخ (انتهى).

وبالرغم مما كان قد نال مسيحيي غرب آسيا من المغول، فإنهم هذه المرة تناسوا كل ما مضى وهبوا هم الآخرون إلى التقرب من المغول والعمل على اجتذابهم إلى صفوفهم حتى يستطيعوا بمعاونتهم أن يستخلصوا بلاد الشام من أيدي المسلمين.

هذا الأمل هو الذي حفز (هيتوم Hethoum) ملك كيليكيا الأرمني إلى الإسراع إلى قراقورم في السنة نفسها التي عاد فيها رسول لويس التاسع إلى أوروبا، وألح على منكوقاآن للقيام بحملة مشتركة على المسلمين.

الأرمن ينسون ويحالفون: النوايا الصليبية في التحريض والدعوة إلى التحالف هي صريحة واضحة كما رأينا، والترحيب بها عند المغول كان هو الآخر

صريحاً واضحاً. ولكن الذي نريد أن نكشف عنه هو ماذا كان وراء الترحيب المغولي الظاهري، وما هي حقيقة نوايا منكوقاآن امبراطور المغول في هذا الموضوع؟.

هل صحيح أنه كان ينوي التحالف مع الصليبيين ليقتسم معهم العالم الإسلامي؟ وهل صحيح أنَّ نيته كانت خالصة لهم كما توهموا؟

هذا ما نريد أن نبحثه في الآتي من القول:

كان تصميم منكوقاآن منصباً على استئناف مسيرة جنكيز في السيطرة العالمية، وكان فتح البلاد الاسلامية جزءاً مما صمّم عليه، لا كل ما صمم عليه.

فقد أعد حملتين: حملة تتجه إلى الشرق وحملة تتجه إلى الغرب، وعهد بقيادة الحملة الأولى لأخيه (قوبيلاي قاآن) وحدد له مهمته وهي: إخضاع ممالك الخطا[1] والتبت وبعض أجزاء من الهند المتصلة بالخطا ومناطق أخرى تبدلت

---

(١) الخطا فيما يقول ابن خلدون: «هم أعظم الترك فيما وراء النهر وأنهم: أمة بادية يسكنون الخيام وهم على دين المجوسية» وأنهم: «كانوا موطنين بنواحي أوزكنده وبلاد ساغور وكاشغر». وهم كذلك أتراك في رأي ابن الأثير، إذ يعبر عنهم: «بالأتراك الخطا». ولكنه وهو يصف وقعة لهم، يقول: «وكانوا قد خرجوا قبله من الصين وهم في خدمة الخانية أصحاب تركستان» وعندما يسترسل في الحديث يقول: «وعنده جنود الترك والصين والخطا». ويقول أيضاً: «واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر».

ويقول الدكتور حسين مؤنس: الصين كانت تقسم قسمين: الصين الجنوبية وهي المعروفة باسم الصين. وهي التي كثر تردد المسلمين إلى سواحلها. والصين الشمالية التي تعرف باسم بلاد الخطا أو الخطاي. والعرب أول من أطلق هذا الاسم على شمال الصين وعاصمته خان ــ بالق أو بكين. وعنهم أخذ الأوروبيون الاسم فظلّوا يسمون بلاد الصين كلها Cathay من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر.

والخطا في الأصل اسم أطلقه العرب على ترك الصين الذين كانوا يسكنون فيما يعرف الآن باسم سنكيانج وصحراء منغوليا، ثم أطلقوه على الصين الشمالية وهؤلاء الترك الخطا غزوا الصين وأنشؤوا فيها دولة دامت خلال القرنين العاشر والحادي عشر.

أما اسم الصين فأصح الآراء أنه جاء من اسم دولة سينج التي حكمت الصين خلال القرن الثالث قبل الميلاد.

اليوم أسماؤها فلا نستطيع تحديد مواقعها تمام التحديد.

أما الحملة الثانية المتجهة إلى الغرب فقد عهد بقيادتها إلى أخيه الآخر هولاكو وحدد له مهمته، وهي الوصول إلى مصر بعد اجتياز إيران والعراق والشام، وكذلك اكتساح بلاد الروم والأرمن.

هنا تبدأ الحقائق بالتكشف فملك كيليكيا الأرمني (هيتوم) الذي قصد بنفسه إلى قراقورم واضعاً قواه بتصرف منكوقاآن لينقضَّ الجميع على العالم الإسلامي، والذي تغاضى عن أفاعيل المغول السابقة في غير المسلمين في آسيا الصغرى، وعاد يعرض عليهم اليوم التحالف معهم لمحاربة المسلمين.

هيتوم ملك كيليكيا هذا الذي غلبت صليبيته على عقله، وغطى تعصّبه على بصيرته فأعماها عن الحقائق، فلم تعد ترى أمامها إلا عداوتها للإسلام، هيتوم الذي لم يعد يبصر الدماء المسيحية التي أراقها المغول في الكرج بجبال القبق، وسفحوها في الأرمن أنفسهم في سهول الأناضول.. هيتوم هذا الذي لم يعد يرى شيئاً من ذلك، وكل ما كان يراه هو الإسلام والمسلمون وما يحمله قلبه من حقد عليهما، فذهب إلى قراقورم يدعو المغول للسير معه شاهرين السيوف صفاً واحداً يقتحم ديار الإسلام، فاستقبل بالترحيب والترغيب فازداد عتوّاً وعاد إلى كيليكيا بالأمل الضخم في تحقيق أهدافه الصليبية، هيتوم هذا لم يكن يعلم أنه مخدوع، وأن وراء تلك الابتسامات المتألقة على وجه (منكو) يكمن العزم على التهامة والتهام قومه، وأن المخطط يعدّ فقرة فقرة، وأن إحدى فقراته تقضي باكتساح بلاد الأرمن!.

بعدٌ عن الإنسانية وغباء: ومن الأوامر التي صدرت من (منكو) إلى أخيه (هولاكو)، ومن تحديد مهمة هولاكو ومنها فتح بلاد الأرمن نضع يدنا على الدليل الأول على أن المغول لم يكونوا أبداً يريدون التحالف مع الصليبيين واقتسام البلاد الإسلامية بينهم بل كانوا يريدون طرد الصليبيين من بلاد الشام والحلول محلهم، وأكثر من ذلك: كانوا ينوون عدم الاكتفاء بهذا بل احتلال البلاد المسيحية نفسها في أرمينيا..

وأن (القديس) لويس التاسع الذي رأى في التحالف مع الوثنية أمراً مشروعاً فمد يده إليها للتناصر والتعاضد ضد التوحيد، لم يكن فقط مجرداً من الروح الإنسانية الرفيعة والعاطفة الدينية الصادقة اللتين تأبيان الاستعانة بالشرك على الوحدانية وتفضيل عبادة الأصنام على عبادة الله الواحد الأحد ـ لم يكن مجرداً من ذلك فحسب ـ بل كان غبياً كل الغباء حين حسب أن المغول سيسلمونه بلاد المسلمين، وأنه سينال منهم ما يبغيه صفواً عفواً!.

وسنرى فيما يلي ما يوضح لنا حقيقة النوايا المغولية، وما كانوا يعتزمونه لو قدِّر لهم الظفر النهائي ولم ينهزموا في عين جالوت.

الزحف المغولي: بعد أن أصدر منكوقاآن تعليماته إلى هولاكو وحدد له المناطق التي عليه اكتساحها، وقبل أن تبدأ الحملة زحفها أرسل منكوقاآن خبراء الطرق ليكشفوا على الطريق الذي ستسلكه حملة هولاكو في مرحلتها الأولى من قراقورم حتى شاطىء نهر جيحون، وليقيموا الجسور على الأنهار والمجاري. وحدد لكل جندي مائة منّ من الدقيق وقربة من النبيذ، وأوصى هولاكو بما يلي: «حافظ على تقاليد جنگيز وقوانينه في الكليات والجزئيات، وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي مصر بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك. أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به» إلى آخر ما جاء في الوصية..

وفي شهر ذي الحجة سنة (٦٥٠ هـ ـ ١٢٥٢ م) قصد هولاكو معسكره يتهيّأ ويستعد وينظم أموره. وبعد سنة كاملة أي في شهر ذي الحجة سنة ٦٥١ هـ كان قد أتم تدارك حاجاته فمشى زاحفاً بجيوشه الجرارة.

وقبل أن يسير كان قد عهد إلى حكام الولايات التي يجتازها بأن يعدّوا المأكل والمشرب للجنود وأن يمهدوا من الطرق ما يحتاج إلى التمهيد وأن يعدّوا السفن لعبور الأنهار. وكان كلما اجتاز بولاية ينضم إليه ما أعدته من جنود.

وفي صيف سنة ٦٥٢ هـ كان يعسكر في تركستان وما وراء النهر. وفي شهر

شعبان من سنة (٦٥٣ هـ ـ ١٢٥٥ م) كان ينزل على مراعي سمرقند فأمضى هناك ما يقرب من أربعين يوماً منصرفاً للشراب. ثم رحل حتى نزل عند حدود (كش) فأقام فيها مدة شهر. ثم استأنف زحفه حتى وصل إلى نهر جيحون.

وبذلك قطع المرحلة الأولى ووقف يتهيأ ليخطو أولى خطواته العملية في طريق رحلته الطويل. فأمر بتوقف حركة النقل في النهر الكبير ونصب عليه جسراً عبرت عليه قواته في غرّة ذي الحجة سنة (٦٥٣ هـ ـ ١٢٥٥ م). وفي اليوم التالي كان ينزل في مراعي (شبورقان) من توابع بلخ ففاجأته هناك الأمطار والثلوج واستمرت سبعة أيام فهلك الكثير من دوابه برداً. فقرر تمضية الشتاء هناك عاكفاً على اللهو والطرب والاستمتاع.

وقبل أن يعبر نهر جيحون سبقته مقدمة مهّدت له الطريق وعملت أول ما عملت على حصار قلاع الإسماعيليين النزاريين التي انتهى أمرها بالتسليم مما ليس هنا مكان تفصيله. وبالقضاء على الإسماعيليين النزاريين ودولتهم انتهت المهمة الأولى لهولاكو، وصفت له القلاع والبلاد.

وضوح نوايا المغول: فضلاً عن الحملة الكبرى التي كانت بقيادته فإن هولاكو كان قد أرسل حملات أخرى سبقته في التغلغل في غير الطرق التي سيسلكها، فمن ذلك أنه كان قد أرسل قائداً من قواده اسمه (بايجونويان) لتنفيذ خطة حربية تقضي حتى بالوصول إلى بغداد. وبينما هو يتهيّأ لاجتياز نهر جيحون عاد إليه القائد قادماً من حدود آذربيجان، دون أن يتمكن من إنفاذ ما أمره هولاكو بإنفاذه لأنه رأى أن قواه أقل من أن تستطيع تحقيق المهمة التي عُهد إليه بتحقيقها.

ولما وصل إلى هولاكو ألفاه غاضباً عليه لرجوعه عاجزاً عن تحقيق الهدف المقصود. فاعتذر القائد قائلاً: إني لم أقصر وإنما بذلت كل ما في مقدوري، فقد أخضعت الأقاليم الممتدة من باب الري حتى حدود الروم والشام ما عدا بغداد..».

فقال هولاكو: «يجب أن تعود لكي تستولي على تلك الولاية حتى شاطىء البحر من يد أبناء الفرنج والكفار».

هذا هو الأمر الصريح الذي أصدره هولاكو لقائده بايجونويان: يجب أن يمضي حتى شواطىء البحر المتوسط فيستولي على كل ما في طريقه حتى يستقر على الشواطىء البحرية الشامية.

كان هذا الأمر يصدر في الحين الذي كان فيه (القدّيس) لويس يعيش قرير العين ناعم البال عندما بلغته أنباء التقدم المغولي، ويعلل نفسه بتحقيق حلمه في القضاء على المسلمين والحلول محلهم، ويرى أن الساعة التي تنكس فيها أعلام الموحدين المسلمين بيد الوثنيين المشركين قد دنت، وأنه عما قريب سيصبح لا «القدّيس» فقط، بل (قدّيس القديسين) بعد أن يتوج سيداً مطاعاً على البلاد المترامية الأطراف من شواطىء البحر حتى أقصى قمم البر!.

يقول هولاكو لقائده إن عليه أن يستخلص تلك البلاد من يد أبناء الفرنج والكفار.

ومن الطبيعي أن أبناء الفرنج المقصودين هم الصليبيون المحتلون لفلسطين وبقاع أُخرى من البلاد الشامية، والمسيطرون على سواحلهم البحرية. ولكن من هم الكفار؟.

وقبل أن نجيب على هذا السؤال لا بد لنا من أن نقرّ بأن هولاكو طريف كل الطرافة!..

وهل أطراف من أن يسمي فريقاً من الناس كفاراً؟. هذا الوثني، نقول: الوثني ولا نقول: الملحد، لنضعه في أحسن حالاته، هذا الوثني يرى من حقه أن ينعت جماعة بالكفر!..

وهنا نعود إلى التساؤل عمن يقصد بالكفار؟.

ينقل مترجمو كتاب (جامع التواريخ) عن المستشرق الفرنسي «كاترمير» واضع مقدمة جامع التواريخ أنه يرى أن المقصود بالكفار هنا هم الأرمن والإغريق الذين كانوا يحتلون أماكن عديدة من آسيا الصغرى.

على أن ما يوضح الأمر هو ما ذكره قبل ذلك في جامع التواريخ نفسه من أن منكوقاآن قد حدد مهمة هولاكو، وهي فتح غرب إيران والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن.

إذن المقصود بالكفار هم الأرمن.. وكما كان لويس التاسع يترقب الزحف المغولي مستبشراً، كان هيتوم ملك الأرمن يباريه في الاستبشار!..

كان في أقصى درجات الاستبشار بدنو الطلائع المغولية في بلاده، في نفس الوقت الذي كان فيه هولاكو ينعته وقومه بالكفار ويأمر قائده بأن يزحف لإعادة هؤلاء الكفار إلى الإيمان بالوثنية!..

وهكذا يصح ما قلناه من أن المغول لم يفكروا أبداً بالتحالف مع الصليبيين، بل كانوا من الاعتداد بقوتهم ما يرون معه أنهم ليسوا بحاجة لحليف يقويهم، بل يرون أنهم قادرون على التغلب على المسلمين والصليبيين معاً:

لقد كان في نيتهم النفاذ إلى البحر المتوسط وإزاحة الصليبيين عمّا كانوا لا يزالون يحتلونه من بلاد الشام. وفكرة التحالف معهم لم تكن واردة آنذاك، ولم تكن مسايرتهم للصليبيين أول الأمر إلا من قبيل كسب الوقت.

ويبدو أن المغول أخّروا الصدام بالصليبيين في سواحل الشام إلى ما بعد احتلال مصر. وأن عودة هولاكو إلى بلاده وفشلهم في احتلال مصر قلبا خططهم.

ويظهر أن هذه النوايا لم يكن يمكن أن تظل خافية على الصليبيين فجعلت بارونات عكا لا يخفون نقمتهم على المغول ناظرين إليهم كبرابرة.

الآن أصبح المغول برابرة!. الآن بعد أن يئس الصليبيون من استدراج المغول إلى صفهم ليعاونوهم على القضاء على المسلمين، الآن أصبحوا برابرة..

أما يوم كان لويس التاسع وهيتوم يوفدان إليهم الرسل أو يذهبان إليهم بنفسيهما للتعاون معهم فلم يكونوا برابرة، بل كانوا أحلافاً طيبين وأصدقاء خيرين!.

وحدث أن هاجم أحد هؤلاء البارونات المسمى: الكونت جوليان الصيداوي جماعة مغولية وقتل ابن أخي القائد كيتوبوقا، فسخط المغول لهذا الحادث ومضوا لتخريب صيدا ممّا عجّل إظهار العداء.

وكذلك حدث عندما هاجم الجيش المصري طلائع جيوش المغول المتقدمة إلى مدينة غزة وانتصر عليها، وأراد التقدم وراءها، إن الفرنج في عكا سمحوا للمصريين بأن يعبروا أرضهم ويتزودوا بالمؤن عند أسوار عكا.

يقول المقريزي: «ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يوماً، ثم رحل من طريق الساحل إلى مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج، فخرجوا إليهم بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه».

وهكذا نرى أن الصليبيين أخذوا يدركون حقيقة ما يبيّته المغول لهم، ولم يعودوا يتورعون من مجاهرتهم بالعداء إلى حد قتل بعض البارزين منهم، وعرض التحالف مع المسلمين على قتالهم.

تطور الأمور: على أن الأمور تطورت بعد هزيمة المغول أمام المصريين في عين جالوت وموت هولاكو وتولي ابنه آباقا مكانه وزواجه بابنة امبراطور بيزنطة (ميخائيل باليولوغ). وكان من تأثير هذه الزوجة عليه أن حملته على التحالف مع البيزنطيين والصليبيين على ما بين الجميع من تناقض ليتعاونوا جميعاً في القضاء على قوة مماليك مصر.

ولم يتوان آباقا عن الاتصال بالبابا (اكليمنضوس) الرابع مظهراً استعداده للتحالف في حرب المماليك.

وهنا كان لرجل الدين المسيحي الكبير نفس الدور الذي كان قبله (للقديس) لويس التاسع فآثر التحالف مع الوثنية والشرك لمحاربة التوحيد، واستجاب لرغبة آباقا وأرسل إليه رسولاً يؤكد هذا التحالف ويشجّعه.

وقد كان بعد ذلك من الأحداث ما ليس هنا مكان تفصيله. وكل ما يمكن أن

نقوله إن كل التحالفات لم تغن المتحالفين شيئاً أمام تعاظم قوة المماليك وتشدّدهم. وإن حال الصليبية أمام رغبة آباقا كانت كحال الشاعر القائل: (وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل).

وبالرغم من أن المغول وحليفهم لاوون الثالث ومن معه من الأرمن والكرج والروم قد استطاعوا سنة ١٢٨١ م صعود وادي العاصي والتوقف أمام حمص بجيش قوي فإن الهزيمة حلّت بالمتحالفين وانتصر المماليك بقيادة قلاوون. مما حمل آباقا على ترك بلاد الشام والتوجه إلى بغداد ثم إلى همذان. وكان آخر عهده ببلاد الشام إذ توفي سنة ١٢٨٢ م.

وهكذا غلبت الأقدار كل تقدير فلا المغول استطاعوا الوصول إلى شواطىء البحر المتوسط وانتزاع بلاد الشام من الصليبيين، ولا استفادوا بعد ذلك من تحالفهم معهم. ولا الصليبيون أنقذهم تحالفهم مع المغول من المصير المحتوم الذي لاقوه على يد خليل بن قلاوون (١٢٦٥ ــ ١٢٩٤ م).

على أن العجب لا ينقضي من أولئك الذين كابدوا من المغول ما كابدوا لا سيما الكرج. وهم من انقضّت عليهم جيوش المغول الجنگيزية وأذاقتهم ما أذاقتهم من الفتك المريع حين شارفت تفليس متّجهة إليهم فتلقوها بكل قواهم فكانت القاضية عليهم إذ لم يثبتوا لها وانهزموا فتتبعتهم السيوف قتلاً ذريعاً واستئصالاً فظيعاً.

الكرج هؤلاء ومثلهم الأرمن أغضوا على مذابح المغول فيهم وتجاهلوا دماءهم المطلولة على سفوح (القبق) وثنايا القوقاز، وكرامتهم المداسة بالنعال الجنگيزية وشرفهم المهدور بالأقدام المغولية.

أغضوا على كل ذلك ومشوا تحت ألوية (آباقا) الجنگيزي المغولي، هذه الألوية التي جللتهم أمس بعار الهزيمة وذل الانكسار، وروّت الأرض بنجيعهم القاني، وملأت السهول بجثثهم المهشمة. مشوا اليوم تحتها مزهوين لأنهم يحلمون بتضعضع الإسلام وتشتت المسلمين.

بعد انقضاء الدولة

بعد إعلان الحسن الثاني بن محمد بن بزرك أُمِيّد سنة (٥٥٨ هـ ــ ١١٦٤ م) عقيدته الجديدة المنحرفة التي تلغي التكاليف الشرعية وتتخلّى عن الإسلام عقيدة وعملاً، حدث الانشقاق في الاسماعيليين النزاريين، فبعض تابع الحسن الثاني وبعض ظل على عقيدته الإسلامية وفي طليعتهم شقيق زوجته الذي ما لبث أن اغتال الحسن سنة (٥٦١ هـ ــ ١١٦٦ م)، ولكن اغتياله لم يلغ الانحراف، بل بقي مستمراً على عهد خليفته ابنه (علا محمد) الذي تولّى بعد أبيه وهو في التاسعة عشرة من عمره وتوفي سنة (٦٠٧ هـ ــ ١٢١٠ م) كما أن المعارضة الشديدة ظلت مستمرة، وإذا كان قد تزعم المعارضة في عهد حسن شقيق زوجته، فقد تزعمها الآن حفيد حسن وسميه جلال الدين حسن إذ كان على خلاف أبيه وجده مسلماً صحيح الإسلام.

وعندما تولى الحكم بعد أبيه سنة ٦٠٧ هـ أعلن إلغاء كل ما قرره سلفاه والعودة إلى الإسلام وعقيدته وشريعته.

وتوالى خليفتاه بعده على طريقته الإسلامية وهم ابنه علاء الدين محمد الذي توفي سنة (٦٥٣ هـ ــ ١٢٦٠ م) وحفيده ركن الدين خورشاه الذي انتهى به حكم النزاريين بعد أن قتله هولاكو سنة (٦٥٤ هـ ــ ١٢٦١ م). ولقد انتهى حكم النزاريين وهم قسمان: قسم ظلّ على انحراف حسن الثاني، وقسم على استقامة حفيده علاء الدين محمد. ولا يزال لكل من الفريقين اتباع حتى الآن. فالذين ظلّوا على الانحراف عرفوا باسم (القاسمية)، وهم اليوم أتباع آغاخان، والفريق الآخر عرفوا باسم (المؤمنية).

على أن التساؤل هنا ينصب على أمر الإمامة عند المؤمنية فقد قتل ركن الدين خورشاه دون أن يكون له وريث لإمامته فما شأن الإمامة بعده[1]؟.

---

(١) ينقل تامر عن مقدمة كتاب (جامع الحكمتين) لهندي كوربان ومحمد معين ما يلي: «وقد نجح الإمام ركن الدين بأن هرّب ولده وولي عهده شمس الدين الوريث الشرعي =

هنا نرى من المفيد أن ننشر المقال الذي كتبه المستشرق الروسي (ايفانوف W.Ivanow) وترجمه إلى العربية الدكتور عارف تامر، وهو الآتي:

هذه نفحات تاريخية مقتطفة من مقالة كتبها بالانكليزية المستشرق الروسي د. إيفانوف W.Ivanow ونشرتها مجلة The journal of the Royal asiatic Society London سنة١٩٣٨ م. وبالنظر لأهميتها التاريخية قمت بترجمتها، واقتطفت الأهم منها. يقول إيفانوف:

في سنة ١٥٣٧ م حدث حادث غريب من نوعه، في مملكة «برهان نظام شاه» الإسلامية السنية الواقعة في مقاطعة «الدكن» الهندية، وذلك عندما أعلن ملك المقاطعة عن اعتناقه للمذهب الشيعي الجعفري، وعن اعتماده هذا المذهب مذهباً رسمياً للدولة.

ولي «برهان نظام شاه» الملك من سنة ٩١٤ هـ إلى سنة ٩٦١ هـ. أو من سنة ١٥٠٨ م إلى سنة ١٥٥٤ م، وممّا تجدر الإشارة إليه أن هذا الانقلاب الغريب قد قوبل بالذهول والاستغراب بالرغم من أنه جاء معبّراً عن عواطف الملك الدينية، ومن جرّاء اتصالاته ومطالعاته، على اعتبار أنه كان ملكاً عاقلاً، واسع الاطّلاع والمعرفة، وقد عزا بعضهم ذلك إلى أسباب أخرى أوجدت هذا التبدل، وقد يكون من جملتها اعتبارات سياسية، ومؤثرات وردت دون شعور من بلاد فارس، حيث أن الأسرة الملكية «الصفوية» وعلى رأسها الشاه إسماعيل و«طهماسب» كانا يهتمان بشؤون الهند، ويريدان تعميم مذهبهما الشيعي في كل

= للإمامة الاسماعيلية وكان عمره سبع سنوات. وقد جاء بعد ذلك إلى (انجدان) وهي على الطريق بين أصفهان وهمذان» ثم يقول تامر أنه عاش متنقلاً بين أذربيجان وتركستان وبغداد وحلب وأنه أقام فترة طويلة في قونية يمتهن مهنة التطريز. وأنه ولد له ثلاثة أولاد: قاسم شاه ومؤمن شاه وكياشاه وأنه بعد موته سنة ٧١١ انتقل بعض أفراد أسرته إلى مقاطعة جيلان وأقاموا في إحدى القرى الصغيرة (ماهيانا) وأنهم عرفوا باسم (السادة الخداوندية) وقد انقسم أتباعه بين ولديه قاسم شاه وإليه ينتهي نسب (آغاخان) واتباعه من يعرفون اليوم بالاسماعيلية الآغاخانية، وبين الولد الآخر مؤمن شاه.

مكان، وفي تلك الحقبة كان مهاجر فارسي عظيم الأهمية، وغامض الشخصية، يسمَّى «طاهر شاه الحسيني» يقبض بيديه على الموقف الديني العام وعلى الملك، وكان سياسياً وأديباً وعالماً فذاً ولا ريب، فإن دراسة حياته وتاريخه من كافة النواحي طريفة وشيّقة، ولكن الوصول إلى كنهه من الصعوبة بمكان، وإني في هذا المقال ألفت نظر المؤرخين إلى هذا الاكتشاف العجيب عن هذه الشخصية التي اعتبرت في «بدخشان» و «إيران» و (بلاد الشام) كإمام للإسماعيلية على اعتبار أنه يتحدر من سلالة أئمة «ألموت» النزاريين «الخدوندية» الذين ينتسبون إلى أئمة مصر الفاطميين. . وقد يكون ظهوره الفجائي هذا قد أعاد أو يعيد إلى الأذهان، سيرة فرع من فروع الإسماعيلية النزارية، ومع أن هذا الفرع يكاد يكون منسيّاً إلا أن له أثراً كبيراً في تاريخ الشعوب الإسلامية في آسيا الوسطى والهند وبلاد الشام.

ذكر الإمام «طاهر الحسيني» في عدد كبير من الكتب التاريخية الهندية والفارسية والسورية والأفغانية، ومع سيرة حياته ذكروا نشاطه المرموق في عالم السياسة. أما أعماله العلمية فقد ضاع أكثرها كما ضاعت كل آثار أسلافه وسلالته، ومن المصادفات الجميلة أني أفلحت في اكتشاف مصدرين عن حياته فقط، والحقيقة: فقد يكون من المفيد الاستمرار في البحث والدراسة عن هذه الشخصية المجهولة وعن سلالته ومؤلفاته وخاصة في أقطار الهند، ففي ذلك خدمة للتاريخ.

إن أفضل بيان تفصيلي عن «طاهر شاه الحسيني» يوجد في تاريخ «فيرستا» (FIRISHTA)، ومؤلف هذا الكتاب ولد سنة (٩٦٠ هـ أو سنة ١٥٥٣ م) في «مازندران» بإيران، ومنها جاء إلى مدينة «أحمد نكر» الهندية وذلك بعد وفاة «طاهر شاه الحسيني» بعشرة أو بخمسة عشر عاماً. . وفي ذلك الوقت كان العديد من أسرة «طاهر شاه الحسيني» يقيمون هناك، ومن المرجح أن العلاقات بين عائلة مؤلف «فيرستا» وعائلة الإمام طاهر كانت وثيقة وعاطفية، والسبب لكونهم من بلدٍ واحد هو «إيران»، وهذا ما جعل المؤلف يكتب تاريخ حياته بموضوعية وعمق وتهذيب.

كتب مؤلف «فيرستا» تاريخ سنة (١٠١٥ هـ أو سنة ١٦٠٦ م)، ويذكر

بعض المؤلفات التي اعتمد عليها والتي تحدثت باختصار عن «طاهر شاه الحسيني» وهي:

برهاني مآثر لعلي الساماني الطباطبائي، وهفت إقليم لأمين الرازي، ومجالس المؤمنين لنور الله الشوشتري، وأتاش كادا للطف علي، وتاريخ الحقائق لمعصوم علي شاه نعمة الله وغيرهم.

يتحدث «فيرستا» عن الإمام «طاهر شاه الحسيني» فيذكر نسبه، ويعدد أجداده.. ويبدو أنه اطلع على السلسلة الإمامية المحفوظة في مكتبة الإمام الخاصة، وهذه السلسلة شيّقة جداً وفيها بيان واحد يقول:

بعد سقوط دولة «ألموت» الإسماعيلية النزارية، أقم أجداد «طاهر شاه الحسيني» في قرية فارسية تسمى «خوند» تقع في مقاطعة «قزوين» على حدود جيلان» الإيرانية. [ولكن لا يوجد هناك الآن على خريطة إيران قرية بهذا الاسم، والأرجح أنها قد تغيّرت، وربما تكون هي نفس القرية الواقعة في جنوب غربي زنجان]. والحقيقة: أن كافة المصادر التاريخية أجمعت على القول بأن هذه القرية كانت موطناً للإمام طاهر شاه الحسيني وذلك قبل رحيله إلى بلاد الهند.

مهما يكن من أمر.. ففي إيران نُظر إلى طاهر شاه الحسيني بتقدير واحترام عظيمين وذلك قبل أن يتولّى الإمامة، مضافاً إلى ذلك أن أسرته كانت تتمتع بأعلى مكانة في الأوساط الدينية والعلمية.. ولكن طاهر شاه تفوّق على كل أسلافه، وحاز على شهرة واسعة. ومن الواضح أن هذه الشهرة والمكانة أثارت الغيرة والحسد في قلب الملك الفارسي «إسماعيل الشاه الصفوي» الذي كان يطمح إلى سيادة روحية تضاف إلى سيادته الزمنية، ولكن يجب أن لا ننسى أنه كان لطاهر شاه أنصار وأتباع في البلاط الملكي، وأبرزهم «ميرزا حسين أصفهاني» الذي كان مضطراً أن يراعي ظروفه السياسية بحيث لا يتظاهر بما يسيء إلى الملك.

أمّا الملك إسماعيل الصفوي فإنه ظلّ على عناده وخوفه.. وأخيراً: أصدر أوامره بنفي «طاهر شاه» إلى مدينة «كاشان» الواقعة في الجهة الشمالية الشرقية من

أصفهان. فأقام فيها ثم أخذ يحاضر في الكلية الكبرى، فتمكن ببلاغته ولطفه وأسلوبه الجذاب من التأثير على الأكثرية من الطلاب الذين أحبوه وقدّروه وتبنّوا أفكاره، ممّا أثار حسد المدرِّسين الآخرين. فأرسلوا تقريراً إلى الملك يذكرون فيه ميول طاهر شاه «الهرطوقية»، واتصالاته ببلاط الملوك الأجانب، وعندئذ وجد الملك فرصة سانحة أمامه للتخلص من عدوّه المنافس، فأصدر أمراً بإعدامه، ولكن أصدقاء الملك في البلاط حذروه من عاقبة هذا التدبير الذي قد يجر عليه الوبال[١].

أمّا طاهر شاه.. فقد فرَّ تحت جنح الظلام مع عائلته إلى أقرب ثغر، ومن هناك أكمل رحلته بطريق البحر باتجاه الهند، وكان ذلك في شتاء سنة (٩٢٦ هـ = ١٥١٩ م).

في الهند حطَّ الرحال في عاصمة «عادل شاه بيجابور».. ولكن الأمير الحاكم لم يهتم به، ممَّا دعاه إلى التفكير بالذهاب إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج.. وفي الميناء التقى بالخواجا «جهان» وزير ملوك «البهمان» الذي قدَّر مزاياه ودعاه إلى الإقامة بمدينة «أحمد نكر»، فقبل دعوته وانتقل إليها سنة (٩٢٨ هـ = ١٥٥٥ م) حيث ظلَّ فيها حتى موته.

وينتقل المؤرخ «فريشتا» إلى وصف الإمام طاهر شاه الذي أبرأ الأمير عبد القادر ابن الملك برهان من مرض خطير، فأثبت أنه طبيب بارع، ثم يذكر كيف أنه تمكن من التأثير على الملك لدرجة أنه جعله يعلن بأن المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي للدولة، وكل هذا جرى سنة ٩٤٢ هـ = ١٥٣٧ م، كما تحدث عن حياة طاهر شاه وممَّا ذكره عنه أنه أقام في مدينة «أحمد نكر» مدة تزيد عن ستة عشر عاماً، وكان يحتل منصباً رفيعاً في السلك الدبلوماسي لدولة برهان شاه.

بعد هذا ظهر تحول لدى ملوك إيران بالنسبة لطاهر شاه الذين قدروا خدماته وندموا على ما فعلوه فدعوه إلى الحضور لبلده الأصيل، وعندما اعتذر عن

---

(١) هذه الآراء وغيرها من أمثالها مسؤول عن حقيقتها الكاتب وحده (ح).

الحضور، أرسلوا إليه الهدايا والأوسمة والتهاني. . ويبدو أن الأعمال الحكومية، وانغماسه في السياسة وقفت بينه وبين التدريس والتأليف.

وأخيراً مات في مدينة «أحمد نكر» وتمَّ فيما بعد نقل جثمانه إلى «كربلاء» [بناء على وصيّته] فدفن فيها.

كان طاهر شاه موسوعياً وعارفاً في كافة العلوم السائدة في عصره، وقد يكون من المفيد أن نأتي على بعض مؤلفاته وبحوثه العلمية كما أوردها «فيرستا» و «نور الله الشوشتري» وهي:

١ ــ ديوان شعر، ٢ ــ مجموعات مقالات، ٣ ــ رسالة في شرح الجعفرية، ٤ ــ رسالة في الفقة الشيعي، ٥ ــ حاشية في تفسير البيضاوي، ٦ ــ شروح وحواش لمقالات شتى، ٧ ــ إشارات ومحاكمات، ٨ ــ المجسطي، ٩ ــ الشفاء والمطوّل، ١٠ ــ تحفة شاهي، ١١ ــ قلشدني راز، ١٢ ــ رسالة بلاكي، ١٣ ــ شرح في التهذيب، ١٤ ــ دار المعاد.

بعد وفاة طاهر شاه خلفه ولده «حيدر شاه» فسافر إلى إيران بدعوة من الشاه طهماسب، ثم عاد إلى حيدر آباد للاستقرار فيها. . وقد ذكر أنه كان لطاهر شاه ثلاثة أولاد آخرون هم:

رفاع الدين حسين، وأبو الحسن، وأبو طالب. . وكانوا يضطلعون بأعباء مناصب عليا في دولة نظام شاه، وعادل شاه.

يقول إيفانوف: ممّا يؤسف له جداً أني لم أعثر أثناء رحلتي على أي فرد من أسرة طاهر شاه، لا في «أحمد نكر» ولا في «بيجابور» حتى ولا في «حيدرآباد»، وكان يهمني أن أعثر على أي واحد من هذه الأسرة العريقة في أية مقاطعة من مقاطعات الهند، ويبدو أن ذكرياتهم[١] قد توارت.

(١) ذكريات هذه الأسرة لم تتوارَ. . فهذه الأسرة موجودة في مكان ما من هذه الكرة الأرضية. . وآخر إمام منها كان يسمّى «محمد باقر» وقد هاجر من مدينة «أورنك آباد» سنة ١٢١٠ هـ. على أثر دعوته المسلمين في الهند إلى محاربة الاستعمار البريطاني في بلاد الهند. . إنه حفيد طاهر شاه الحسيني، وكان على اتصال بأتباعه الاسماعيليين =

أشار إليَّ البعض أن آثاراً للإمام طاهر توجد في القرب من حائط إلى جانب قبر «نعمت خان» في أحد الأحياء القديمة من مدينة أحمد نكر، ولكن لم أجد ما يشير إلى أي أثر للإمام طاهر شاه مع كل أسف، وذكر لي بعضهم بأنه يوجد في جانب الميدان المقابل لقبر «حيدر شاه» فذهبت إلى المكان الآنف الذكر، ولكني لم أجد أي نقش أو كتابة على أحجار القبر ولا أدري بعد ذلك فيما إذا كان هذا هو قبر حيدر شاه حقيقة.

ومهما يكن من أمر.. فليس في «حيدر آباد» المدينة الشيعية قديماً إلاّ القليل من عائلات الخوجا الآغاخانية، والبهرة المستعلية. أمّا الاثنا عشرية فيبدو أنهم غير معروفين هناك.. كما أن الكتب المخطوطة القديمة التي عثرت عليها لا تحوي أي بيان أو ذكر لطاهر شاه.

لقد نجحت منذ وقت قصير في الحصول على نسخة قديمة لرسالة «وجه الدين» لناصر خسرو، والنسخة كتبت سنة (٩٢٩ هـ = ١٥٢٣ م). من قبل «محب علي القندوزي» من «بدخشان» الأفغانية، وفي آخر النسخة بعض صفحات باللغة الفارسية، وهي من كتاب «إرشاد الطالبين في ذكر أئمة الإسماعيليين»، ويبدو أن الكاتب كان على جانب كبير من الاطلاع والتهذيب بدليل أن الصفحات مخصصة للتحدث عن الإمامة وعن واجبات المؤمنين نحو الأئمة، مضافاً إلى ذلك تطرقه إلى الانقسام الخطير في سلسلة نسب الأئمة النزارية الإسماعيلية إلى فرقتين: الأولى «المؤمنية» ومنها «طاهر شاه الحسيني»، و «القاسمية» ومنها «الآغاخان».

بعد ذلك يذكر الأنبياء النطقاء الذين يبدؤون بآدم وينتهون بمحمد الذي هو خاتمهم، ويشير إلى سبع أئمة بعد كل واحد منهم.. وتنتهي الصفحات الآنفة الذكر بأسماء أئمة دولة «ألموت» وآخرهم شمس الدين وبعده مؤمن شاه، ويعرِّج بعد ذلك على ذكر الاختلاف بين أبناء شمس الدين وهما: مؤمن شاه، وقاسم شاه

= السوريين، ولدينا كتاب مرسل منه لأتباعه في سورية، وهكذا جده طاهر شاه فهناك أكثر من كتاب مرسل منه إليهم (المترجم).

[وعلى العموم فإن كل هذا لا يخلو من الأخطاء]. . بحيث جرى مزج الألقاب بالأسماء، ممَّا أوجد ثغرة واسعة من الأخطاء من الصعوبة بمكان إملاؤها، مضافاً إلى ذلك المزج الحاصل بين اللغات الأفغانية والفارسية والهندية والعربية، وجهل النسَّاخ بالحقائق التاريخية، وإقدام بعضهم على التصدي لإصلاح أخطاء النساخ السابقين دون معرفة منهم. . وهكذا أضافوا أغلاطاً جديدة.

وفي رسالة «ضياء التقرب» الملحقة بالكتاب المشار إليه نجد قصيدة «لمعات الطاهرين» وهي مقاطع صوفية عميقة وعسيرة الفهم نظمها «غلام علي بن محمد بن أحمد» سنة (١١١٠ هـ = ١٦٨٩ م) للإمام «محمد المشرَّف» وهو حفيد طاهر شاه الحسيني، وفيها يذكر رحلة الإمام «ركن الدين شاه» إلى بلاد المغول سنة ٦٥٧ هـ أو ١٢٥٩ م، تلك الرحلة التي انتهت بإعدامه، ثم إلى وفاة ولده شمس الدين سنة ٧١٠ هـ، أو ١٣١٠ م، كما يأتي على ذكر طاهر شاه الحسيني ووالده رضي الدين الذي كان حيّاً سنة ٩٢٩ هـ، = ١٥٢٣ م.

وينتهي إيفانوف إلى القول: بأن طاهر شاه الحسيني كان ضليعاً بالفلسفة الإسماعيلية، وكان يولي القضايا الفقهية الجعفرية اهتماماً خاصاً، ممّا جعل بعض الناس يقولون إنه من أتباع مذهب الشيعة الاثني عشرية، ولكن في الهند يوجد خلط في الأديان، فبعضهم يسمون أنفسهم سنيّة وهم من الهندوس، وبعضهم يقولون إنهم من الشيعة وهم في حقيقتهم من السنة إلى ما هنالك.

لقد أظهرت في كتابي «الدليل للآداب الإسماعيلية» الفرق بين الآداب الفارسية والبدخشانية ــ أتباع ناصر خسرو. فهؤلاء أكثر اعتدالاً وأقدم من الفرس بالمعرفة وخاصة فيما يتعلق بنسب الأئمة الفاطميين أجداد طاهر شاه الحسيني، وعلى العموم فهناك صعوبات كثيرة في اكتشاف زمان وكيفية تلاشي هذه الشيعة الإسماعيلية في بدخشان والهند، وكل هذا يجعلنا نؤكد بأن أهميتهم قد زالت عندما انتصر سلاطين دلهي على بلاد الدكن، أو بسبب وجود «أورانك زيب» الذي كان عديم التسامح، وقد يكون آخرهم قد فقد الخلف الشرعي، أو أنهم دخلوا في

كهف الستر والتقية، أو أن اتباعهم في الهند قد انحازوا عند استيلاء بريطانيا على بلاد الهند[1].

ويختم إيفانوف مقالته بقوله:

[بعد نشر هذا المقال قمت بزيارة إلى بلاد إسماعيلية سورية حيث وجدت أن إيمانهم لا يزال سراً، ولكن يظهر أن إسماعيلية «مصياف» و «القدموس» وبعض القرى الصغيرة المجاورة في قلاع الدعوة ببلاد الشام هم من الفرع المنسي المذكور في هذا المقال]. (انتهى مقال إيفانوف).

وقد كتب لنا بعض الاسماعيليين قائلاً: آخر إمام معروف من هذا الفرع (المؤمني) كان الأمير «محمد باقر» الذي كان آخر اتصال له مع أتباعه في سورية في عام (١٢١٠ هـ ـ ١٧٩٦ م).

ولما فقد النزاريون المؤمنون السوريون بعد هذا العام الاتصال مع آخر إمام معروف من هذه السلالة «محمد باقر»، ثم بحث مبعوثهم في عام ١٨٨٧ في الهند عن سليل له ولكن دون جدوى عمد القسم الأكبر من الطائفة في سورية إلى الاتصال بآغاخان وموالاته.

وفي العام ١٩٥٧ م قام حوالي ثلاثين ألفاً من النزاريين في سوريا ممن يعيشون في السلمية وقرى نهر الخوابي بموالاة سلالة آغاخان، واستمر حوالي خمسة عشر ألفاً يعيشون في القدموس ومصياف وبعض قرى السلمية على ما كانوا عليه من العقيدة المؤمنية.

وإنه لمن المثير للاهتمام لو أن بعض من يقرؤون هذا الكلام من الذين تمكنهم مواقعهم من القيام بالاستعلام في مختلف أجزاء الهند، يبحثون عن أشخاص يدعون الانتساب لشاه طاهر، وكذلك عن مخطوطات من تأليفه.

إن معرفة مصير هؤلاء الأئمة لأمر مثير للاهتمام للغاية؛ هل انقطعت

---

(١) لو أن المسترق إيفانوف كان حيّاً لأعطيناه عنوان هذه الأسرة، وبيّنا له أسباب نزوحها من مدينة «أورنك آباد» الهندية (المترجم).

سلالتهم بغياب الوريث الشرعي أم أنهم استتروا؟ من المحتمل جداً أن يكون أتباعهم في الهند المضطرون لالتزام «التقية» والذين أصبحوا بلا إرشاد قد تحولوا أخيراً إلى سنيين غالباً (انتهى ما كتبه لنا).

الدعوة الطيبية

(الإمام الطيب): انتخب الحافظ عم الآمر بعد وفاة الأخير خليفة لعرش الفاطميين، للاعتقاد السائد بأن الآمر ليس له ولد، وبأن قصة ولادة بنت له ليس لها صحة. ويذكر المؤرخ المعروف المقريزي بأنه قد ولد للآمر ولد قبل وفاته، وكان له من العمر سنتان ونصف حين صار تحت وصاية شخص باسم ابن مديان وأربعة أشخاص آخرين ضمن مجلس لهذه الغاية. ويدل لقب الحافظ على أنه لم نختر خليفة، بل اختير منذ البداية لحراسة وحفظ الإمام الصغير. ويذكر أن الحافظ حينما استولى على الحكم تجاهل ادعاء الطيب، وأعلن نفسه خليفة. وفي خضم هذه الأحداث، استطاع أبو علي أحمد ابن الملك الأفضل الاستيلاء على الحكم، ثم رفض ادعاء الحافظ والطيب كليهما. والحقيقة أن ما وصلنا من أخباره يجعله غير واضح في تمذهبه، ولكنه مات في سنة ٥٣٦ هـ. فاستعاد الحافظ السيطرة على زمام الأمور.

في هذه الظروف، أخفى حراس الطيب إمامهم الطفل في مسجد باسم مسجد الرحمة، ويكتب المقريزي بأن الطيب اعتقل ثم قتل. واعتقد أتباع الطيب بأنه قد اختفى ولا تزال ذريته إلى اليوم مختفية، أي أن الإمامة عادت إلى دور الستر.

اليمن: كان يحكم في اليمن مكرم بعد وفاة أبيه الداعي علي بن محمد الصليحي. ثم توفي في سنة ٤٧٧ هـ، فأمسكت بالحكم زوجه السيدة أروى نيابة عن ابن مكرم الصغير علي عبد المستنصر وحين مات هذا أيضاً تصدت للحكم مباشرة. وكانت مع الفاطميين طول خلافهم مع النزاريين الإيرانيين ولكن حينما نشب الخلاف بين مدعي الخلافة الفاطمية الحاظ والطيب، فإنها اتخذت جانب

الإمام الصغير الطيب، ومن ثم قبلت الدعوة في اليمن واستقلت عن الفاطميين في مصر. وأصبحت ثانية رئيسة للهيئات الدينية لمجتمع الطيبيين، بقبولها الإمام المستتر.

حكمت السيدة أروى بمساعدة الآمر سبا والآمر سليمان حتى وفاتهما على التوالي في (٤٩١ هـ و ٤٩٣ هـ)، ثم قام لمساعدتها المفضل المعروف بدفاعه البطولي عن نظام السيدة. وتوفي هذا في سنة ٥٠٤ هـ. فسير الخليفة الفاطمي جيشاً بقيادة نجيب الدولة من مصر لإعادة السيطرة على الأوضاع في اليمن، فاستطاعت الملكة أروى رد هذا الجيش على أعقابه. واستعانت بتدبير الخطاب الحمداني الذي كان شاعراً فذّاً ومحارباً شجاعاً، في إدارة الدولة وشؤونها، وتوفي هذا أيضاً في سنة ٥٣٣ هـ.

كانت أروى تستشير الداعي لمك بن ملك في الأمور الدينية قبل الجميع، حتى توفي في سنة ٥١٠ هـ، وجلس محلّه الداعي يحيى بن لمك وتوفي هذا أيضاً في سنة ٥٣٠ هـ. فخلفه الداعي ذعيب الوادي في عمله، حتى كانت مسألة استقلال اليمن عن مصر في حياته سنة ٥٣٤ هـ. وفي نفس الوقت توفي الآمر وامتنع الداعي اليمني عن قبول الحافظ، ووكل الداعي الجديد قواعد مختلفة للمؤسسات الدينية لتأييد الإمام الطيب وخلفائه.

في ذلك الزمان كان الساحل الغربي تحت نفوذ اليمن وكان الإسماعيليون قد قبلوا الدعوة الذيبية. وأفلت زمام الأمور السياسية في اليمن من أيدي الإسماعيليين بعد وفاة الملكة أروى في سنة ٥٣١ هـ. ولكن دعوتهم الدينية ظلت قائمة حتى سنة ٩٤٤ هـ أي في الزمن الذي اضطروا فيه لنقل قواعدهم الدينية إلى ولاية گجرات في الهند. ولا يزال رغم ذلك بعض الإسماعيليين في جبال شمال اليمن، وسقطت حكومة ملوك (الداعي) في اليمن. وتركت وراءها إلى الآن الآثار الأدبية الواسعة في اليمن والهند، وكانت بذلك مَعْلماً متميزاً من معالم الاسماعيليين.

فرقة الخوجة

فرقة الخوجة اسم لمجتمعات تسكن المناطق التالية:

١ ـ في البنجاب، ٢ ـ في السند، كجة، كاتياور والساحل الغربي للهند، ٣ ـ بصورة مجاميع متفرقة باسم الموالي في ناحية هندوكشن وشمال غرب الهند وفي أفغانستان، وفي آسيا المركزية وفي النواحي الجبلية لشرق إيران وفي نواحي الخليج الفارسي من إيران، ٤ ـ في زنجبار وفي الساحل الشرقي لأفريقيا.

لا يرتبط الخوجيون في البنجاب بآغاخان ولكن عقائدهم الدينية تشبه العقائد الدينية لخوجيي بمباي، وهم هنود كما هو حال خوجيي بمباي، الذين انضموا إلى هذه الفرقة، ويشتغل جلهم بالتجارة ولهم أعراف وتقاليد هندية. وفي البنجاب أيضاً البراجا (Paracas). يتصسل خوجيو البنجاب بالحاج السيد صدر الدين الذي انحدر من خراسان إلى الهند في القرن الخامس عشر الميلادي كداعية للاسماعيليين النزاريين وتوفي في زمن دولة بهافالبور في تريينداگورجدي (Trind Gorgedi) في بيشكاري‌گوتجاني (Peshkari Cothcani)، وعرض أفكاره في إطار العادات الهندية إلى الهنود. وعرف بكتابه Das-Avatar الذي ذكر فيه ويشنو على أنه قائد إسلامي، وفي بحوث التجسيدات التسعة ذكر التجسيد الأول على أنه هندي. وعاشر تجسيد (في اللغة السنسكريتية nisalangka) ينتظره الهنود ويظهر في المستقبل إذا ما ظهر إمام الإسماعيليين. ولا يزال إلى اليوم خوجيو البنجاب وأتباع الخان وفروعهم في إفريقيا الشرقية يستفيدون من مواعظ صدر الدين في كتابه Das Avatar. ويتبع خوجيو البنجاب في الإرشادات العملية فقهاء القادرية وفرقة الجشتية وسائر المرشدين الذين تختلف عقائدهم الدينية عن عقائد هؤلاء اختلافاً كلياً.

تشكل هيئة الخوجيين في بومباي وشعبها في شرق إفريقيا، مجتمعاً فيه الكثير من الجاذبية وعلى اتصال مباشر بالخان (آقاخان). ويتوافق هؤلاء مع خوجيي البنجاب في عقائدهم الدينية لكن اتصالهم المباشر بالآقاخان جعلهم في

منأى عن سائر الطوائف الإسلامية الأخرى. وتحصل بينهم أحياناً بعض الانحرافات فمثلاً تحول بعضهم إلى المذهب السني في العقد السابع من القرن التاسع عشر الميلادي، وكذلك تحول بعضهم إلى مذهب الشيعة الاثني عشرية في سنة ١٩١٠ م على يد أحد المتخرجين من الغرب، ولهؤلاء مسجد خاص ومقبرة خاصة باسم (آرام باغ) ولكنهم على اختلاط مع سائر خوجيي بومبي.

وتُدار شؤونهم وفق القوانين المتداولة، فمثلاً لا ترى المحكمة العليا لبومبي أي ارتباط لهم بقانون الإرث الإسلامي ومن ثم حرمت المرأة من الإرث وفق قوانين الهندوس[١].

وينقل خوجيو بمبي الحديث عن داعية قديم ــ ليس طبعاً صدر الدين ــ هو نورستاگور أو بيرستگورنور، الذي ربما يكون قد عاش في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر الميلادي. وصنف إمامهم المرشد عبد السلام في حوالي سنة ١٥٩٤ م كتاباً باللغة الفارسية لإرشاد خوجيي الهند أسماه (مواعظ المروءة) (وكما هو بالفارسية: بندياد جوانمردي)، ليكون وثيقة قديمة عن المرشد السادس والعشرين في سلسلة مرشدي الخوجه.

ولمراسم الزواج والطلاق ومراسم التكفين والدفن عند الخوجيين في بومبي قوانين وشرع تختلف اختلافاً كلياً عن كل الفرق الإسلامية، وتتأثر هذه القوانين وهذه الشرع كثيراً بتقاليد وأعراف الهندوس. وإلى السنين الأخيرة تجري المراسم الحقيقية للزواج بواسطة القضاة الإداريين في إحدى مراسم الزواج فيگجرات اسم أربعة من الملائكة هم إسرافيل وعزرائيل وجبرائيل وميكائيل في أربعة زوايا. ولا يمكن أن يتم الطلاق ما لم توافق عليه الجماعة، وتستلزم الجماعة أيضاً رضا الطرفين. ولا يمكن أيضاً لشخص أن يجمع بين زوجتين حتى تؤيده الجماعة وفي هذه الحال يعطى لزوجه الأولى مبلغاً من المال. وهناك تقليد عجيب حين الوفاة

---

(١) مثلاً قضية سرجون مير علي، راجع سار سكين بري
Cases Illustrative of Oriental life and the Application of English law to India،
لندن، ١٨٥٣ م، ص ١١٠.

اسمه Samar chanta أو صب الماء المقدس على كتاب Das-Avatar.

تقتصر التشكيلات الاجتماعية في إطار المركزية المالية الكاملة لشخص الآغاخان، ولكن في المسائل الأخرى، مثلاً بخصوص الروابط والعلاقات توجد هناك استقلالية. لكل قسم توجد جماعة معينة (بلفظ الگجرات: جومان خانون) التي تقوم بدور المسجد ودور المجلس معاً، وهناك أيضاً المأمورون الذين يسمون بالمخي (Mukhi= رئيس، خازن) وكامريا (Kamaria= سكرتير، محاسب) وهؤلاء في أغلبهم يعينون من قبل الآغاخان ولكن في بعض الأحيان ينتخبون ويجمع هؤلاء الهدايا للإمام، مثل هدايا Dasonth أو العُشر وهدايا صغيرة في أيام خاصة مثل (عيد الشهر الجديد) وهدايا الولادات، والزواج والكفن والدفن وغيرها.

وليس في أيدينا معلومات كافية عن التشكيلات الحاضرة لأتباع الآغاخان في إيران، والهند المركزية، أو في حدود شمال غرب الهملايا، وهؤلاء من حيث المذهب، هم اسماعيليون من فرقة النزاريين أتباع الحسن الثاني التي تختلف عن الإسماعيليين المستعليين.

فرقة البهرة (Bohrah)

وهي من المجتمعات الإسلامية في غرب الهند (وأصلهم من الهنود المختلطين بالعرب اليمانيين)، وتعتبر من فرق المذهب الإسماعيلي، وترتبط بالذين كانوا يدافعون عن دعاوى المستعلي (٤٩٥ ــ ٤٨٧/ ١١٠١ ــ ١٠٩٤) في مطالبته بالخلافة الفاطمية بعد أبيه المستنصر، حيث انتفض المستعلي بوجه أخيه نزار الذي يسمى أتباعه في الهند (الخوجا) (khodjah)، ويشير اصطلاح البهرة إلى كلمة (تاجر) (المشتقة من كلمة Vohorvu الگجراتية التي تعني التجارة، وتزعم بعض الأسر الإسماعيلية أنها تنتمي إلى المهاجرين الحجازيين إلى مصر. وإقامة الدليل على ذلك صعبة، لكن قد حصلت بعض الزيجات الداخلية خصوصاً مع العرب اليمانيين من قسم المستعليين في أكثر الأوقات. وحصل أخيراً الزواج بين

السليمانيين والسنة، والشيعة، والهندوس وحتى الأوروبيين. ولكن أكثر أفراد المجتمع البهري لا يتزوجون من خارج مجتمعهم.

لا شك أن أجداد أكثر فرقة البهرة في الهند قد انضموا إلى هذه الفرقة بفعل الدعاة الإسماعيليين. ومن هؤلاء الدعاة شخص اسمه عبد الله كان قد أرسل من قبل فرقة الإمام المستعلي إلى الهند. ويقال إنه اختار الإقامة في كامباي (غرب الهند) وباشر بالدعوة النشطة هناك. ولهذه القصة عدة أطر وأشكال ذكر إحداها في كتيب الترجمة الظاهرة لفرقة البهرة الباهرة. وتوجد نسخة لهذا الكتيب في مكتبة الجمعية السلطانية في آسيا فرع بومبي. وقد ترجم هذا الكتيب إلى اللغة الإنكليزية بواسطة (ك.م. جهاوري) تحت عنوان Ahegendary History of Bohoras[1]

...

وطبع هذا الكتاب على يد هـ.م. فخر (طالب)[2]. وكتبت مواضيع أخرى، اختصت بمحمد علي، الذي يوجد مزاره اليوم في كامباي ويعد من أوائل دعاة الفرقة المستعلية في الهند (ت ٥٣٢ هـ ـ ١١٣٧ م). ثم وصلت إلى سدة الحكم في گجرات سلالة (جالوكيه انهيلاواذا)، ويبدو أن هذه السلالة الهندية لم تعترض سبيل الإسماعيليين ودعاتهم، بل حثتهم على المضي قدماً في دعوتهم، وأحرز هؤلاء نجاحاً في مساعيهم. وفي عام ١٢٩٧ انتهت فترة حكم هذه السلالة، وعادت گجرات لتنضوي تحت سلطة حكومة دلهي لفترة من الزمن. ولم تصف الأجواء لفرقة البهرة في گجرات، إذ كانوا أحياناً عرضة لملاحقة ومطاردة بعض الحكام المستقلين في گجرات (١٣٩٦ ـ ١٥٧٢).

ظل رئيس هذه الفرقة مقيماً في اليمن حتى عام (٩٤٦ هـ ـ ١٥٣٩ م) حياً، حيث كان أتباع هذه الفرقة يسافرون لزيارته، ويسددون إليه العُشر، ويستشيرونه فيما يقصدون الإقدام عليه، وفي عام ٩٤٦ هـ هاجر يوسف بن سليمان إلى الهند واختار الإقامة في سيذبور (دولة بومبي)، وبعد خمسين سنة، أي بعد وفاة الداعية

---

(١) في مجلة IBBRAS، ١٩٣٣ م، المجلد التاسع، صفحات ٣٧ ـ ٥٢.
(٢) مجلة IBBRAS، ١٩٤٠ م، المجلد السادس عشر، ص ٨٨.

داود بن عجب شاه في عام (٩٩٦ هـ ــ ١٥٨٨ م) حدث انشقاق في هذه الفرقة، حيث انتخب بهرة گجرات ــ الذين يشكلون الأغلبية بين أفراد الفرقة ــ داود بن قطب شاه خليفة لسلفه، وبعثوا بنص الانتخاب إلى أصحابهم في اليمن، ولكن بعد فترة، حدث أن انتخب عدد محدود من أفراد هذه الفرقة، شخصاً باسم سليمان كان يدعي الخلافة الحقيقية لداود بن عجب شاه. ولا تزال هذه الوثيقة محفوظة لدى الدعوة السليمانية ولكن لم تثبت صحتها لا من الناحية القانونية ولا من الناحية العلمية.

توفي سليمان في أحمد آباد، ولا يزال مرقده ومرقد منافسه داود بن قطب شاه، موضعاً لاحترام أتباعهما. وقد عرف مؤيدو سليمان باسم السليمانيين، وكان داعيتهم في اليمن. ويُدعى ممثله الرئيس في الهند باسم (المنصوب)، وكان مركز دعوة السليمانيين في (بارودا)، حيث يحوي مكتبة جيدة تضم بين جنباتها نسخاً خطية للإسماعيليين. والفرق الرئيسي بين الجماعتين هو: استخدام الداوديين لنوع من اللغة الگجراتية المفعمة بالكلمات والعبارات العربية، وهم إلى ذلك يكتبون رسائلهم الرسمية بالخط العربي، ويلقون مواعظهم باللغة العربية، بينما يستخدم السليمانيون لغة الأردو في كل مجالات حياتهم.

وعادة، يقيم رئيس فرقة البهرة الداودي في بومبي، إلا أن قاعدتهم في سورات وتعرف باسم دورهي (Deorhi)، وفي كلتا المنطقتين، ثمة مجموعات جيدة لنسخ خطية عن الإسماعيليين وفي سورات ثمة مدرسة عربية تدعى (الجامعة السيفية) نسبة إلى الداعية طاهر سيف الدين.

ولقب الداعي المطلق، وهو اللقب الرسمي، غالباً ما يستخدم بدلاً عنه (ملاجي صاحب) أو (سيدنا صاحب)، ويكن أتباعه له الكثير من الاحترام.

وفي مجتمع البهرة، ثمة أفراد خاصون لمراسم الزواج والتكفين والدفن والعبادات، يسمون بالعمال، ويتم اختيارهم من قبل (ملاجي صاحب)، وهم في الواقع خدام هذه الدعوة. ولهؤلاء أعمال ووظائف تشبه وظائف وأعمال القضاة

السنة ولكنهم يتباحثون في أمورهم مع (ملاجي صاحب)، ويتمتعون في اتباعهم بنفوذ واسع.

ومن خصائص مجتمع البهرة في الهند، وفي الأماكن الأخرى، أنهم يقسمون إلى عدة أصناف، ولا يرتبطون مع غيرهم بروابط الزواج، وليس لهم كبير دور في الأمور العامة. وبصورة عامة، فإنهم يشتغلون في التجارة، ولكن في بعض نواحي الهند وسيلان وشرق إفريقيا وخصوصاً بين أوساط السليمانيين، فإن بعضهم دخل المجالات العملية العامة، واشتغل في خدمات الدولة.

وبين الداوديين، هناك مجموعتان مهمتان، جديرتان بالذكر، هما: ١ — البهرة العلية، الذين وقفوا إلى جانب علي حفيد الشيخ آدم، الملا الكبير عام ١٦٢٤ م. في قبال الشيخ الطيب، الذي كان الشيخ آدم قد عزله عن خلافته. ٢ — البهرة النگوشيائية (Nagoshias)، الذين انشقوا عن الفرقة العلية عام ١٧٨٩ م.

والبهرة الجعفريون، الذين تمتد جذورهم إلى البهرة الداوديين تحولوا إلى المذهب السني في زمن حكومة مظفر شاه (٨١٣ ـ ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧ ـ ١٤١١ م) وملوك گجرات الذين أعقبوه، وأكثر أتباعهم من الهنود، ويستمدون اسمهم من شخص مقدس يدعى سيد أحمد جعفر الشيرازي (القرن الخامس عشر)، الذي تعاقبت ذريته على خلافته.

والبهرة يحتفظون بكتبهم سراً لأنفسهم، إلا أنهم طبعوا في الفترة الأخيرة بعض هذه الكتب مثل: (دعائم الإسلام) في مجال الشريعة، و (سيرة سيدنا المؤيد) في التاريخ، و (راحة العقل ورسالة الجامعة) في الفلسفة، ويمكن العثور على تفصيلات جامعة حولها في كتاب إيفانوف (Guide To Ismaili literature) ـــ لندن ١٩٣٣ م وفي خصوص معتقداتهم وأفكارهم هناك كتاب باللغة الأردوية لزاهد علي تحت عنوان (Hamare Esmaili Madhat awy uski haskikat)[(١)].

---

(١) آصف فيضي.

رحلتي إلى قلعة ألموت

عندما قرأت أن المستشرق الروسي ايفانوف زار قلعة ألموت بحثاً عن الحقيقة فيما يقال عن الإسماعيليين النزاريين الذين كانوا موضع دراسته، أعجبني أن تبلغ العناية بتقصي الحقائق إلى حد احتمال المشاق المرهقة في سبيل الوصول إليها.

ولم أعلم كيف وصل إيفانوف إلى ألموت، لأن من ذكر ذهابه إليها لم يذكر شيئاً عن تفاصيل هذا الذهاب. ولكنني كنت أعلم من مطالعاتي أن الوصول إلى ألموت ليس أمراً سهلاً، بل هو رهق أي رهق، لا يشجع على زيارتها، بل يصد عنها.

وفي آخر سفر لي إلى إيران سنة ١٩٨٨ م تعرفت على الكاتب البحّاثة المؤرخ الأستاذ عبد الحسين الصالحي، فذكر فيما ذكر زيارة ألموت، ولكن كان الفصل شتاءً مما لا يسمح بالتفكير في هذه الزيارة.

وفي العام ١٩٨٩ زرت إيران من جديد، ولقيت في طهران الأستاذ الصالحي، ومعه صهره حسن آغا مير بهاء فرغباني بزيارة ألموت، واسترسل حسن آغا في تهوين الوصول إليها، قائلاً: إن السيارة تصل إلى مكان يبعد ٨٠٠ متر عن القلعة، وأن هذا البعد يمكن اجتيازه على ظهر دابة، وبذلك أتجنب الصعود المرهق إلى قمة الجبل مشياً على الأقدام.

فأغراني هذا التهوين وصممت على الذهاب.

وفي اليوم السادس من شهر نيسان سنة ١٩٨٩ في الساعة الحادية عشرة كنّا نخرج نحن الثلاثة في سيارة حسن آغا من طهران متجهين إلى مدينة قزوين في المرحلة الأولى من الرحلة.

في طريق قزوين

بعد خروجنا من طهران كانت تمتد على يميننا سلسلة جبال (ألبرز) الطويلة

وكان بعضها مكللاً بالثلوج. وكنّا نسير باتجاه الغرب في سهول مديدة، والجبال تسايرنا فتنخفض حيناً وترتفع أحياناً، وكانت تبدو وكأنها سلاسل لا سلسلة واحدة، ما انخفض منها هو السلسلة الأولى، وما تعالى هو سلسلة أخرى، الله أعلم ما وراءها. وقد علمنا نحن بعد ذلك الشيء الكثير عن هذا (الوراء) كما سنقص على القارىء فيما يلي من القول.

بعد ثلاثين دقيقة كنّا نمر بأطراف مدينة (كَرَج) التي كانت تمتد عرضاً حتى تتصل بسفوح جبال ألبرز، هذه الجبال التي كان قد انتهى المنخفض منها، ولم يبق أمام أبصارنا إلا الشاهق السامق.

وكنا نسير بعد (كَرَج) في سهول قاحلة مع أننا في عز الربيع، ويبدو أنها سهول صحراوية لا تُنبت، وهكذا يتجاور هنا الضدان: الصحراء والجبال، ضدان تجمع بينهما الجدوبة!..

ثم بدت الأشجار إلى يمين الطريق وطلع الإخصاب وظهر العمران، وتجلّت الحياة العملية عن معمل للإسمنت من أكبر معامل الشرق الأوسط، تمده جبال ألبرز بما لا ينتهي مما يغذيه من حجر ومدر!.. ويتصل المعمل ببلدة (آب يك) التي بدت لأنظارنا في عرض السهل الواسع...

بعد تسعين دقيقة كنّا نمر بمعسكر كبير إلى يسارنا تتعالى في طرفه عمائر عالية هي مساكن الضباط، وكنّا قد صرنا في سهول قزوين على بعد ٣٥ كيلومتراً من المدينة.

وهذه السهول مملوءة بمزارع الدجاج التي تنتج ما يقرب من ثلث منتجات إيران كلها، ثم هي أيضاً مزارع للبقر والماعز والغنم مما يعطي كل يوم ٤٥ طناً من الحليب ومقادير كبيرة من اللحوم.

وعلى بعد ٢٥ كيلومتراً من قزوين يشاد معمل ضخم للكهرباء رأينا معالمه واضحة، ثم بدت إلى يميننا بلدة (كوندج) ثم قرية (حصار). ثم المدينة التي تشاد حديثاً باسم (زيبا شهر) وهي مدينة للعمال الذين يعملون في مدينة (شهر صنعتي

ألبرز) الذين يبلغ عددهم ٣٠ ألف عامل يعملون في معامل منوعة يبلغ عددها ٤٥٠ معملاً ما بين كبير وصغير.

مدخل قزوين

وعلى مداخل قزوين بدت بساتين اللوز والفستق المزهرة التي تحيط بقزوين، ودخلنا المدينة في مدخل جميل من شارع واسع بين صفين من الأشجار هو شارع الطالقاني. والأشجار هي ميزة شوارع القسم الحديث من قزوين، حتى أن شارعاً ضيّقاً لا يتسع لصفين من الأشجار، اكتفوا بأن صفّوا الأشجار على طرف واحد منه لئلا يحرموه من الشجر.

وعلى ذكر الشجر، فإن التفاح الذي اشتهر به لبنان قد استقدم القزوينيون أغراساً منه إلى مدينتهم منذ ٢٥ سنة فنجحت كل النجاح وأصبح تفاح قزوين يسد حاجة إيران، وما زاد عن ذلك يصدر إلى دول الخليج.

قبر حمد الله المستوفي

إذا كنا قد ذكرنا الأشجار في شوارع قزوين الحديثة فإن هذه الأشجار لا أثر لها في القسم القديم من قزوين، ولو أريد تشجيرها فهي لا تتسع لهذا التشجير لضيقها، شأنها شأن الشوارع القديمة في كل المدن.

وفي جولة على بعض المعالم الأثرية في قزوين زرنا قبر المؤرّخ حمد الله المستوفي الذي احتفظت قزوين بقبره فلم يندثر كما اندثر غيره من قبور العلماء والشعراء والمؤرخين، وهو قائم في قزوين القديمة عند مدخل شارع الصوفيين وسط حديقة فيها أشجار مزهرة وأشجار غير مزهرة، وهو داخل سرداب في غرفة عليها قبة خضراء مخروطية الشكل، مزنّر أسفلها بأحجار الكاشي الزرقاء المملوءة بكتابات عربية لم نستطع قراءتها لارتفاعها، وللغرفة باب خشبي قديم محفور عليه كتابات عربية، والحديقة مسيجة بسياج حجري فوقه سياج حديدي.

معالم أثرية

وفي قزوين بقايا دور وقصور صفوية، فقد كانت قزوين عاصمة للصفويين فترة من الزمن، ولا يزال أحد قصورهم عامراً وسط حديقة غناء واسعة، وقد اتخذ متحفاً لما ظهر ويظهر من الآثار في قزوين.

وفيها المسجد الجامع الذي يعود إلى العصر العباسي الأول، وفي مدخله الأول تجديد قاجاري وتجديد صفوي في المدخل الثاني الذي يلي المدخل الأول، وبين المدخلين ممر عريض. ويؤدي المدخل الثاني إلى صحن واسع جداً فيه بعض الأشجار، وهو ترابي الأرض ما عدا القليل منه.

وفي هذا المسجد بقايا بويهية وسلجوقية وايلخانية، ويضم عدة أواوين تقام اليوم في كل إيوان منها صلاة الجماعة.

وسرنا إلى تل كبير عرضاً وطولاً قيل لنا إنه بقايا قصر عباسي لأحد حكام المدينة العباسيين ميمون بن عون الكاتب الذي كان والياً للخليفة المهدي. ومما زرناه (مدرسة النواب) التي زارها محمد بن الحسن الحر العاملي صاحب كتاب (أمل الآمل)، وهي تبنى الآن من جديد في ثلاثة طوابق مع سرداب وهي معدة لسكن طلاب العلوم الدينية، ونفقات بنائها من تبرعات المؤمنين.

ولا تزال في قزوين بيوت قديمة جداً تعطي صورة عما كان عليه طراز البناء القديم وهي بيوت مبنية من طابقين، لكل واحد منها شرفة مستطيلة مطلة على الشارع لها حواجز خشبية وأعمدة خشبية تدعم سقفها. وبعض هذه البيوت بال غير مسكون، وبعضها مسكون هو أقل بِلى:

بيوت آل البرغاني

آل البرغاني أسرة علمية كبيرة نبغ منها أعلام العلماء الذين كانت لهم السيادة العلمية في قزوين، وحين انقسمت المدينة مذهبياً إلى قسمين: قسم أخباري ساد في القسم الغربي من المدينة، وقسم أصولي ساد في القسم الشرقي منها كان يفصل

بين القسمين نهر يجري من الشمال إلى الجنوب، وقد غُطي اليوم وأصبح غطاؤه شارعاً.

في ذلك الوقت كان آل البرغاني يسكنون في طرف القسم الغربي، وكانوا من حماة الرأي الأصولي. ومن أخبار بيوتهم أن في أحدها عقد الاجتماع الشهير بين الشيخ أحمد الاحسائي وبين علماء قزوين لمناقشة الشيخ أحمد في آرائه المغالية التي أثارت نقمة الناس، وانتهت المناقشة بالحكم بتكفير الشيخ أحمد.

وقد تحول أكثر بيوت آل البرغاني إلى محال تجارية لا تزال تملكها سلالاتهم التي حملت اليوم أسماء عديدة كآل الصالحي وآل الشهيدي. ولم يبق منها من يحمل اسم (البرغاني).

واحتراماً لذكرى آل البرغاني لا سيما شهيدهم الشيخ محمد تقي الذي اشتهر باسم (الشهيد الثالث)، زرنا منزله الذي جرت فيه المناظرة مع الأحسائي، فدخلنا أولاً في دهليز انحرفنا منه إلى باب نزلنا منه في درجات أدّت بنا إلى باحة الدار التي رأينا فيها بعض الشجر.

القسم الجنوبي من الدار مسكون من بعض أحفاد الشهيد. وأما القسم الشمالي فغير مسكون وفيه القاعة التي جرت فيها المناظرة. وتقام في القاعة الاحتفالات الدينية، وقد أفرز من القاعة قسم خصص للنساء مفصول بحاجز خشبي، وينفق على الاحتفالات من موقوفات الأسرة.

كما زرنا المدرسة الصالحية المنسوبة إلى الشيخ صالح البرغاني الذي كان من أشهر علماء الأسرة والذي خرّجت مدرسته كبار العلماء، فدخلناها من باب ذي مصراعين خشبيين كبيرين ونزلنا في درجات أخرى أفضت بنا إلى باب حديدي حديث دخلنا منه إلى ساحة واسعة فيها بعض الأشجار، وعلى جوانبها غرف بطابقين لا تزال على بنائها القديم وأبوابها القديمة. ويسكن هذه الحجر اليوم ستون طالباً من طلاب العلوم الدينية.

وهذه المدرسة هي المدرسة الكبرى، وهناك الوسطى والصغرى المتصلتين

بها. وفي هذه المدرسة سكن السيد جمال الدين الأفغاني حوالي ثلاث سنين ودرس فيها الفلسفة الإسلامية على ملا آغا الحكمي القزويني.

وبعض جوانب المدرسة هي اليوم خراب كما أن أرضها خربة. وصعدنا إلى سطح المدرسة فبدت أمامنا قزوين، وبدت تحتنا دار الشيخ صالح خراباً متهدمة فهي مجرد أرض خالية إلا من بقايا عمران، محاطة بأربعة جدران.

كما أشرفنا من السطح على منزل (قرة العين) الشهيرة الذي سكنته بعد زواجها وانتقالها إليه من بيت أبيها الشيخ صالح. والمنزل خرب متهدم.

إلى ألموت

لم نقض في قزوين سوى يوم واحد هو نفس اليوم الذي وصلنا فيه إليها، وبتنا ليلاً ثم بكرنا في اليوم الثاني متّجهين إلى قلعة ألموت حيث خرجنا في الساعة الثامنة، وكنا نحن الثلاثة الذين قدمنا من طهران، وانضم إلينا المهندس نصرة الله كاظمي الذي كانت سيارته اللاند روفر الضخمة التي يسوقها بنفسه وسيلة انتقالنا إلى ألموت، لأن طريق ألموت لا يمكن أن تسلكه إلا مثل هذه السيارات القوية. وهو طريق ترابي معبد منذ عشرين سنة تقريباً عبر الجبال الصلدة العالية، ومع ذلك لا يصل إلى ألموت بل ينتهي قبلها بمسافة بعيدة، ويبقى أمام السيارة طريق عسير مشقوق بشكل بدائي.

بعد خروجنا من قزوين انعطفنا في طريق ألموت متجهين إلى الشمال عبر سهول واسعة خضراء بمزروعاتها المختلفة وكنّا ندنو من جبال ألبرز الممتدة شرقاً وغرباً إلى ما لا نهاية له، العالي منها مكلل بالثلوج. وكنا نمر ببعض البساتين المنتشرة هنا وهناك. وأخذت الجبال تتضح لنا تدريجياً، ثم مررنا بقرية (كورانه) الصغيرة، ثم بقرية أخرى يخفق في وسطها علم إيراني وبقرية ثالثة فيها بعض البساتين المزهرة.

وهنا أضحت الجبال أمامنا واضحة جلية، ولما وصلنا قرية (رشتفون) وأشرقت لأبصارنا أزهار بساتينها كنا قد دنونا من سفوح الجبال، وهنا انتهى

الطريق (المسفلت) وبدأنا في طريق ترابي طويل، ولم نلبث أن صرنا في واد بين جبلين، ثم أخذنا بارتقاء الجبال التي كانت أشجارها مزهرة على يميننا وعلى شمالنا، وكان نهر صغير ينساب بينها.

صعود. . صعود. . ، صعود مستمر في قلب الجبال الشاهقة، ومررنا بقرية (يزدجرد)، ومن العجيب أن يكون مصير اسم (يزدجرد) آخر الأكاسرة هو إطلاقه على هذه القرية البسيطة!.

وانتهت الزروع، وأوغلنا صُعُداً في صميم الجبال حتى دنونا من القمم المكسوة بالثلوج ثم رحنا في صميمها مصعدين. .

جبال إلى يميننا، وجبال إلى يسارنا، وجبال أمامنا، وقطعان من الخراف ترعى في الجبال!. .

أبداً نحن في صعود عنيف مستهدفين الذروات العليا بين بقايا الثلوج، وبلغنا الذروات نمشي بينها غير مصعدين كأننا في سهل مديد، ولم نلبث أن عدنا إلى الصعود، وفوجئنا بمقهى على الطريق بين الأشجار.

صعود في صعود خلال القمم حتى بلغنا أعلاها بين الثلوج، فاستبدلنا الانحدار بالصعود سائرين بين القمم، وأمام أبصارنا سلسلة طويلة، عريضة، عالية، شامخة من الجبال المغطّاة بالثلوج.

وبعد مرورنا بقرية (خنجر بلاق) الواقعة إلى يسارنا في حضن الجبل، صار الانحدار بين الثلوج شديداً، ثم بدت إلى يسارنا عن بعد قرية (مرك).

إن السلسلة الجبلية العظيمة المقابلة لنا والتي نهبط نحوها هي معاقل حسن الصباح التي نحاول الوصول إليها.

هنا فلاح يحرث على البقر وبعض الشجر، ثم فلاحان آخران يحرثان، ونحن في انحدار متواصل كنّا انتهينا فيه من الثلوج، حيث عنف الانحدار واشتد، فبدا اخضرار الأعشاب حولنا كنا بدا بعض الشجر وبعض الأرض المزروعة، ثم ظهر في الأودية كثير من الشجر، وبدت قرية (قسطين لار) إلى يميننا في المنحدر

بأشجار بساتينها المزهرة. ثم كان إلى يميننا أودية هائلة، وتابعنا الانحدار المتواصل، فشاهدنا قطعاناً من الغنم والماعز في مراعيها، ورأينا فلاحاً على حماره صاعداً في طريق الجبل كما رأينا أرضاً محروثة.

أما إلى الوراء فعندما تلفتنا إلى ما كنا فيه مما ننحدر عنه الآن، فقد رأينا أن ما خلفناه وراءنا موغلين في الانحدار، كان جبالاً هائلة رهيبة!.

ثم بدت أمامنا في السفوح البعيدة بعض القرى. كل ذلك ونحن ننحدر هابطين وقد أحاط بنا بساط أخضر.

إن الذي أمامنا والذي وراءنا: جبال ووديان وشعاب وتلال وثنايا من أعجب وأروع ما خلق الله في الطبيعة.

هذه قرية (سياه دشت) تبدو في حضن الوادي الذي صرنا على حافته، وتقوم على ضفة نهر (شاهرود) الذي عبرناه على جسر حديدي واصلين إلى القرية.

نحن الآن في قلب الوادي الذي هو سهل واسع بين السلسلتين الرهيبتين، لقد هبطنا من السلسلة الأولى وأخذنا نصعد في السلسلة المقابلة.

وإذا كنت أقول: سلسلتان، فلا يعني أنهما سلسلتان وحيدتان.

إن الجبال هنا سلاسل وراء سلاسل.. وراء سلاسل.. إلى ما لا يمكن أن تعيه وتدركه.

بدأنا الصعود في أرض جرداء، وتلفَّتنا إلى الوراء فرأينا ما جعلنا نكاد لا نصدق أننا كنّا هناك في تلك الجبال الثلجية المرعبة، وأننا هبطنا منها لنواجه ما هو أشد إرعاباً!..

كان الصعود أول الأمر غير شاق مضينا فيه بين اخضرار من حولنا، ثم عدنا إلى الانحدار الطويل البعيد الغور حتى صرنا في واد ضيق يجري فيه نهر (أوان) الذي هو من روافد نهر شاهرود، وعبرناه على جسر لنعود إلى الصعود من جديد،

وأوغلنا في الصعود أي إيغال، ورأينا قطعاناً من الغنم، ثم مررنا بقرية (بيكين) مجتازين وسطها ببيوتها الطينية.

ولسكان هذه القرية وسكان أربع قرى أخرى غير بعيدة عنها، وأربع قرى أخرى بعيدة في (رودبار) حديث لا بد من إيجازه هنا. وهذه القرى هي: وسته، ويـوج دُرجـاك، وتلـو، وأسـب مـرد، وسـوختـه كـش، وكـش آبـاد، ورتـايـان، وزنا سوج، وهلارود، وصبوجين، وديكين، وابيترك.

إن لسكان هذه القرى عقيدة دينية سرية لا يظهرونها لأحد، ويكتمونها كل الكتمان، فقال بعض الناس عنهم إنهم زرادشتيون، وقال آخرون إنهم إسماعيليون نزاريون، ولكن كلا القولين لا يصح، فالزرادشتيون موجودون علناً في إيران لا يخفون عقيدتهم. وكذلك النزاريون.

وقد حاول أحد الباحثين إعداد دراسة جامعية عنهم فاتصل بهم فلم يحظ منهم بطائل.

وحدثني رفيقنا الأستاذ عبد الحسين الصالحي أنه صادق واحداً منهم وأوجد له عملاً يعتاش منه، فلما سأله عن حقيقة عقيدتهم لاذ بالصمت المطبق، ولما كرر عليه السؤال بعد ذلك ترك عمله الذي أصبح مورد رزقه وانقطع عن الأستاذ الصالحي، وصار إذا رآه حيّاه مبتعداً بإشارة من يده متجنّباً لقاءه.

ويطلقون عليهم في إيران اسم (كلاّبُز).

وقد عرفنا بعد ذلك من عقيدتهم أن الطلاق عندهم ممنوع، وإذا حدث أن طلّق أحدهم زوجته فإن أحداً منهم لا يتزوجها، وإذا مات الزوج لا تتزوج زوجته بعده، وأنهم يصومون في السنة ثلاثة أيام. وهم يحرمون أكل لحم الحيوان الحامل، ويحرمون أكل رأس الماعز، وربما لذلك ولما يأتي كان اسمهم (كلاّبُز)، فإن معنى كلمة (كلاّ) الرأس، ومعنى كلمة (بُز) الماعز.

وهم يحرمون أكل الجبن، ولا يزوجون أحداً من غيرهم، ولا يتزوجون من غيرهم.

ولديهم جلسة سرية سنوية تعقد في أول ليلة في فصل الشتاء هي أطول ليلة وأقصر نهار. وعندما يجتمعون في هذه الجلسة يضعون حرساً حول مكان الاجتماع لئلا يدخله غريب عنهم، ويطبخون رأس عنزة ويتناولون منه بعد بركة الشيخ ويقرؤون بعد ذلك دعاء. ويسمون هذه الليلة (شب يلدا) أي ليلة يلدا.

هذا ما انكشف من أسرارهم، ولكن من الأكيد أن عندهم أسراراً لم يكشفها أحد بعد.

على أن من الغريب ما حدثنا به السيد ناصر القوامي، وهو من أفاضل العلماء ومخالط لهم أنهم في مظاهرهم لا يختلفون عن المسلمين في شيء، فلهم مساجدهم ويصومون ويصلون ويفعلون كل ما يأمر به الإسلام، حتى إن واحداً منهم جُند في الحرب العراقية الإيرانية الأخيرة، فكتب وصية قبل ذهابه إلى الحرب وجعل السيد ناصر وصياً، وكان مما أوصى به مبلغ من المال ينفق ـ إذا قتل في الحرب ـ على بناء مسجد، فنفذ الوصي الوصية وقبض المال وبنى المسجد.

وأوغلنا في الصعود.. صعود.. صعود.. منتحين القمم العالية، ومررنا بقرية من بضعة بيوت اسمها (مياني خاني). وكانت القمم التي نقصدها تبدو أمامنا قمماً هائلة، وكنا في الوقت نفسه نمشي بين القمم قاصدين القمم الأعلى.

ووصلنا قرية (مُعلّم كلايه) التي ترتبط بها أربع قرى أخرى هي أكبرها، وتبدو على القرية مظاهر حضارية عكس القرية السابقة (بيكين) التي هي قرية بدائية.

ومن القرى التي ترتبط بقرية (معلم كلايه) قرية (شمس كلايه) التي تقع في سفح قلعة من قلاع الاسماعيليين النزاريين، هي عبارة عن كهف كبير يتداخل في كهوف أخرى متصلة به. ويسمونها هناك قلعة (شمس كلايه) ولا ندري هل أن القلعة أخذت اسمها من القرية أم أن الأمر بالعكس.

وقد وصفها لنا بما قلنا أحد الأشخاص القلائل الذين استطاعوا الوصول

إليها، لأن الوصول إليها يكاد يكون مستحيلاً. وقيل لنا إن المعروف هناك أن الإسماعيليين كانوا يصعدون إليها بسلالم من الحبال يدلي من بداخلها إلى من يريدون الوصول إليها منهم.

كنّا طوال سيرنا نسير في طريق من أعجب الطرق، فما نكاد نخترق سلسلة من الجبال حتى ننتهي إلى سلسلة أخرى، فنهبط ثم نصعد، ثم نهبط ثم نصعد. . وهكذا.

كنّا نسير تارة بين تلال هي في الحقيقة. قمم الجبال، وتارة في جبال، وتارة في وديان هي في الحقيقة ثنايا الجبال.

إننا الآن نهبط ونهبط وحولنا زروع وأمامنا الجبال التي هي أشد هولاً من كل هائل مررنا به.

لقد عرف الحسن الصباح كيف يختار معاقله. فأي جيوش تستطيع سلوك هذه المسالك؟!.

كانت قلعة (شمس كلايه) أشبه بمخفر أمامي استطلاعي يراقب من يحاول التقدم، ومن الذي يستطيع التقدم من هنا؟!.

نحن الآن نهبط، ونمعن في الهبوط حتى صرنا في قلب الوادي، ووصلنا قرية (شهرك).

هذا الوادي هو لزراعة (الرز) لكثرة مياهه، عبرنا فيه على جسر رافد من روافد نهر شاهرود، ثم على رافد آخر قريب منه. وانطلقنا في قلب الوادي حتى اجتزنا بقرية (دوزدك سر) على جسر لرافد ثالث للنهر الكبير، ثم بقرية (محمد آباد) المتصلة بالقرية الأولى. ولا نزال نسير في الوادي الروي البعيد المدى، وهذا جسر رابع على رافد رابع، وهذه قرية (شترخان) نمر بها إلى رافد خامس ولكنه صغير لم يقم عليه جسر فعبرناه وسط المياه.

وهنا كان قد انتهى الطريق المعبّد، فوجب علينا أن نسير في طرق يصعب

فيها السير ويشق، فواصلنا السير مارِّين على جداول متتابعة، هي الأخرى روافد صغيرة لنهر شاهرود الكبير.

ثم بدأ الصعود الجبار في جبال من أعجب ما في الدنيا من جبال، وكانت لا تخلو من حقول مزروعة وأشجار مبثوثة، وإذا بنا نعود إلى الانحدار العنيف عابرين على جدول، عدنا بعده إلى الصعود العنيف حتى قرية (كازرخان).

ولندرة ما يمر بهذه القرية من سيارات كان وصول سيارتنا إليها عاملاً على تجمهر أطفالها مستطلعين متعجبين، بل عاملاً على تجمهر بعض الرجال أيضاً.

وهذه القرية (كازرخان) تقع على مقربة من سفح قلعة (ألموت)، وتواجهها القلعة على القمة القريبة، ويفصل بينهما واد على شكل خندق كبير، والقرية محاطة بالأشجار من كل جانب.

وكان وصولنا إلى القرية في منتصف الساعة الثانية عشرة، أي أننا قضينا في الطريق ما بين مدينة قزوين وبين قرية كازرخان في سفح قلعة ألموت ثلاث ساعات ونصف الساعة.

وبدت القلعة حيالنا على قمة صخرية كبرى تمتد وراءها الجبال الصخرية. وكان على السيارة أن تقف هنا فلا تتعدى ما بعد القرية إلا مسافة لا تتجاوز مئات الأمتار، إذ لا سبيل للسيارة إلى تجاوز ما وراء ذلك.

وتقدمنا نحن قليلاً إلى ما هو أقرب إلى موقع القلعة حتى صرنا في سفح صخرتها الضخمة على قيد أمتار من القاعدة.

وبدا موقع القلعة فوق الصخرة الهائلة، محاطاً بالجبال شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وهي في قمة جبل تكتنفه الوديان الفاصلة بينها وبين الجبال.

ويجري جدول صغير منحدراً في سفوح صخرة القلعة، وتُرى قطعان من الضأن ترعى في سفوحها المنبتة.

لقد أوصلتنا السيارة إلى سفح قلعة ألموت عابرة ما عبرت من جبال شامخة

وأودية سحيقة، وحطت بنا على السفح المنشود، وها نحن غير بعيد عن القلعة التاريخية العظيمة. ولكن هذا الذي يبدو لأعيننا غير بعيد، كان في الحقيقة بعيداً كل البعد، بل إن بعده هذا الذي هو غير بعيد ـ يحول بيننا وبين الوصول إليه؟!

ماذا؟ أأتكلم بالألغاز؟! لا ألغاز ولكنها حقيقة واضحة، تبدو وكأنها من صميم الألغاز!.

بيني وبين الوصول إلى صميم القلعة مسافة تعد بمئات الأمتار، ولكن هذه الأمتار ممعنة في الصعود.

إنها قريبة بالرغم من إمعانها هذا!!.

ولكن إذا كانت المسافة المكانية بيني وبين القلعة تعد بمئات الأمتار، فإن المسافة الزمنية بيني وبينها هي إحدى وثمانون سنة.

إحدى وثمانون سنة من العمر هي التي تفصل الآن بيني وبين القلعة!. فكيف لي وأنا أحمل هذه السنين الثقال بأن أصعد الجبل على قدميّ إلى قلعة حسن الصباح؟!.

لقد كان لحسن الصباح فدائيوه الذين طالما قذف بهم إلى اغتيال من ناوءوه وعادوه، وفكرت وأنا في سفح قلعته في ذلك!. واستعرضت في ذهني مواقفي منه، وهل هي مما يسلكني في صف من يستحقون أن ينالهم فدائيوه بالشر؟ وما يدريني أن لا تكون قلعته بموقعها الشامخ معدة إعداداً محكماً لاغتيال من يغضب عليهم حسن الصباح وهو في قبره، فتقتلهم وهم يحاولون الصعود إليها؟!.

استعرضت مواقفي من حسن الصباح، فرأيت أنني إذا كنت قد أغضبته بإنكاري عليه الانشقاق الخطير الذي أحدثه في الصف الموحّد، وإنكاري على خلفائه ما ابتدعوه من العقائد، فكان وكانوا السبب في استغلال خصوم الدولة الفاطمية العظيمة لكل ذلك بنسبة ما هي بريئة منه إليها.

إذا كنت فعلت ذلك، فإني في الوقت نفسه قد أحسنت الدفاع عمّا نسب إليه وإلى جماعته من بعده من تهم باطلة لا أصل لها..

فهل تمحو الحسنة عنده السيئة فلا تنالني الآن قلعته بالشر إذا عزمت على الصعود إليها؟! أم أن حقده وحقد قومه قد وصل إلى جماداتهم فلا تنسى السيئات، وتكون الآن فرصتها للانتقام؟!.

لم يكن هناك مجال للتردد لأن خوف الصعود مشياً على الأقدام قد أزاله إحضار (حمارة) من القرية أعدها الرفاق لي، فامتطيتها ومضت صاعدة بي وأنا لا أكاد أتماسك على ظهرها لما في الطريق من مزالق، وصبرت على ذلك حتى بلغنا مكاناً لا تستطيع حتى (الحمارة) سلوك طريقه، فكان لا بد من النزول والتوقف.

ونزلت متطلّعاً إلى موقع القلعة، فإذا لا يزال بيننا وبينها مراقي طويلة. هيهات أن يتاح لي اجتيازها على قدميّ، فقررت الاكتفاء بما وصلنا إليه، بعد أن عرفت الكثير مما يجب معرفته. ولكن تشجيع الرفاق، والتفكير بخيبة عدم الوصول إلى القلعة بعد أن صرت على وشك الوصول إليها. كان دافعاً على المغامرة فمشيت وئيداً، ومضيت أمشي قليلاً وأجلس كثيراً حتى بلغنا القمة المنشودة.

لم يبق من القلعة بعدما أمر هولاكو بتخريبها، إلا بقايا جدران وأكوام من الأحجار، أو أحجار متناثرة، وأطلال غرف، وبقايا صهاريج ماء، وغرف منحوتة في الصخر كانت على ما يبدو صهاريج مائية.

إلى الشرق من القلعة واد صخري سحيق، وإلى الغرب واد مثله وكذلك إلى الشمال والجنوب ولكنها أودية غير صخرية، وهي أودية يتعذر على جيش مهاجم للقلعة أن يجتازها سليماً.

ووراء هذه الأودية ما لا يدرك الطرف مداه من جبال وأودية، ونقول جبال وأودية لأن لا كلمات أخرى تحل محلها، وإلا فهي فوق أن تحمل اسم الجبل أو الوادي، إذا كان مفهوم ذلك ما يمكن أن يتخيله الإنسان مما سبق أن رآه من الجبال والوديان.

وإذا تجاوزت التفكير بالماضي والاعتبار به، واكتفيت بالنظر إلى ما هو أمام

عينيكِ، فإن تلك الجبال والوديان والقمم والثنايا والشعاب من أروع ما يمكن أن تقع عليه العين.

ولا يفوتنا أن نقول بأن ارتفاع الصخرة التي تقوم عليها القلعة هو ١٥٠ متراً. وارتفاعها عن سطح البحر هو ١٩٥٠ متراً، وأن طول القلعة حوالي ١٢٠ متراً، وعرضها بين ١٠ أمتار إلى ٣٥ متراً.

أين الجنة؟

ومن أول ما يتبادر إلى الذهن وأنت في القلعة البحث عن المكان الذي زعم الزاعمون أن الحسن الصباح أقام فيه جنته التي كان يغري بها فدائييه لاقتحام الأهوال. وقد تطلعت إلى كل مكان باحثاً عن البقعة التي تصلح لأن تقام فيها الجنة، فلم أجد تلك البقعة، لا في الأودية الصخرية ولا في السفوح المهاوي، ولا في القمم الثلجية.

على أنني وجدت أن ما يعشب من تلك الأرضين يمكن أن يدل على أن ما قاله القائلون من أن أصل كلمة (الحشاشين) التي لحقت بالاسماعيليين النزاريين، هو (الحشائشيون)، أي الذين يجمعون الحشائش الطبية ويصدرونها لغيرهم ــ إن ذلك يمكن أن يدل على أن هذا القول سليم، لإخصاب تلك الأرض بالحشائش، وتنوع تلك الحشائش.

أين هذا السكون المهيمن على هذه الخرائب الباقية من قلعة ألموت من ذاك الضجيج الذي كان يلف القلعة من كل جانب؟.

لقد خلت ألموت من عُمّارها، وباد أولئك الذين ملؤوا الدنيا من حولهم صخباً وثوراناً، ولم يبق منهم ما يدل عليهم، ولولا أن سطور التاريخ وحدها هي التي تشير إليهم، لما كان في هذا المكان ما يشير إلى أنهم حلوه أقوياء أشداء مرعبين.

وإذا كان الشريف الرضي قد قال حين مر على أطلال (الحيرة):

بـــــاق بهـــــا حـــــظ العيـــــون وإنمـــــا
لا حـــــظ فيهـــــا اليـــــوم لـــــلآذان

فإنه لا حظ لعيون من يمر على أطلال (ألموت)، إذا كان المقصود أطلال ما خلف الماضون، ولكن حظ العيون للمتطلع من قمّة ألموت هو حظ كبير، إذا كان المقصود بذلك ما أضفى الله من الروعة والجلال على ما حولها مما تعالى أو انحدر أو انبسط.

على أنك مهما انفعلت بالطبيعة ومشاهدها لا تستطيع إلا أن تردّد قول الشاعر الآخر:

مـــــرابـــــع إن تلمـــــم بهـــــا بعـــــد عـــــزّهـــــا
رأيـــــت دبيـــــب المـــــوت مـــــن كـــــل جـــــانـــــب

وأمر قرية (كازرخان) وريثة ألموت أمر يدعو إلى التأمل، وإذا كانت القرية لم تقم على القمة، بل على السفح لأن الكازرخانيين حين قرروا الإقامة هنا لم يكن في ذهنهم عدو يهاجمهم فيمتنعون منه بالقمة، ولا هم فكروا باستعداء الناس، لذلك آثروا النزول هنا على الماء الجاري في سفحهم المعشب.

وأنا لا أعرف شيئاً عن ماضي الكازرخانيين، وعن تاريخ حلولهم في هذه القرية، فلربما كانوا ممن سلم من مذابح المغول في القلعة، فهم من سلالة النزاريين الذين نجوا بأنفسهم، ثم آثروا الإقامة غير بعيد عن مقامهم الأول.

لم تتسنّ لي محادثتهم واستطلاع شؤونهم لأننا كنّا معجلين في العودة ولقد كانوا كراماً فأعدوا لنا غداء سخياً تناولناه بعد الإياب من القلعة، كما أنه كان منهم صاحب (الحمارة) التي استأجرناها لصعود الجبل.

على أن الأكيد أن عقيدتهم ليست العقيدة الإسماعيلية النزارية، بل هم شيعة جعفريون. وهم منعزلون بعض الانعزال عن العالم وقلما تصل سيارة إلى قريتهم لوعورة الطريق الذي لا يمكن أن تقطعه إلا سيارات من نوع قوي غير عادي. لذلك رأينا تجمهر الأطفال عند سماعهم أزيز السيارة، بل تجمهر بعض الرجال، لأن

وصول السيارة لقريتهم حدث يُرى ويُعجب! . . .

ولقد تأملت في وجوه من لقيناه منهم لعلّي أرى فيها ما يدل على أصل فدائي جبّار، نستنتج منه على أنهم من سلالات نزارية مفادية! . .

فربما كان هذا الشيخ المضياف الماثل أمامي حفيداً لذلك الفدائي الذي غرس المدية تهديداً قرب سرير الملك السلجوقي سنجر، في اللحظات التي كان سنجر يغط فيها بنومه! .

ولربما كان هذا الشاب المعوان المنهمك حيالي برص صحاف الطعام سبطاً لذلك الفدائي الآخر الذي جرد خنجره على الفقيه الرازي، فارتدع الفقيه عن شتم النزاريين في مجلسه إلى الأبد! . .

وربما كان هؤلاء الغادون الرائحون من هنا وهناك متحدرين من تلك الأصلاب التي طالما أرعب أصحابها من أرعبوا! .

ولكن الوجوه(الكازرخانية) لم توح إلا بالدعة، ولم أجد في قسماتها إلا الأمن والسلام.

رحلتي إلى ديار الاسماعيلية النزارية

السابع من حزيران سنة ١٩٩١ كنّا نخرج من مدينة قزوين في سيارة جيب ضخمة عابرين السهول الفيح بين حقول القمح الممتدة إلى كل مكان، وكانت تواجهنا من بعيد سلاسل جبال (ألبرز)، وبدا لنا في قمة من قممها نصب عال يطل في مدى واسع على ما أمامه من سهول مترامية الأطراف.

هذا النصب هو بعض ما أعده الاسماعيليون النزاريون لمواجهة الأخطار، فهو عين راصدة لا تفوتها تحركات المقبلين في الأرض المكشوفة، فإذا لمحت ما يريب أوقدت ناراً أو أرسلت دخاناً أو أطارت حماماً، إشارة إلى الخطر الداهم، فتكون النار أو الدخان أو الحمام إنذاراً يحتاط معه المحتاطون.

وكان هذا النصب أول ما نبصر من مظاهر الحياة العسكرية للنزاريين، وأول

ما يطالعنا على أبواب ديارهم التي نمشي إليها حثيثاً. وهو إن دل على شيء فإنما على شدّة الحذر الذي كانوا يمارسونه في جبالهم التي لا تشبهها جبال.

ولم نلبث أن مررنا بنهر (باراجين) الجاري إلى يميننا. ثم عبرناه على جسر جعل النهر إلى يسارنا، ورأينا الدسكرة التي تقوم على ضفّتيه ومواقع المطاحن الكبرى التي كانت تدور بماء السد المشاد على النهر، ثم زالت مع ما زال من القديم بحلول الجديد المتطور محله.

وبعد مرور ثلاثين دقيقة على خروجنا من قزوين انتهى طريق الاسفلت، وتشعب الطريق فمشينا في الشعبة الترابية، فكنّا في تخوم (جبال الديلم)، وعلى أبواب مداخلها.

جبال الديلم

ولهذه الجبال ذكر موغل في التاريخ ليس هنا مكان الحديث عنه، ولكن طروق جبال الديلم لا يمكن أن يمر دون أن يعيد الفكر إلى العصور التي كانت فيها هذه الجبال مسرحاً لأحداث لا تزال أصديتها تتجاوب في مسامع الزمن. فأنا الآن أسمع قول الشاعر القديم:

قـــد يعلـــم الـــديلـــم إذ نحـــارب
حيـــن أتـــى فـــي جيشـــه ابـــن عـــازب
بـــأن ظـــن المشـــركيـــن كـــاذب
فكـــم قطعنـــا فـــي دجـــى الغيـــاهـــب

من جبل وعر ومن سباسب

وإذا كان هذا الشاعر أنشد ما أنشد محارباً، وعبر هذه الجبال مقاتلاً، فإننا نردد شعره مسالمين، ونعبر الجبال مؤاخين متحالفين. وإذا كان يعلن بأن ظن المشركين فيها كاذب، فإننا نعلن أن فيها اليوم: المؤمنين الذين لا تكذب ظنونهم. على أننا مثله: كم نقطع (من جبل وعر ومن سباسب)، ولكن لا في دجى الغياهب، بل في وضح النهار وتألق الشمس ومتوع الضحى.

ومضينا في الجبال التي تكاثفت حولنا شاقين لها في واد طويل مررنا فيه على جدول ينحدر من الأعالي بين الصخور، وتقوم الأشجار على ضفته، ومن فوقها الحقول الخضراء الضيقة المستطيلة.

ورحنا نوغل في الوادي في قلب جبال الديلم، والنهر والشجر إلى يميننا في قلب الوادي، ثم انقطع كل ذلك وعادت السفوح الصخرية، ثم عادت شجيرة، ونحن بين الجبال.

ولاح إلى يسارنا كوخ متفرد في ذلك البر، وحياله على الضفة الثانية من الطريق غابة أشجار، ثم لاح لنا كوخان آخران. وكان من الغريب وجود هذه الأكواخ في هذه الأمكنة، ولكن بعد أن عرفنا أن هذا الطريق الترابي الذي نسير فيه لا يعود تاريخ شقه إلى أكثر من ثلاث سنوات، استنتجنا أن هذه الأكواخ ربما كانت محطات للمسافرين على ظهور الدواب يفيئون إليها من عناء السفر.

نحن نسير الآن صعوداً فوصلنا قرية (زدشك) بحقولها الخضراء، وبدت القرية إلى يسارنا ببيوتها الطينية محاطة بالأشجار الممتدة إلى خارجها، ما يدل على ماء غزير هنا يروي البساتين.

وحدة

وواصلنا السير صعوداً في صميم الجبال الخضراء، ومنذ سلكنا هذا الطريق كانت سيارتنا هي الوحيدة فيه، إذ لم نصادف أية سيارة صاعدة أو هابطة، إلى أن رأينا الآن شاحنة تهبط نزولاً . .

وبعد اجتيازنا بحيرة (درياك) صادفنا حافلتين تتجهان نحونا واحدة بعد أخرى.

ومضينا مصعدين صعوداً غير عنيف بين خضرة الجبال حولنا وأمامنا، ثم بدت لنا السلسلة الجبلية الضخمة التي نتجه إليها، والتي هي قلب الوطن (الصباحي)، وإذا كنّا الآن نمشي في هذا الوطن ونعبر فيه الجبال المتكاثفة: قمماً

عالية وأغواراً هاوية، فليس كل ذلك إلا خطاً دفاعياً أول ــ على التعبير العسكري الحديث ــ يصد من تسول له نفسه التقدم إلى القلب.

ولم يلبث الجبل أن صار إلى يسارنا، والوادي السحيق إلى يميننا، وكانت بعض القرى الشجراء تتناثر في الوادي.

وبعد السيارات الثلاث أقفر الطريق إقفاراً كاملاً، وبقينا وحدنا في هذا الطريق الطويل غير العريض.

ثم تشعبت الجبال والأودية إلى يميننا وتداخل بعضها في بعض، وأخذنا بالانحدار بعد التصعيد المستمر، وفجأة أبصرنا (منحلاً) كبيراً في وسط البرية الواسعة المقفرة، وأحسن مربو النحل اختيار المكان المعشب المزهر لاجتناء العسل، ولكن أين هم أصحاب هذا (المنحل) المنتشر على مساحة واسعة؟ إننا لم نحس إنساناً في طول هذا الطريق الطويل وفي عرض هذه الدنيا العريضة التي نجتازها!.

وأوغلنا في انحدار متواصل ففوجئنا بشاحنة ثم بأخرى في اتجاهنا. واشتد الانحدار اشتداداً سيوصلنا إلى الوادي العظيم الفاصل بين السلسلتين العظيمتين: السلسلة التي ننحدر منها والسلسلة التي نمشي إليها. وتنوعت أمامنا مناظر الطبيعة الأخاذة التي تشده بأفانين جمالها. كل ذلك في طريق مقفر وأرض خالية حتى لتحسب أن لا بشر هنا.

وإذا كان الشاعر العربي القديم قال:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوّت إنسان فكدت أطير

فإننا كنا نتمنّى لو يعوي الذئب أو يصوت الإنسان فنستأنس بالاثنين ولا نحس بوحشة الكون الخالي من الإنسان والحيوان.

وأبواق السيارات التي طالما دوّت في آذاننا كريهة الدوي كنا نتمنى لو تدوي هنا فتكون حبيبة الدوي سائغة الزعيق.

ننحدر وننحدر راكضين في مملكة حسن الصباح إلى الوادي الخصيب الرحب. وإذا كان عزنا حتى الآن عواء الذئاب وتصويت البشر، وإذا كنا افتقدنا الإنسان والحيوان فيما نمشي فيه من جبال وأودية، فإن قطيعاً كبيراً من الغنم فاجأنا بظهوره منكباً على الأرض المعشبة يوسعها قضماً، وراعياً يقف إلى جانب الطريق متكئاً على عصاه التي لم يكن في حاجة لأن يهش بها على القطيع الساكن الوادع!.

واشتد انحدارنا من الجبال الهائلة، فلاحت إلى يميننا قرية (فلار) في قلب الأودية والجبال، وفوقها غابة مكتظة، ومررنا ببيوت متطرفة من القرية، بيوت طينية بدائية ضاوية!.

المنحل العامر بخلياته المتراصفة صفوفاً نظيمة، بصناديقها الفنية المصوغة على أحدث ما تصاغ به صناديق خلايا النحل في أرقى البلاد.

المنحل الذي فاجأنا ظهوره في البرية المقفرة، هو نقيض هذه القرية مظهراً ومخبراً!.

حقيقة الحياة النزارية

ومضينا منحدرين فطلعت لنا سيارة جيب عسكرية، كانت وحيدة في الطريق البعيد المدى.

ثم لاحت كتل الجبال المقابلة واضحة، وبدت في الوادي قرية (رازميان) التي سنعود إلى ذكرها، ولاحت فوقها قلعة (لمبسر) إحدى أشهر قلاع الاسماعيليين النزاريين، وهي التي ننوي الوصول إليها فيما ننوي الوصول إليه من القلاع والديار.

هنا حيال رازميان المغمورة بالزروع والبساتين، والمطلة عليها من فوق الشواهق قلعة (لمبسر) تبدو حقيقة مملكة حسن الصباح.

لم تكن الحياة في هذه المملكة جافة خشنة كما قد يبدو من وصف معاقلها

والحديث عن مواقعها، ولم تكن عسكرية العيش فدائية التحرك، عيشاً لا تعدوه وتحركاً لا يميزها غيره.

هناك على القلعة الشامخة فوق الجبل قلعة (لمبسر) بوحشتها وانقطاعها، هناك تتحرك عقول العسكريين وتدبر مؤامرات الفدائيين.

وهنا في الوادي البهيج في (رازميان) تنطلق الحياة مرحة في ظلال الشجر وانبساط العشب وتدفق الماء.

هنا تتحرك أيدي المزارعين وأقدام الفلاحين وأفكار الشاعرين والكاتبين.

فمن القمم ومن السهول، من الصخور الصلدة والغصون الغضة، من غلظة الجبل ورقة الوادي، من تمازج ذلك كله وتفاعله كانت تتألف مملكة حسن الصباح وخلفائه، فكان لها ما كان من الدوي الصاخب في مطاوي التاريخ.

طال انحدارنا بين المرائي الطبيعية الجميلة، الجبلي منها والودياني، فقد تجلى لنا الآن الوادي الخصيب الروي، ووضح بكل معالمه الرحبة المنطلقة في كل مكان بحسنها الريان.

ورحنا ننحدر في طريق مقفر من كل إنسان، هذا الإقفار المتوالي الذي نشهده هنا في هذه الأرض المخصاب على هذا الطريق المفترع للجبال والآكام والوهاد.

هذا الإقفار العجيب أعاد إلى ذهني وحشة الشعراء القدامى وهم يجوبون البوادي على ظهور الإبل، وحشتهم من توحّدهم في سيرهم الطويل، فألهمهم ذلك شعراً جميلاً، رحت أكد ذاكرتي لتسعفني بشيء مما استظهره منه متمثلاً به هنا في هذه السبل القفراء، فكان أول ما عنَّ على الذهن من ذلك قصيدة جاء في أولها:

وصلنا السرى بالسير نقطعها قفرا
مهامه لا تهدى إليها القطا إثرا
على يعملات كالقسي تفاوضت
أحاديث من تهوى فطاب لها المسرى

على أننا نحن لم نكن نواصل (السرى)، بل (السير) فقط، ولم نكن في مهامه بل في مساكن ومزارع ومغارس وينابيع، ومع ذلك فقد كنا كذاك الشاعر نقطعها (قفرا).

وشتان بين (يعملات كالقسي) كانت تقله ورفاقه، وبين (سيارة الجيب) التي كانت تقلنا، وإذا استطاعت شاعريته أن تجد تشبيهاً جميلاً (ليعملاته)، فقد عجزت أنا عن أن أجد مشبهاً به لهذه (الجيب) الضخمة القوية!.

وما كان أرقه وأعذبه وهو يتحدث عن الهوى وأصحاب الهوى، وأن المسرى في المهامه المقفرة، على مشقاته، كان يطيب بمجرد تذكر من يهوى، والتحدث إليه، تفاوضاً بينه وبين الحبيب الماثل في خاطره!.

أيها البعيدون هناك في بيروت وبغداد ودمشق وشقرا، إننا كنا كهذا الشاعر نستطيب المسرى المجهد حين نتذكركم!.

ورحنا ننحدر وننحدر، والشعر البدوي ملء الذهن، فإذا (المشبه به) الذي عجزت عن إيجاده لأضيفه إلى (الجيب) المنحدرة التي تحتوينا، إذا بذاك الشعر يمدّني به، وإذا بي لا أجد لإحدى معجزات الحضارة إلا مشبهاً به مستمداً من صميم شعر البداوة، إن هذه (الجيب) المنحدرة بنا بقوة كانت كما قال امرؤ القيس: (كجلمود صخرٍ حطّه السيل من علٍ)!.

وبينا نحن ننحدر في طريق مقفر من كل إنسان، إذا بدراجة نارية تفاجئنا صاعدة بدويها المعهود.

ومرت بطيئة السير، تصدها العقاب عن الانطلاق، وتلاقينا معها، تصدنا الوهاد عن الانطلاق. كنّا هابطين مبطئين، وكانت صاعدة مبطئة، فكنّا كلانا في هذا الطريق الترابي المثير للغبار، وبما عبرنا به، وما نعبر من بيوت طينية في القرى الضاوية..

كنّا جميعاً صورة للحياة في هذه الأرض: حضارة متثاقلة الخطى، يلفّها العجاج ويعيقها المهبط والمصعد!.

ولاحت في الوادي قرية (بهرام آباد)، واجتازتنا حافلة صاعدة من حيث نهبط، ثم سيارة صاعدة، ثم سيارة (ستيشن) محملة بالحطب صاعدة.

وبدا أننا على مشارف تبدل الحياة هنا، وأن الحركة بدأت تمور مورانها الطبيعي إن لم يكن كاملاً فهي على كل حال حركة كنا نفتقد مثلها من قبل.

وبدت قرى الوادي متناثرة بخضرتها اليانعة، خضرة أشجار وزروع. ودنونا من الوادي وظهرت (بهرام آباد) واضحة أمامنا، ثم صرنا في قلب الوادي إلى جانب بهرام آباد التي بدت قرية بدائية ببيوت طينية هامدة.

نحن الآن بين حقول (الرز) المنتشرة في هذا الوادي الخصيب، وكان زارعوه يخوضون الماء لغرسه. فهذا الوادي هو من أكبر منابت (الرز)، ثم عبرنا جسراً على نهر (شاهرود) الذي يمد هذه الأرض بالحياة من مائه الدافق فيها، ومضينا نشاهد منظرين: منظر الرز مزروعاً ومنظر القمح محصوداً. وكانت الحمير تنقل حصيد القمح من حقوله إلى حيث يفصل بين القش والحب.

وأوغلنا في جانب الوادي سائرين على أطراف قاعدة الجبل حيث بدت لنا غابة خضراء كثيفة الأشجار الشامخة المتسلسلة إلى أبعد من البعيد.

قديم وجديد وألوان

وإذا كانت الحقيقة في حياة مملكة حسن الصبح تجلّت حيال (رازميان)، حقيقة الحياة التي يرفدها العزم الصارم في قمة الجبل والزند الحازم في غور الوادي، فها هي هنا أكثر تجلياً في هذا السهل المنبسط وادياً بين السلسلتين الهائلتين، حيث حصيد القمح وغريس الرز وتكاثف الغابة وهدير النهر. وحيث الجبل المتمادي علواً تدبر فيه الأمور وتحبك حبائل الخير والشرور.

ومضينا صعداً نمر بينابيع مياه وغابات أشجار، ولما أوغلنا في الصعود صرنا في جبال جرداء عجيبة، فهي طوراً صفراء وطوراً بيضاء وطوراً سمراء، ثم أطلت قرية (برود) محوطة بالبساتين في قلب الوادي الذي عدنا إلى السير فيه، فإذا

بدراجتين ناريتين خارجتين من القرية. ثم دخلنا القرية عابرين إليها على جسر نهر. وسرنا في الشجر المتكاثف، فأبصرنا في مداخل القرية حمارتين داخلتين إليها.

دراجتان خارجتان، وحمارتان داخلتان! أحدث الحديث وأقدم القديم.

على أن القدم والحداثة هما أقل من القليل ظهوراً في هذا المشهد بين وسيلتي النقل: الدراجة والحمارة.

إن القدم والحداثة يبدوان في هذا الموقع وسيظلان يبدوان في كل ما سنجوزه من مواقع ـ إنهما يبدوان بمظهرهما المذهل، متمثلاً بهذه الفجوة الواسعة بين المكان والزمان.

إن المكان لا يزال على ما خلفه الاسماعيليون النزاريون منذ أكثر من سبعمائة سنة: بيوت طينية واطئة شاحبة، في قرية بدائية متضائلة خابية.

والزمان هو العقد الأخير من القرن العشرين!.

خرجنا من القرية مصعدين في جبال هي بلونها غير الجبال التي عرفناها فيما وراء (رازميان)، فإذا تنوعت ألوان الجبال هناك من ابيضاض إلى اصفرار إلى اسمرار، فإنها هنا بيضاء تتخللها الصخور السوداء. وفجأة أشرفنا على غابات بعيدة، ولم تلبث الصخور هنا أن عادت بيضاء ابيضاض الجبال.

ابيضاض واسمرار واصفرار نعلل أنفسنا بها هنا في هذه الدروب الموحشة.

تراب أبيض وحجر أسود وصعيد أصفر ومدر أسمر. هذا ما يشغلنا هنا، وهذا ما نحدّق فيه في هذه الرواسي الخشنة.

أما الرفاق في بيروت فإن ما يشغلهم فيها هو ما يشغلنا هنا من احمرار وابيضاض واسمرار واسوداد، فكلنا بشر تزدهيهم الألوان ويستهويهم تموجها.

نحن هنا يشغلنا اسمرار الجماد وابيضاضه واسوداده واحمراره، نتحرّك إليه وهو ساكن، ونشرف عليه وهو هامد.

أما هم فإن ما يشغلهم هو الابيضاض والاسمرار في الوجوه والقدود والاحمرار في الوجنات والنهود، تتحرك إليهم وهم ركود، وتشرف عليهم وهم قعود.

ويَشدَ هنا السواد المتكاثف تحت التلة الناصعة، ويشدههم السواد المترادف تحت الجبين الأغر. ويبهرنا التماع الصخرات البيض تنفتح عنها الذروتان، ويبهرهم ائتلاف الثنايا اللؤلؤية تنفرج عنها الشفتان.

وتشدّنا الخرائب في الفقر المهجور، وتشدّهم العمائر في الربع الغاني المعمور. وغلظتنا تسمي من الألوان: (الصفرة)، ورقتهم تسميه: (الشقرة)، فإذا نحن حدّقنا في الجبل الأصفر، أطالوا هم التحديق في الشعر الأشقر.

يا لها من قسمة عجيبة بيننا وبينهم، اخترناها نحن لأنفسنا بأنفسنا. أنحن الأغبياء أم هم؟ من يدري، وهل يدري المجنون أنه مجنون!.

تجديد

تعدد ظهور الغابات البعيدة، ولا تزال الجبال بيضاء ناصعة البياض. فهذه قرية في الوادي إلى يسارنا هي قرية (آكوجان) محاطة بالبساتين. والبساتين في كل ما مررنا به، وما سنمر به هي بساتين (البندق).

ثم رأينا مجموعة من الخيل إلى يسارنا وما أدري ما هو عمل الخيل هنا، ثم عبرنا إلى قرية (آكوجان) بين الشجر الغضيض، وآكوجان مثل غيرها من القرى البدائية التي مررنا بها، ولكن تتميز بأن بعض بيوتها ذو طابقين اثنين.

ومضينا عنها متجهين إلى قرية (تلاتر) التي ستكون مقرناً في ليلنا المقبل، داخلين إليها بين بساتين البندق بشجرها المتكاثف.

وإذا كنا لم نر فيما تقدم ذكره من القرى سوى مظاهرها الخارجية، فإن رؤيتنا لأزقة (تلاتر) أكدت لنا أن هذه القرى لا تزال على ما تركها الاسماعيليون النزاريون.

ولكن شيئاً فريداً كان في هذه القرية، شيئاً جعلها تقفز في بعض حياتها من تلك القرون البعيدة إلى أواخر هذا القرن.

فإن ابناً باراً من أبنائها هو السيد ناصر القوامي لم ينسها وهو يتقدم في مناصب الدين والدنيا فأنشأ فيها مستوصفاً يكاد يكون مستشفى مجانياً بمداواته وأدويته.

وتلاتر ذات الخمسمائة النفس من السكان، من أبنائها في الجامعة اليوم خمسة عشر طالباً.

جنة خارود

وفي الضحى كنا نقصد بالسيارة في طريق وعر يرج الأجساد رجاً منطقة (خارود)، التي تبعد عن (تلاتر) أكثر من خمسة كيلومترات لم تستطع السيارة اجتيازها كلها، فمشينا صعوداً في الجبل، صعوداً كنا ندوس فيه أحياناً في قلب الماء الجاري، وأخيراً توقفنا مرهقين وجلسنا عند الينابيع الغزيرة بين الخرير والظلال والنسيم.

وبرغم روعة ما نحن فيه، كان ذلك فرعاً من أصل هو مكان تفجر الماء من بين الصخور في قلب الجبل، على خطوات منا فمشينا إليه مجهدين، ووصلناه متعبين، وأخذنا نكرع من مائه العذب الزلال البارد.

إذا كان حسن الصباح قائداً حازماً وثائراً شديد المراس، فلا شك أنه كان إلى ذلك شاعري الطبع. فهو حين اختار لمستقره تلك الجبال التي لا تطولها أيدي الجيوش مهما امتدت واستطالت، فإنه لم يختر ذلك اعتباطاً، ولم ينزله مصادفة، بل جمع عامداً شدة الصخر في القمة الجافة الغليظة، إلى رقة الصخر في الينبوع الدافق الفوّار.

ولو صح ما زعمه الزاعمون من اصطناع الصباح لجنة يغري بها أتباعه، لما

كان في حاجة إلى اصطناع الجنان، وعنده مثل (خارود) الجنة الطبيعية الرائعة. وكم لخارود من نظائر في ديار الصباح.

وفجأة انطلق من بين الجالسين قريباً منا صوت رقيق عذب، ولكنه في الوقت نفسه هدَّار، انطلق من فوق صخرة شمّاء ينشد شعراً فارسياً إنشاداً استفزّه له ما في هذا الذي فيه من روض وجبل وواد وينبوع، اجتمعت فكان منها أعذب ما تحلم به العين من مرائي الوجود، وكان يعوزها التعبير الصوتي، فانطلق ينشد الشعر إنشاداً هو قطعة من هذا الجمال الأخّاذ. . .

ولكنه لم ينشده غزلياً كما قد يفعل من تستفزّهم مثل هذه الطبيعة الوهّاجة، ولم يردّده منبعثاً عن شوق لحبيبٍ غائب وتلهّفاً على لقاء مرغوب.

لم أكن أفهم ما يقول، ولكنني كنت أفهم كلمة واحدة من كل ما كان يرتل هذا المرتل الغريد، هذه الكلمة أفهمتني كل ما كان يجب أن أفهمه من مضمون هذا الشعر، كنت أفهم كلمة (علي)!.

فلم أملك الدمع أن يفيض من عيني وأنا هنا في هذا المنتأى البعيد، وفوق هذه الرواسي الشامخة، وعلى هذي المشارف الباذخة أسمع اسم علي تتجاوب به السباسب والأنجاد، وتتنادى به الذرى والوهاد.

إلى اللقاء

تلاتر ثم خارود هما منتهى مجال المملكة (الصباحية النزارية)، إذ إننا بوصولنا إليهما نكون بلغنا الحدود الشمالية الغربية لتلك المملكة، وما بعد خارود وجبالها تبدأ حدود لديار أخرى تعرف اليوم باسم (أشْكَوَرْ).

على الينابيع الفوّارة في قلب القمة العالية وفوق الوادي الغضيض الشجير هنا في خارود نغيب في مطاوي الزمن البعيد متنقلين من عام إلى عام ومن قرن إلى قرن، ومن رجال إلى رجال، ومن قوم إلى قوم.

هنا نستعرض ذلك كله فنستمد من المكان الحاضر ما استمددنا من الزمان الغابر معرفة واطلاعاً.

يا حسن يا صباح: أنا الآن في ديارك، في الأرض التي هي منازلك، أنا ضيفك هنا في هذه المرابع مرابعك، ولئن غبت عنها، فلا تزال مطبوعة بطابعك، حاملة اسمك.

أنا ضيفك وليس من شيم الضيف أن يتنكر للمضيف، فاعذرني إذا تنكرت بعض التنكر، وأنكرت شقك للصف الواحد وإيغالك في العداء للقريب.

لا أقول لك وداعاً، بل أقول: إلى اللقاء، فمثلك يظل يلتقي به المؤرخ حيث اتّجه، فإذا أغضبتك في هذا الموقف، فسيكون لي معك موقف ربما هون عليك وأنساك فتحوّل بعض غضبك إلى بعض الرضا.

إلى اللقاء القريب على هذه الصفحات نفسها، وفي هذا المرتحل ذاته.

وأنت يا تلاتر، وأنت يا خارود اللتين سنبتعد عنكما بعداً لا نحسب أن لنا بعده دنواً، حسبي أن أقول لكل منكما ولكل من صحبنا فيكما:

تــــذكــــرنيــــك الــــريــــح مــــرت عليلــــة
علــــى الــــروض مطلــــولاً وقــــد وضــــح الفجــــر
ومــــا بعــــدت دار ولا شــــطّ منــــزل
إذا نحــــن أدنتنــــا الأمــــانــــيُّ والــــذكــــر

الحشيشية

هنا على ينابيع خارود، تحت القمم المظلّلة لنا، ومن فوق هذا المنحدر الشجير، وما لا يحصى من الأودية والغيطان والمروج.

وعلى هبات النسيم، تلفت إلى الماضي البعيد، إلى حسن الصباح، تلفت إليه وهو يعاند ويصر على العناد، ويهزم فلا يعترف بالهزيمة، بل يزداد بها عناداً،

فيشق الجماعة الواحدة إلى جماعتين، ويحول الدولة إلى دولتين، ويعود الأمر إلى كارثة.

وإذا كنت لا أوفر حسن الصباح من التقريع، فإنني لا أذكر بالخير مزوّري التاريخ، العابثين به، المفترين على رجاله.

هؤلاء جعلوا من حسن الصباح (زارع حشيشة)، ومن رجاله (حشاشين)، وتفننوا في هذه الأقاويل ما شاء لهم التفنن، وظلوا يتفننون وسيظلون يتفنّنون.

وكان من أهداف رحلتي الوصول إلى الحقيقة في هذا الأمر[1]، وكنت من قبل التقطت الخيط الذي يمكن أن يوصل إليها وذلك أنني رأيت أن أهم ما تجب معرفته هو الزمن الذي بدىء فيه بنسبة الاسماعيليين النزاريين إلى الحشيش، ومن هو أول من نسبهم إليه، فإذا بي أكتشف أنهم لم يلقبوا أول الأمر بحشاشين، بل لقبوا بحشيشية، ثم طور المطورون هذا اللقب إلى (حشاشين).

وكان الاكتشاف الغريب أن الذين أطلقوا عليهم هذا اللقب (الحشيشية) هم الإسماعيليون الفاطميون الذين انفصل عنهم الإسماعيليون النزاريون وبادروهم بالعداء واغتالوا خليفتهم (الآمر)، وحوروا العقيدة المستقيمة.

ثم استمر الصراع محتدماً بمختلف وسائله، ومنها الإعلامية بإمكانيات ذلك العصر. فكان النزاريون يوزعون بيانات تبين فساد خلافة أحمد المستعلي، ومن تلاه ويمكن أن يتلوه، فيرد المستعليون على البيان ببيان وعلى الأدلة بأدلة.

فمن ذلك أن الخليفة الآمر بأحكام الله أصدر رسالة باسم (الهداية الآمرية في أبطال الدعوى النزارية). فرد عليها النزاريون، فرد المستعليون على الرد برسالة جاء فيها: «ولما صدرت هذه الهداية عن حضرة سيدنا ومولانا أبي علي الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين. . أشرق بها نور الحق المبين وعمت بركتها جميع أهل الدين».

ثم تقول الرسالة: «ولما وصلت إلى دمشق ووقف عليها نفر من جماعة

(١) مر بعض الكلام عن هذا الموضوع.

الحشيشية فلّت عزمهم وكدّرت شربهم. . ».

إلى آخر ما جاء في الرسالة.

وعندما نشر الدكتور جمال الدين الشيال هذه الرسالة في (مجموعة الوثائق الفاطمية)، ارتأى تفسيراً معقولاً لكلمة (الحشيشية). فالدكتور الشيّال ليس من المؤرّخين المخرجين التاريخ عن رسالته، والمسخرين له لأهوائهم وأغراضهم، بل هو مؤرخ متحرٍّ للحقيقة وحدها، لذلك لم ينصرف ذهنه إلى أن المقصود من كلمة (حشيشية) هو اتهام المطلقة عليهم باستعمال الحشيش المخدر، لأن هذا لا يقوله أي منصف، لذلك فسرها بأن من أطلقها على الإسماعيليين النزاريين كان يقصد بذلك أنهم (يخرفون) كما (يخرف) مستعمل الحشيشة، أي أن كلامهم غير منطقي.

وإذا كنا لم نطلع على نصوص خاصة بردود النزاريين، فإننا اطلعنا على نصوص وردت خلال ردود المستعلية عليهم، ويبدو مما ورد على الرسالة التي وصفت النزاريين بالحشيشية أن الذي ورد هو النص الكامل للرد النزاري إذ جاء فيها ما يلي: «وصل كتاب من الدعاة المستخدمين في دمشق مشتملاً على فصل هذا نصّه: لما كان يوم الخميس السابع والعشرين من ذي الحجة بعد الفراغ من قراءة المجلس الشريف على المستجيبين للدعوة الهادية ــ كثرهم الله ــ ورد على المملوك رجل من القوم الماكرين لم تجر له بذاك عادة، وصحبه أحد المستجيبين للدعوة الهادية، فجلسنا هنيها، وأخرج الرجل من كمّه نسخة الهداية الواردة من المقام الأشرف، وأن تلك النسخة كانت عند المستجيب، وخص ذلك الرجل بسماعه إياها، وإن الرجل لما وقف على مضمونها اشتبه عليه أمره وضاق بها ذرعاً، وحملته تلك الحال إلى أن مضى بتلك النسخة إلى طاغوته فطلب جوابها وخلاص مشكلاتها، فأجابه على ذلك في أواخر الهداية إذ كان البياض يسع الجواب، بهذه الفصول».

ثم يلي ذلك رد النزاريين على (الهداية)، ويبدو جلياً أن الرد كان على إيجازه إذ لم يتجاوز الصفحة الواحدة من كتاب (مجموعة الوثائق الفاطمية)، كان

هو النص الكامل للرد. كما يبدو ذلك من قول الرد المستعلي بأن جواب النزاريين على رد المستعلية كان على ما بقي من بياض من نسخة (الهداية). وبذلك يكون النزاريون لم يردوا على وصفهم بالحشيشية، وهذا يدل على أنهم لم يفهموا منه اتهامهم بتعاطي الحشيش المخدر، ولو فهموه كذلك وفسروه بأنه اتهام لهم بتعاطي الحشيش لما سكتوا عن الرد على هذا الاتهام.

ورد النزاريون على هذا الرد، فرد المستعلية على ردهم برسالة أوردوا فيها وصفهم للنزاريين بالحشيشية مرة أخرى، إذ جاء فيها: «وقد وقفت يا أبناء الدعوة على ما سطرتموه في كتابكم من جواب الحشيشية ــ هداها الله وأصلحها ــ عما تضمنته الهداية..».

وكان تاريخ هذا الرد الأخير ٢٧ في ذي الحجة دون ذكر السنة، وحدد الدكتور الشيال السنة استنتاجاً وهي سنة ٥١٦ هـ.

وإذا كان تفسير الدكتور الشيال لكلمة (الحشيشية) معقولاً ويمكن الأخذ به، فإنه لم يقنعني كل الإقناع، وظللت معتقداً أن لهذا الوصف تفسيراً آخر.

وكنت أعرف أن فريقاً من العلماء والأطباء العرب اشتهروا بجمع الحشائش الطبية وبيعها أدوية، ومن أشهرهم: أبو العباس أحمد بن مفرج الإشبيلي الأندلسي المعروف بابن الرومية المولود في إشبيلية سنة (٥٦١ هـ ــ ١١٦٥ م)، كان صيدلانياً عقاقيرياً، كما كان نباتياً عشاباً، وكذلك كان من رجال الحديث. وكما قيل عنه: «ودعته إلى الأسفار رغبته في سماع الحديث والاتصال بشيوخه، وميله إلى تحرّي منابت الأعشاب وجمع أنواع النبات». وكانت له مؤلفات جليلة في النبات والعقاقير.

وهناك أسر تحمل لقب (الحشائشي) وتتوارثه دون أن تعمل في (الحشائش)، ولا شك أن أسلافها ممن عملوا فيها فأطلق اللقب عليهم، وظل يطلق على أنسالهم حتى بعد أن تركوا العمل في الحشائش. ومنهم مثلاً محمد بن عثمان الحشائشي المولود سنة (١٢٧١ هـ ــ ١٨٥٥ م) في مدينة تونس مؤلف

كتاب «جلاء الكرب عن طرابلس الغرب» وغيره من المؤلفات. ــ وقد مر ذكر ذلك ونعيده وما بعده ليّتسق الحديث ــ.

فقلت لماذا لا تكون صفة «الحشيشية» التي أطلقت على النزاريين يقصد بها التهكّم بأنهم باعة حشائش لا أصحاب دولة وعقائد؟

وكنت أتحدث بذلك أمام بعض الأصدقاء الإيرانيين فذكر أنه قرأ شيئاً من هذا القبيل في كتاب يتحدث عن النزاريين ووعدني بالبحث عن الكتاب في مكتبته ثم جاءني به، فإذا هو كتاب لمؤلف أوروبي هو بول آمير مترجم إلى اللغة الفارسية، ويعني اسمه ما يمكن أن نطلق عليه باللغة العربية (سيد ألموت)، وإذا فيه بحث هو في صميم ما نتحدث عنه هنا فيما يتعلق بالمقصود من نسبة النزاريين إلى الحشائش، وتفضل الصديق بترجمة ما كتبه «بول آمير» ويتلخص ذلك بأن المقصود بتلك النسبة هي الصفة التي كانت تطلق في تلك العهود على من يتعاطون جمع الحشائش البرية التي تستعمل هي نفسها أدوية، أو تستقطر منها الأدوية. وعمل النزاريون في ذلك في شكل واسع، فكان لهم في سفوح جبالهم قرى ودساكر ومزارع كان ينطلق فيها حتى النساء والأطفال لجمع الحشائش الطبية التي كانوا يتوسعون في زراعتها ولا يقتصرون على ما تنبته الطبيعة، حتى لقد يزرعونها في حدائق البيوت.

وكان جامعو الحشائش من الحقول والبراري يبيعون ما يجمعونه إلى أشخاص معينين متصلين بسيد ألموت حيث يصدرونها إلى مختلف المدن.

ويسمي «بول آمير» محمود السجستاني أحد وكلاء سيد ألموت واحداً ممن كان لهم أمر استيراد هذه الحشائش ثم تصديرها، ويذكر حواراً جرى بين السجستاني وبين من يسميه علي الكرماني وهو من الموظفين عنده، يطلب إليه التنبّه أن لا يخلط الحشائش الطبية بغيرها من الحشائش الرخيصة قائلاً له: إذا نحن خلطنا مرة واحدة أنواعاً من زهر البنفسج والسبستان والانذروت مع أخلاط نفايات الزهور وأرسلناها مرة إلى عملائنا في الري وكاشان وأصفهان وسائر المدن فلا أحد منهم يشتري منا بعد ذلك أدوية.

وكان في كل مدينة سوق خاص يسمى سوق الحشائشيين، وكانت الحشائش تجمع بألموت في جوالق يكتب عليها اسم المرسلة إليه واسم المدينة مع كلمة (سوق الحشائشيين). أما ما يستقطر منها فيوضع في قوارير خاصة محفوظة من عوامل الكسر وترسل مع أحمال الحشائش.

ومن هنا لصق بالنزاريين لقب (الحشيشية)، ثم استغله خصومهم فطوروه إلى (الحشاشين).

وكان من عوامل رحلتي هذه التحقق في موطن الاسماعيليين النزاريين الأول، فإذا بي أمام حقائق تؤكد ذلك كل التأكيد، ولم يبق الأمر أمر ترجيح، بل أمر يقين، وقد تبيّن لي أن تلك الأرض من أخصب الأرضين في إنبات الحشائش الطبية، وأنه لا يزال هناك حتى اليوم لهذه الحشائش جامعوها وتجّارها المختصّون بها يصدرونها إلى كل مكان ومن أهم الحشائش التي تتداولها أيدي التجار اليوم: كاب زيان، وختمي، وبنفشه، وأمثالها مما هو معروف هناك. وفي داخل قلعة (لمبسر) التي هي من أهم قلاع النزاريين لا يزال ينبت ــ كما ينبت في غيرها ــ ما يعرف في إيران باسم كبركل، وهو نبات يغلى زهره بالماء وتعالج به آلام الظهر والبطن.

وهكذا تتبين صحّة ما كنت فسّرت به لقب (الحشيشية) الذي أطلقه (المستعلية) على النزاريين، وهو الاستهزاء بهم بالقول أنهم باعة حشائش لا أصحاب دولة ومذهب وعقائد. بقي أن نقول إن ما كانت تتألف منه مملكة حسن الصباح وخلفائه يقسم اليوم بحسب التنظيم الإيراني الحديث إلى قسمين إداريين يسمى أحدهما: رودبار شهرستان، والثاني رودبار ألموت، ويتألف كلا القسمين من ٢١٦ قرية، منها ١٠٦ قرى في رودبار ألموت، و ١١٠ قرى في رودبار شهرستان.

ويبلغ عدد نفوس أكبر قرية في المجموع وهي قرية هير ٣٠٠٠ نفس، وعدد نفوس أصغر قرية، وهي قرية روح آباد ١٥٠ نفساً.

ولم يبق من كل سكان المنطقة أي اسماعيلي نزاري بل ذاب جميع النزاريين في المحيط الإيراني الواسع. وإن كانت لا تزال منهم بقية قليلة جداً في مناطق أخرى من إيران.

ومما يدل على إحكام حسن الصباح أمره هو اختياره لهذه المنطقة بالذات لتكون مقراً لدولته، فهي منطقة خصبة، غنية بمحاصيلها الزراعية المنوعة، ما تستطيع معه أن تكتفي اكتفاءً ذاتياً في حالة حصارها وقطع المؤونات عنها، مهما طال هذا الحصار، وساعدها على ذلك غزارة المياه فيها، مياه الأنهار والعيون والينابيع.

وقد رأينا بأعيننا كيف أن الأرض تنبت موسمين في العام الواحد، كنا نشاهد أكوام القمح المحصود تنقل من الحقل وقت تدار إليه المياه لزرعه بالرز.

وهي تنتج جميع أنواع الحبوب، ومن أهم ما تنتجه: العدس والفاصوليا واللوبيا والحمص، تنتجها بكثرة للتصدير إلى خارج المنطقة. أما القمح فمنتوجها منه أقل من غيره. هذا فضلاً عن الرز وهي من أكبر مناطق زراعته.

أما الأشجار المثمرة فغابات كثيفة فيها، وهي مكوّنة من شجر الجوز وشجر البندق.

ويكفي في إخصاب شجر الجوز وشجر البندق أن ثلاث قرى فيها، هي قرية تلاتر التي تقدم ذكرها، وقريتان في جوارها، أنتجت في موسم واحد مليوناً ومائتي طن من البندق. وأن شجرة جوز واحدة في تلاتر أعطت في موسم واحد ما ثمنه ستون ألف تومان.

نذكر هذا للتدليل على أن حسن الصباح أحسن اختيار المكان الذي قرر أن يقيم أمره فيه: قلاع منيعة على قمم جبال لا تنال، ومياه غزيرة تروي حقولاً وبساتين تظل خضراء منتجة طوال العام.

إلى قلعة لمبسر

قمنا صباحاً لنعود من (تلاتر) في نفس الطريق الذي جئنا منه إليها. وبعد وصولنا إلى بلدة (بهرام آباد) انشعب الطريق شعبتين، فتركنا الشعبة الموصلة إلى قزوين، واتجهنا نحو الشرق سائرين في قلب الوادي العريض، ونهر شاهرود يجري إلى يميننا معاكساً لنا في السير، ووراءه حقول الرز ثم السلسلة الجبلية الشاهقة، وكنّا نسير خلال حقول الرز وهي على جانبينا، ونرى أكوام القمح المحصود لا تزال مكدسة بينما يغرس الرز في الأرض الحصيد نفسها.

ووصلنا بلدة (رازميان) التي تقع في الوادي على أصل الجبل بين السلسلتين الجبليتين الهائلتين وفوقها على القمة الشاهقة قلعة (لمبسر). والبلدة مقر مديرية الناحية، وهي مغمورة بالزروع والأشجار، وهي ككل ما مررنا به من قرى لا تزال بدائية، ولكنها آخذة بالتحول إلى الحضارة، ومن مظاهر ذلك وجود الهاتف فيها، ووجود أعمدة الكهرباء المعدّة للتركيز وإيصال الكهرباء إليها بعد أيام.

وحططنا الرحال في رازميان استعداداً للصعود إلى قلعة (لمبسر).

ويبدو أن لبلدة رازميان زواراً بين الحين والحين، وهم الذين يقصدونها بغية الوصول إلى قلعة (لمبسر) ـــ كما سنذكر فيما يلي ـــ وكان الغربيون ينصبون خياماً يأوون إليها قبل الصعود إلى القلعة وبعد النزول إليها ومن التغييرات التي حدثت أن بنت الحكومة (مضيفاً) ينزله الغرباء، وزادت في العناية بهم أن أودعت رعايته لمتعهد يقدم لهم الطعام مجاناً. وقد عرفنا ذلك من سوء الطعام الذي قدم إلينا على الغداء في نزولنا في المضيف. فمن الطعام المألوف في إيران طعام(جلو كباب) وهو لحم مشوي ويطبخ على طبق الرز، وكذلك طعام (جوجي كباب) ويستبدل فيه لحم الدجاج بلحم الخراف.

وكان الذي قدم لنا على الغداء هذا الأخير، ولأول مرة أجد أن ما قدم لي من لحم الدجاج هو رقبة الدجاجة. وعادة الإيرانيين هو التأنّق في هذا الطعام بتقديم

أطايب اللحوم فيه، فحسبتها صدفة على غير المألوف من كرم الإيرانيين في مآدبهم.

ولما مضينا بعد ذلك في السيارة عائدين ــ وكنّا أربعة ــ إذا بالجميع يذكرون أن نصيب كل واحد منهم من اللحم كان جناح دجاجة. وعرفوا هم السبب فالمتعهد يذكر لمن يحاسبونه أنه قدم دجاجاً لأربعة ضيوف، وهذا يقتضيه في أقل تقدير دجاجتان، فيقبض ثمن الدجاجتين، ويقدم للضيوف منهما أربعة أجنحة ورقبتين ويفوز هو بالباقي!

المتعهدون هم المتعهدون في كل مكان وكل زمان وفي كل نوع من أنواع التعهد!..

وهذا المضيف الذي نزلناه عبارة عن غرفة مستطيلة متواضعة نجلس فيها على الأرض بدون مقاعد ويلذعنا الحر لذعاً.

وهي بالنسبة إلى بيوت بلدة رازميان تعتبر قصر ضيافة!.

ولا بد أن تتحسن أحوالها وأحوال رازميان كلها بعد وصول الكهرباء إليها، هذه الكهرباء التي كانت تنصب أعمدتها ونحن هناك ليصل نورها بعد أيام.

وقصّ علينا أحد من لقيناهم من أبناء البلدة قصة بعثة بريطانية مؤلفة من خمسة أشخاص بينهم امرأة هي شقيقة زوجة أحدهم، جاؤوا رازميان سنة ١٩٧٧ م. بقصد الصعود إلى القلعة، فنصبوا خيمة لهم في القرية واصطحبوا دليلاً كان هو الذي يقص علينا قصتهم، فقال إنه سار برفقتهم حتى بلغوا القلعة مشياً على الأقدام، وهناك أخذوا ينقبون ويدرسون، ولما همّوا بالعودة رأى أحدهم بقايا قناة تصل إلى القلعة، فأهمه أن يرى مصدر الماء الذي كانت تنقله القناة إلى القلعة فطلب إلى رفاقه أن يصحبوه في السير مع مجرى القناة فرفضوا إلا شقيقة زوجته فقد مشت معه، وعادوا هم مع الدليل إلى خيمتهم في رازميان. ولم تلبث شقيقة الزوجة أن عادت ناعية الرجل الذي زلت به قدمه خلال السير فهوى من الجبل إلى القعر.

أما نحن فقد أقلتنا السيارة في الطريق المشقوق حديثاً في الجبل والموصل في نهايته إلى قرية (هير)، وهو ما شق إثر الزلزال الأخير المدمر للوصول إلى مناطق الزلزال، فخرجنا من القرية الخُضراء، نمشي صعوداً في جبال من أعجب ما خلق الله من جبال بوديانها وتلالها وهوّاتها وسلاسلها وتشعبها وتداخلها بعضها في بعض، وكانت كلها جرداء إلا من بعض النباتات البرية.

ولم نلبث أن وصلنا إلى أقرب مكان من القلعة حيث يستمر الطريق واصلاً هير، فنزلنا وتأملنا القلعة في القمة الشاهقة، وقدرنا المسافة بيننا وبينها بأكثر من اثنين من الكيلومترات يمتدان صعوداً من حيث نحن، وصولاً إليها.

وكان قطع هذه المسافة صعوداً في الجبل مشياً على القدمين فوق طاقتي فصممت على البقاء وانطلق الرفاق صاعدين، وكان بينهم الأستاذ عبد الحسين الصالحي، فكلفته أن ينوب عني في تدوين ما يشاهده في القلعة، وعن وصفه لها أكتب أنا ما أكتب عما هي عليه اليوم.

إنها قلعة ضخمة لا تزال عامرة على عكس قلعة ألموت. وهي محاطة بسور حجري عال. وكان الطريق إليها في الجبل لا يتجاوز عرضه عشرة سنتيمترات إلى عشرين في أعرض حالاته، وشاهدنا قبل الوصول إلى القلعة مجرى قناة قدرنا عرضه بثلاثين سنتيمتراً محفوراً في الصخر لجلب الماء إلى داخل القلعة، متّجهاً من الشمال إلى الجنوب فسرنا معه قليلاً، ثم عدنا، ويبدو أنه هو المجرى الذي سقط في سبيل الكشف عن أصله الرجل الإنكليزي.

ويحيط بالقلعة الضخمة واد عميق، قدّرنا أن عمقه يبلغ في ناحية ٦٠٠ متر وأخرى ١٢٠٠ متر. وعندما وصلنا إلى القلعة شاهدنا أسطوانتين من الحجر هما ركنا باب القلعة الذي قدرنا عرضه بمترين ونصف المتر، وهو يقع في الشمال الغربي من القلعة. ثم وقفنا باتجاه الشمال فرأينا نهراً يجري باتجاه القلعة في واد عميق بين جبلين شاهقين ـــ يجري من الشمال إلى الجنوب اسمه نهر نينه رود ـــ. وعندما يصل إلى قاعدة الجبل الذي تقوم عليه القلعة ينشطر إلى شطرين يتجه أحدهما إلى غرب القلعة اسمه طه در والآخر إلى شرقها وهو أكبر الشطرين يحتفظ

باسم (نينه رود) ويعود النهران فيلتقيان عند جنوب القلعة، وهكذا تحاط القلعة بالماء. وقدرنا عمق الوادي الذي يجري فيه النهر قبل انشطاره بألف متر.

وتقوم في وسط القلعة اثنتا عشرة غرفة منها ثلاث غرف لا تزال عامرة، وسقوفها على عقود حجرية، وهي مشادة بالحجر. وبداخل القلعة بانخفاض عشرة أمتار تقريباً قطعة أرض واسعة مستطيلة يظهر أنها كانت بستاناً داخل القلعة، وفي الضلع الجنوبي الشرقي من هذا البستان اسطبل كبير للحيوانات لم يبق منه إلا الجدران، وفي جنوب البستان يقع الباب الجنوبي للقلعة.

ويحيط بجوانب القلعة خمسة أبراج لا تزال سالمة في جنوب القلعة وغربها وشرقها، وتطل القلعة من الجنوب على قرية رازميان.

وفي القلعة اثنا عشر مخزناً للمياه منقورة في الصخر لا يزال بادياً من عمقها ما يقارب الستة أمتار وبقية العمق مملوء بالتراب، وهي مستطيلة الشكل بحيث يبلغ الطول سبعة أمتار والعرض أربعة، ورأينا في بعضها ماء، يظهر أنه ماء نابع.

وفي الجانب الغربي والجانب الجنوبي من القلعة بئران عميقان ربما كانا نفقين سريين للخروج من القلعة والدخول إليها.

وفي زاوية الضلع الشمالي الشرقي حمام يتشكل من ثلاث غرف متصلة ببعضها من الشرق إلى الغرب، وخلف هذه الغرف غرفة رابعة يبلغ طولها طول الغرف الثلاث معاً، وفي شرق الغرف الثلاث غرفة كبيرة مهدومة السقف في حين أن الغرف الأربع لا تزال مسقوفة.

وبعد الحمام إلى الجانب الشرقي من القلعة جنوب الحمام ٤٨ غرفة متدرجة من الأسفل إلى الأعلى، بحيث يكون سطح كل غرفة باحة للغرفة التي فوقها، بحيث تشكل كل اثنتي عشرة غرفة مدرجاً مستقلاً، وتطل هذه الغرف على نهر (نينه رود) في أكثر مكان منه انخفاضاً بحيث يقدر ارتفاعها عن الوادي الذي يجري فيه النهر بحوالي ٢٠٠٠ متر.

كما رأينا مخزناً منحوتاً من الصخر بطول ما يقارب ثمانية أمتار وعرض ثلاثة

مغطاة جدرانه بطبقة كلسية ناعمة بخلاف مخازن المياه العارية من ذلك، وقيل لنا إن هذا المخزن ربما كان مخزناً للعسل. وهناك مخزن كبير متسع جداً وهو مهدوم السقف كان مستودعاً للحبوب. ورأينا في داخل القلعة كثيراً من أشجار الرمان والتوت، كما رأينا أرومات لشجر الجوز.

وتحاط القلعة بالوديان عدا الجانب الشمالي الذي يتصل بجبال (زرده جال) وجبال (گرماجال).

حول الاسماعيليين

نشر محمد السماك محاضرة ملخصة عن كتاب له، وقد علقت على ما نشر بما يلي:

يقول الأستاذ السماك فيما يقول: «هناك مسلمون سنَّة وشيعة وعلويُون ودروز إضافة إلى حركات سياسية عديدة أخرى اتخذت من الإسلام غطاء لها مثل الاسماعيلية وغيرها من التيارات الدينية».

وبالرغم من يقيني بأن الأستاذ السماك قد عمل في بعض هذا القول بالتقية، فإنني أعذره، ولا أعرض لشيء منه بل أتجاوزه إلى ما لا تقية فيه:

من المؤسف المؤلم أن يكون المحاضر الكريم قد برز في هذا القول وكأنه واحد من أولئك الذين غرقوا في ماضي القرون بالضلال وأرادوا أن يغرقوا الناس معهم فيه إما استسلاماً للطغاة وتنفيذاً لأوامرهم وإما لعصبية عمياء لا تستطيع أن تبصر الحق مهما تجلّى وبرز.

وأنا أجل الأستاذ السماك أن يكون فيما قال مدفوعاً بأحد هذين الدافعين، ولكنه وقع فيما وقع فيه لأنه كان مقلّداً مجرد مقلّد، ولم يحاول أن يكون على شيء من الاجتهاد، ليخرج بحقائق غير ما فرض منها عبيد الطغاة، والمتعصّبون العمي، فأوقع نفسه فيما أوقعها فيه!

إنه يضيف إلى (الإسماعيلية): (غيرها من التيارات الدينية)، وليته سمى لنا

تلك التيارات لتكون، مناقشتنا له مناقشة عامة شاملة، فأما وقد اقتصر في اتّهامه الخطير على (الإسماعيلية)، فإننا سنقتصر في مناقشته عليها وحدها. ثم نناقشه في غيرها من الأفكار التي أوردها في محاضرته:

وأول ما نأخذ عليه في هذا القول أنه لم يحدد فيه أي (الإسماعيليتين) يقصد، فهناك في التاريخ (إسماعيليتان) متباينتان متعارضتان. والأستاذ السماك لم يقل لنا أي منهما هي (الحركة السياسية التي اتخذت من الإسلام غطاء لها).

الأستاذ السماك لم يفعل ذلك لأنه كما قلت مقلّد غير مجتهد، قلّد غيره في الدعاوى الباطلة، فوقع ـ عن غير قصد ـ في الضلال، وأراد أن يوقع غيره فيه كما فعل من قلّدهم، قلّد من غير تبصّر وتثبّت.

هو في ذلك مقلّد للغزالي صاحب كتاب «فضائح الباطنية» الذي هو في الحقيقة فضيحة لمؤلفه. فالغزالي لا يفرق بين الاسماعيليتين، لا يفرّق لا جهلاً، بل تعمّداً لأن من أمروه بأن يفعل ذلك كان يهمهم أن لا يفرق، ولما كان هو عبداً من عبيد السلطة فقد نفذ أوامرها وجاء أستاذنا السماك في هذا العصر يقلّده من غير تبصّر وتثبّت ـ كما قدمنا ـ.

فما هي قصة الغزالي في كتابه (فضائح الباطنية) الذي يطلق عليه أيضاً أسماء أخرى؟

لقد كانت السلطات يومذاك تنوي القيام بمذابح عامة تشمل حتى النساء والأطفال لمن يخالفونها في المذهب، كانت السلطات التي يمثلها الخليفة (المستظهر) وملوك السلاجقة تنوي هذه المذابح، وأرادت أن تستند إلى فتاوى شرعية تبرّر فيها مذابحها فلجأت إلى من هم حاضرون لإصدار أية فتوى تريدها السلطة، وكان على رأسهم الغزالي فأصدر (للمستظهر) أو بالأحرى للسلاجقة الفتوى الرهيبة الآتية، وقد فضح الغزالي نفسه بنفسه حين قال بكل صراحة إنه أصدر فتواه بناء على أمر (المستظهر) له بذلك:

أما الفتوى فهذا بعض ما جاء فيها عن الإسماعيليين:

«بناء على الأوامر الشريفة المقدسة النبوية المستظهرية بالإشارة إلى الخادم على اعتبار أن الحاجة إلى الكتاب عامة في حق الخاص والعام شاملة جميع الطبقات. . ».

وبعد هذه المقدمة التي نفَّذ فيها (خادم) السلطة أوامرها يصل الغزالي إلى هدفه فيقول فيما يقول: «. . . قبول التوبة من المرتد لا بد منه. . وأما توبة الباطنية (أي الاسماعيليين). . ففي هذا خلاف بين العلماء. . ».

ثم ذكر رأي السائرين في ركاب السلطة وأنه قد «ذهب ذاهبون إلى أنه لا تقبل توبته وزعموا أن هذا الباب لو فتح لم يمكن حسم مادتهم وقمع غائلتهم. . . ».

هذا للمسالمين من الاسماعيليين في زمن السلم، أما في زمن الحرب فإن من قبض عليه منهم كان حكمه القتل وكذلك النساء.

قال الغزالي في فتواه: «فإننا نقتلهن (أي النساء) مهما صرحن بالاعتقاد الذي هو كفر على مقتضى ما قدرناه وأما الصبيان فمن بلغ صبيانهم (من العمر) عرضنا الإسلام عليهم فإن قبلوا قبل إسلامهم وردَّت السيوف عن رقابهم إلى قربها وإن أصرّوا على كفرهم مقلّدين فيه آباءهم مددنا سيوف الحق إلى رقابهم وسلكنا بهم مسلك المرتدين».

ويقول الغزالي في فتواه: «والقول الوجيز فيه أن يُسلك بهم (جميعاً) مسلك المرتدين في النظر في الدم والمال، والنكاح والذبيحة ونفوذ الأقضية وقضاء العبادات. أما الأرواح فلا يسلك بهم مسلك الكافر الأصلي، إذ يتخير الإمام في الكافر الأصلي بين أربع خصال: بين المن والفداء والاسترقاق والقتل. ولا يتخير في حق المرتد، بل لا سبيل إلى استرقاقهم ولا إلى قبول الجزية منهم ولا إلى المن والفداء، وإنما الواجب قتلهم وتطهير وجه الأرض منهم، هذا حكم الذين يحكم بكفرهم من الباطنية. ولا يختص جواز قتلهم ولا وجوبه بحالة قتالهم، بل نغتالهم ونسفك دماءهم.

وأما النسوان فإنا نقتلهم مهما صرحن بالاعتقاد الذي هو كفر على مقتضى ما قررناه، فإن المرتدة مقتولة عندنا.

نعم للإمام أن يتبع منه موجب اجتهاده، فإن رأى أن يسلك فيهم مسلك أبي حنيفة ويكف عن قتل النساء فالمسألة في محل الاجتهاد» (انتهى).

وبعد أن سلّح الغزالي الدولة بكل هذه الحجج والبراهين، رأى أن لا يسد عليها الطريق إذا بدا لها أن تسالم أو تهادن أو تساوم أو ترتشي فذكر أن هذا الأمر ليس نهائياً وأن «الأمر منوط برأي الإمام».

والغزالي الذي أفتى بما أفتى به في حق فريق من المسلمين المؤمنين الصائمين المصلين، والذي كان يقصد بفتواه إلى هدف أبعد من رعايا (المستظهر) والسلاجقة، كان يقصد بهذه الفتوى أيضاً إلى دولة إسلامية معينة.

إن الغزالي هذا، وهو من لقب بلقب (حجّة الإسلام)، قد شهد احتلال الفرنج الصليبيين لأولى القبلتين وثالث الحرمين (القدس)، فلم يهزه ذلك ولم يثر اهتمامه ولم يجعله ينبس بكلمة واحدة.

ثم عاش اثنتي عشرة سنة بعد ذلك، فلم يعنه أبداً ما حل بالإسلام (الذي هو حجّته)، وما أصاب المسلمين، على أن الغزالي الذي قال ما قال عمن سمّاهم (الباطنية)، وافترى ما افترى على عقيدة الدولة الفاطمية، لم يجد في آخر الأمر ملجأ يلوذ به إلا حمى الذين زعم أنه ينشر فضائحهم، فآووه وحموه وعنوا به ولم يؤاخذوه على ما سلف منه.

يقول المفكر الإسلامي المصري الدكتور محمد كامل حسين في كتابه (أدب مصر الفاطمية):

«أقرب مثل نقدّمه لذلك هو الإمام الغزالي، فقد هاجم الفاطميين في كتبه: القسطاس، والمنقذ من الضلال، والمستظهري أو الرد على الباطنية وغيرها من كتبه. ولكنه وفد على مصر في أواخر حياته ووضع كتابه (مشكاة الأنوار) متأثراً ببعض العقائد الفاطمية ولا سيما نظريتهم في ترتيب العقول».

هذا هو الغزالي الذي قلّده الأستاذ السماك في الحديث عن (الإسماعيلية)، وليت الأستاذ كان مجتهداً لا مقلداً، فإذا كان باب الاجتهاد قد سد في الفقه، فلا نحسب أن أحداً قال بسدّه في التاريخ.

ورأي آخر في الغزالي قاله الدكتور محمود إسماعيل في كتابه (الحركات السرية في الإسلام) الصفحة ١٣٩: «الغزالي رغم مكانته في العلم لم يستطع أن يتحرر من وضعه الطبقي، فقد كان منعماً، ربيب بلاط السلاطين السلاجقة وقصور وزرائهم، فصلته بالوزير السلجوقي نظام الملك في غنى عن التعريف، لذلك حين يزدري العامة ويصفهم بالجهل لا يعني نعتهم بعدم العلم كما يتبادر إلى الذهن بقدر ما يعبر عن نظرة طبقية استعلائية» (انتهى).

ونحن الذين نحترم علم الغزالي لا نحترم أبداً عبوديته للسلطات وافتراءه على غيره من المسلمين وحياده في جهاد المسلمين للفرنج الصليبيين، ونبرزه نموذجاً لمن يعتمد عليهم مؤرّخو هذا العصر لا سيما في حديثهم عن العقائد والأقليات.

ويقول الأستاذ السماك: هناك قاعدة إسلامية ثابتة تقوم عليها الوحدة الإسلامية. وهذه القاعدة تتمثل في قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾. ومن شأن التأكيد على هذه القاعدة الشرعية لتساوي المؤمنين ضمن وحدة الإسلام الدينية والاجتماعية، صهر أشد الشعوب اختلافاً في العرق واللون في أمة واحدة. ولقد كان هذا التوكيد من العوامل الرئيسية التي ضمنت اتساع الامبراطورية الإسلامية اتساعاً عجيباً وصانت قوّتها والتحامها على مر القرون. ولما ضعف روح التكامل الخلقي في الإسلام كان الفوز للنزاع الشعوبي وكان فوزاً على حساب سلطان الإسلام فتجزأت الدولة وتم النصر لأعداء الإسلام». ونقول:

إن علة العلل في الباحثين المحدثين سواء كانوا مخلصين أو غير مخلصين، ولا حديث لنا مع غير المخلصين ــ وما أكثرهم ــ وإنما نتحدث مع المخلصين وفي الطليعة منهم الأستاذ السماك. إن علة العلل فيهم أنهم يرجعون فيما يكتبون اليوم إلى ما كتب في عهود مظلمة بأقلام مظلمة وعقول مظلمة وقلوب مظلمة،

يرجعون إليه كأمر مسلم به، فيبنون عليه أحكامهم، وينطلقون منه فيما يقررون.

لا أريد أن أبدأ نقاش الأستاذ السماك فيما بدأ به كلامه، بل أبدأ نقاشي بما ختم به كلامه حيث يقول: «فتجزأت الدولة وتم النصر لأعداء الإسلام».

من بدأ بتجزئة الدولة الإسلامية؟ إن الذي بدأ بتجزئة الدولة وثبت أسس هذه التجزئة عل مر العصور هو والي دمشق الذي أعلن تمرده على السلطة الشرعية وانفصاله عنها، ثم قام بما أسماه (مالك بن نبي) بالانقلاب على ما تمثله الدولة من قواعد وشرائع وأحكام فألغاها وأقام مكانها حكماً فردياً يتحكم في الدماء والأعراض والأموال والكرامات، ويكون فيه مع كل وال موظف لقبه (صاحب العذاب) لتعذيب المطالبين بالحرية والحق والعدل، فكانت تجزئته للدولة لا تجزئة مادية فحسب، بل تجزئة نفسية روحية هي شر من التجزئة المادية، فانقسمت الأمة وتشتّت أمرها تشتتاً رافقها على مر العصور وكان العامل الأساسي في كل التجزئات المادية التي حدثت بعد ذلك.

ونحن لا نريد أن نسترسل في بيان رأينا في هذا، بل ننقل للأستاذ السماك آراء بعض كبار المفكرين المسلمين الذين لا نشك أنه يعتد بآرائهم: قال الشيخ رشيد رضا في الصفحة ٩٥٥، من الجزء ١٢، من المجلّد ١٢ عن ذلك الوالي ما يلي: «لقد حوّل شكل الحكومة الإسلامية إلى حكومة شخصية استبدادية جعلت مصالح الأمة كالمال يرثه الأقرب فالأقرب إلى المالك وإن كرهت الأمة كلها، فكان هذا أصل جميع مصائب الأمة الإسلامية (انتهى).

وقال المفكر الفلسطيني المناضل الدكتور وليد قمحاوي: في مجلة «العربي» عنه: «إنه استطاع أن يجعل الوطن العربي ملكاً يتوارثه الأبناء والأحفاد، وكأنه إقطاعية كبيرة وشعبه قطيع ضخم من العبيد. وقد كان التمرد ظاهرة شائعة لا يكاد يكبت في مكان حتى يبدو في عدة أمكنة، ولا يخمد شهراً حتى يستعر أواره شهوراً».

ويقول المفكّر المصري فهمي هويدي في مجلة «العربي» (جزء تموز ١٩٨٠، الصفحة ٤٦): «أستاذنا مالك بن نبي يعتبر معركة صفين بداية المرحلة

التي أدت إلى انفصال الضمير عن العلم، منذ ذلك الحين حدث الانقلاب الأول في التاريخ الإسلامي وقد كان هذا الانقلاب أعمق وأخطر مما نتصور» إلى أن يقول: «وصار الإسلام نصاً وليس فكرة ورسالة» (انتهى).

أما عن التجزئة السياسية الإدارية فما أبعد ما ذكره الأستاذ السماك عن حقائقها! من قام بأول تجزئة سياسية إدارية لما سمّاه الأستاذ السماك: الامبراطورية الإسلامية؟.

إن التجزئة السياسية الإدارية التي كانت أساساً لكل التجزئات والانفصالات هي التجزئة التي قام بها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. هذه التجزئة التي فصلت القسم الغربي من الدولة عن القسم الشرقي فصلاً نهائياً، وتركت ذلك القسم لمصيره يعالجه وحده ما أدى في النهاية إلى ضياعه ذاك الضياع الذي يعرفه الأستاذ السماك ويعرفه غيره أيضاً.

صار على الأندلس بعد فصلها أن لا تأمل في قوة الدولة الكبرى، بل أن تعتمد على نفسها في الاحتفاظ بكيانها في مواجهة أوروبا الغربية، وأن لا تمد ببصرها إلى القوة الإسلامية المتنامية بعيداً عنها.

وعندما نراجع صفحات التاريخ يتبيّن لنا أن المد الإسلامي الذي كان آخذاً بالاندفاع في أوروبا ارتد إلى الانحسار وقت قام الكيان الانفصالي. فكان أن فقد المسلمون كل ما بأيديهم في فرنسا ثم تقدم شارلمان لغزو الأندلس نفسها، ماشياً الخطوات الأولى فيما عرف بحرب الاسترداد التي انتهت بسقوط الأندلس La reconquista.

إن الذي ينال من تمجيدكم ما ينال، والذي تلقبونه بـ (الداخل) رفعاً لشأن دخوله إلى الأندلس، هو ومن كان قبله ومن جاء بعده أساس البلاء ومصدر الداء.

وإذا كان عبد الرحمن بطل التجزئة الأولى، فإن هارون الرشيد هو البطل الثاني في التجزئة، فقد أنعم الرشيد على أحد رجاله إبراهيم بن الأغلب بولاية إفريقيا، على أن تكون هذه الولاية متتابعة في نسل إبراهيم هذا، فيليها بعده ابنه ثم

ابنه وهكذا إلى النهاية، أي أن الرشيد أنشأ أسرة ملكية في أفريقيا ووهبها تلك الولاية لتستقل بها وتنفصل عملياً عن الدولة. وهكذا قامت الدولة الأغلبية في إفريقيا مستقلة تمام الاستقلال ما عدا بعض الشكليات التي لا أثر لها في التجزئة الحقيقية والاستقلال الكامل. ثم زالت هذه الشكليات نهائياً.

وهناك التجزئة الكبرى التي أقدم عليها الرشيد حين قسّم المملكة إلى قسمين منفصلين انفصالاً كاملاً، وجعل ولاية العهد لولده محمد الأمين على أن لا يتجاوز حكمه القسم الغربي من المملكة وتكون عاصمته بغداد، في حين يستقل عبد الله المأمون بالقسم الشرقي وتكون عاصمته مرو. وأكد في الوثيقة التي كتبها في هذا التقسيم أن لا سبيل للأمين لأن يتدخل في دولة المأمون حتى في أبسط الأمور.

وطبق الرشيد هذا التقسيم في حياته فولى المأمون القسم المخصوص به الممتد من مدينة همذان إلى أقاصي أرض الدولة الاسلامية.

وأطلقت يد المأمون في الشطر الكبير مما يسميه الأستاذ السماك بالامبراطورية الإسلامية، أطلقت يده في عهد الرشيد نفسه، ثم تمّ الإطلاق بعد تولي الأمين للخلافة واستقل المأمون كل الاستقلال بحصته الكبرى من الدولة المجزأة.

ثم كان ما كان من أمر الأمين والمأمون ويعرفه الأستاذ السماك، وبدأ التدهور العام واستمرت التجزئات وتمادت.

هذه قواعد التجزئة بدأها الأمويون وسار في مضمارها العباسيون، لا ما نمّقه الأستاذ السماك من أقوال وزخرفه من ألفاظ، سائراً على سبيل من سبقه في التنميق والزخرفة قائلاً: «ولما ضعفت روح التكامل الخلقي في الإسلام كان الفوز للنزاع الشعوبي وكان فوزاً على حساب سلطان الإسلام فتجزأت الدولة وتمّ النصر لأعداء الإسلام».

ونحن نسأل الأستاذ السماك من يعني بأعداء الإسلام الذين تم النصر لهم؟

ونقول له ولغيره ردّاً على جملته التي قال فيها: «كان الفوز للنزاع

الشعوبي»، إن الشعوبية هي المشجب الذي تعلقون عليه كل الفظائع والجرائم التي ارتكبها الطغاة في الشعب المسكين المضطهد المغلوب على أمره.

وليسمع الأستاذ السماك كلمة التاريخ فيمن أوجدوا الشعوبية ووضعوا أسسها:

قال أبو الفرج الأصفهاني: «أصل المثالب (مثالب العرب) زياد بن أبيه فإنه لما ادّعى انتسابه إلى أبي سفيان وعلم أن العرب لا تقر له بذلك مع علمها بنسبه، ومع سوء آثاره فيهم، عمل كتاب المثالب، ألصق فيه بالعرب كلها كل عيب وعار وحق وباطل».

وقال القول نفسه أبو عبيد البكري في شرح أمالي القالي.

وقال ابن قتيبة الدينوري: كان زياد حين كثر طعن الناس عليه في استلحاق معاوية له بأبي سفيان عمل كتاباً في المثالب لولده، وقال: من عيَّركم فاقرعوه بمنقصته ومن ندّد عليكم بادهوه بمثلبته، فإن الشر بالشر ينفى والحديد بالحديد يفلج.

وذكر هؤلاء المؤلفون أن الهيثم بن عدي ــ وكان دعياً ــ وأبا عبيدة معمر بن المثنى ــ وكان من أصل يهودي ــ استمدا من كتاب زياد انتقاص العرب.

وعن ذلك يقول أبو عبيد البكري أيضاً: «وأما كتاب المثالب والمناقب الذي بأيدي الناس اليوم فإنما هو للنضر بن شميل الحميري وخالد بن سلمة المخزومي، أمرهما هشام بن عبد الملك أن يبينا مثالب العرب ومناقبها وقال لهما ولمن ضم إليهما: دعوا قريشاً بما لها وما عليها، فليس لقريش ذكر في ذلك الكتاب».

يقول الأستاذ السماك: «هناك قاعدة إسلامية، ثابتة تقوم عليها الوحدة الإسلامية، وهذه القاعدة تتمثل في قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾. ومن شأن التأكيد على هذه القاعدة الشرعية لتساوي المؤمنين ضمن وحدة الإسلام الدينية والاجتماعية صهر أشد الشعوب اختلافاً في العرق واللون في أمة

واحدة. . » إلى آخر ما قال في هذا الموضوع.

ونحن نسأله هل كان هناك تطبيق عملي لهذه القاعدة ممن استولوا على حكم الإسلام، وهل عوملت الشعوب التي أسلمت بمنطوق هذه الآية؟

بل نحن نسأل هل عومل العرب أنفسهم بها، أو العرب صنفوا صنوفاً ومزّقوا مزقاً، وكان لكل صنف منهم نوع من التحكم فيه والتعامل معه يختلف عمّا يجري على الصنف الآخر.

ونحن نذكر للأستاذ السماك نماذج مما كان يعانيه أحرار العرب:

أحدث الحكام الذين تولوا حكم العرب والمسلمين منذ السنة (٤١) هجرية وظيفة جديدة ـ كما ذكرنا ـ لتثبيت حكمهم هي وظيفة (صاحب العذاب). ويكفي ذكر عنوان الوظيفة لمعرفة مهمة متولي أمرها، وكان لوالي العراق عبيد الله بن زياد صاحب عذاب، ومن قصصه ما رواه ابن عبد البر في كتاب (الاستيعاب) وهو يتحدث عن الصحابي قيس بن خرشة القيسي: «أراد عبيد الله بن زياد تعذيبه لأنه كان قوالاً بالحق فلما أعد له العذاب مات قبل أن يصيبه شيء.

وصاحب السيرة الحلبية يقول هو يروي القصة: إن عبيد الله بن زياد قال: ائتوني بصاحب العذاب، فمال عند ذلك قيس فمات».

لقد كان مجرد ذكر صاحب العذاب كافياً لأن يحدث صدمة في نفس الصحابي قيس بن خرشة فيموت في الحال.

وكان كل ذنبه أنه قوّال بالحق.

إن الحكم الذي تقوم قواعده على (أصحاب العذاب) لا يستطيع الأستاذ السماك ولا غير الأستاذ السماك أن يستشهد له بآية: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (انتهى).

الإسماعيليون الإيرانيون في العهد القاجاري

بعد انقراض حكومة الإسماعيليين النزاريين على يد هولاكو عام ٦٥٤ هـ أخذ أتباع المذهب الإسماعيلي يعملون في إيران بصورة مشتتة وسرية، ولذلك لا تتوفر معلومات كافية عن الأشخاص البارزين منهم في تلك الفترة، واستمر هذا الوضع حتى أخذ عدد الإسماعيليين يتزايد في كيج ومكران والسند ونواحي كرمان وخراسان. ومن أشهر زعماء الإسماعيليين في إيران بعد القرن السابع الهجري وعلى وجه التحديد في العهد الزندي، السيد أبو الحسن خان الكهكي، الذي يعتقد الإسماعيليون أنه رجل مرتاض وصاحب كرامة، بينما يراه الشيعة رجلاً مشعوذاً. وقد ذكر أن الإسماعيليين كانوا يرون فيه إماماً واجب الطاعة، وكان معززاً مكرماً في العهد الزندي وأوائل العهد القاجاري، وشغل لفترة منصب حاكم كرمان وكان يدعي السيادة والانتساب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

بعد وفاته ادعى خلافة الإسماعيليين في إيران ابنه الشاه خليل الله، وحين انتزعت حكومة كرمان منهم، فضل الاستقرار في يزد، فكان المريدون والمعتقدون به يتوافدون عليه من كل مكان لتقديم خمس النذور والأموال، فنال بذلك مكاناً مرموقاً وشأناً غاية في الرفعة. وكان وجهاء الدولة وأعيانها يترددون عليه ويتوددون إليه، فحظي بشهرة واسعة لمكانته في الدولة وبين العوام. من هنا أخذ علماء يزد يطعنون به وينتقصونه منه بالتدريج، حتى وقع النزاع بين أنصار الطرفين.

فقد حدث نقاش حاد بين أنصار الشاه خليل الله وبعض شيعة يزد في عام ١٢٣٢ هـ حينما كان محمد زمان خان الأصفهاني ابن الحاج محمد حسين خان صدراً لحكومة يزد. وكان المحرك الأساس لشيعة يزد هما: الميرزا جعفر صدر الممالك والملا حسين واعظ العقدايي، وتطور الأمر إلى نزول الشيعة في شوارع يزد وأسواقها، حيث أخذوا يبحثون عن أنصار الشاه خليل الله ويقتلونهم، ثم توجهوا نحو دار شاه خليل الله فتحصن من فيه وأطلقوا النار على المهاجمين فأصابوا عدداً منهم، مما زاد في غضب المهاجمين فلجؤوا إلى البيوت المجاورة، وأحدثوا فيها نفقاً نفذوا منه إلى دار شاه خليل فقتلوه ومن معه من أتباعه، ونهبوا

أمواله. وحين بلغ طهران خبر الحادثة، عمد فتح علي شاه القاجاري إلى عزل محمد زمان خان عن حكومة يزد، وأمر بالقبض على الملا حسين العقدايي والميرزا جعفر صدر الممالك وحملهما إلى طهران، وحاول جبر الموقف فاستدعى إلى طهران السيد حسن علي خان (علي شاه) المعروف بعطا شاه بن شاه خليل الله واستقبله بكل احترام وزوجه إحدى بناته، وإلى ذلك عيّنه حاكماً على قم ومحلات ولقبه بلقب (آغاخان).

استقطب آغاخان أتباع الفرقة الإسماعيلية في وقت قصير، والتف حوله عدد كبير من المريدين. وكانت أمه امرأة جليلة القدر رفيعة الشأن وهي ابنة السيد صادق نعمة اللهي، وكان أتباعها ينسبون لها الكرامات. وقد حظيت بمكانة خاصة في نفوس عامة الناس لإحسانها الدائم للزائرين والمسافرين وإنعامها عليهم. وبعد وفاة فتح علي شاه وتولي حفيده محمد شاه الحكيم عُين آغاخان حاكماً على كرمان عام (١٢٥١ هـ) ولكن حكومته هذه لم تدم طويلاً، إذ عين الأمير فيروز ميرزا حاكماً على كرمان في نفس العام. وفي هذه الأثناء كان آغاخان المحلاتي في سرحدات، فلما سمع بالنبأ لم يذهب إلى كرمان، بل تحصن في قلعة (بم). وحين بلغ طهران خبر تحصنه أمر فيروز ميرزا بقمع آغاخان، فأرسل هذا رسوله إلى حاكم شيراز بكتاب جاء فيه: «لست خارجاً على الدولة ولا متمرداً، ولكني خائف من أعمال الميرزا آقاسي لانقلابه علي، ولمكانه من الشاه وبذاءة لسانه وفحشه». فأبلغ حاكم شيراز طهران بالأمر وتوسط بين الطرفين، فقدم آغاخان إلى طهران، ولجأ في بداية قدومه إلى مرقد عبد العظيم في مدينة الري.

في هذه الأثناء كان هناك شخص يدعى الحاج عبد المحمد وهو من أهل محلات، وكان في خدمة آغاخان المحلاتي سابقاً، ثم ترك الدنيا ــ حسب الظاهر ــ ولبس ثياب الفقراء والعرفاء، ويرتبط هذا الشخص بعلاقة طيبة مع الصدر الأعظم حاج ميرزا آقاسي، فتوسط لديه للعفو عن آغاخان، فعفا عنه، وأرسله إلى محلات ليعيش فيها في عزلة فمكث هناك حتى عام ١٢٥٥ هـ بين الخوف والرجاء. وكان يشاهد الحاج عبد المحمد تحكماً بشخصه، ويسمع من الميرزاآقاسي أقوالاً لم يكن يتوقعها، فضاق ذرعاً بذلك ولم يستطع التحمل أكثر،

فاستجاب لدعوة مريديه في كرمان وخراسان وكيج ومكران الذين كانوا يدعونه ــ دائماً ــ إليهم، فتظاهر بالمسير إلى الحج وغادر محلات بجمع كبير من أتباعه والمقربين إليه. وقد بادر في بادىء الأمر إلى إرسال أهله وذويه إلى العتبات، ثم تحرك هو وحوالي أربعمائة شخص من مريديه صوب كرمان على عجل. وتزامناً مع اجتيازه لأرض يزد، صدرت الأوامر لحاكم هذه الولاية الأمير بهاء الدولة الميرزا بهمن بن فتح علي شاه بمنع عبور آغاخان، فعمد إلى حشد قوة من يزد ثم تحرك بها ليدرك آغاخان قبل خروجه من أرض يزد، فأدركه في كالمندوهي آخر مناطقها. فأرسل آغاخان إلى الأمير كتاباً جاء فيه: «نحن زوار أولاً، وثانياً: لا خلاف بيننا، فالأفضل أن تعود دون التعرض لنا، فنحن بدورنا خارجون عن أرضك». ولما رأى الأمير الميرزا بهمن قلة جماعة آغاخان حمل الكتاب على محمل الضعف فهاجمهم. فتصدى له آغاخان بإخوانه ومرافقيه فهزمه، ثم توجه إلى مدين بابك. وفي سيرجان وكرمان وقع اشتباك بينه وبين موظفي الدولة، وفي رشت آباد وقعت معركة بينه وبين قوات الدولة بقيادة اسفنديارخان أخي حاكم كرمان فضل علي خان القراباغي، فقتل فيها اسفنديارخان وأسر بعض قادته، ثم استولى آغاخان على قلعة مشيز، وفي تلك الأثناء بلغه أن قائد المدفعية حبيب الله خان تحرك من طهران في قوة كبيرة كما صدرت الأوامر لحاكم فارس وعمال نواحيها بالقضاء عليه. وحينئذ توجه إلى سيتان ومنها إلى قندهار وبعد مفاوضة مع الحكومة الإنجليزية أقام في بومباي، واستمر توافد المريدين عليه فأمضى بقية حياته معززاً مكرماً حتى توفي عام ١٢٩٨ هـ عن عمر ناهز التسعين.

خلّفه ابنه علي شاه وهو ابن (سروجهان) الابنة الثالثة والعشرين لفتح علي شاه، واستمر لقب (آغاخان) إرثاً في العائلة.

ورد في تاريخ رجال إيران في القرون ١٢ و ١٣ و ١٤ للهجرة عن مواجهة السيد حسن علي خان (علي شاه) (أو آغاخان المحلاتي) مع حكومة محمد شاه القاجاري، كما يلي: «كانت الفوضى سائدة في جميع أنحاء إيران في زمن سلطنة محمد شاه القاجاري، وذلك لكون هذا الشاه مريضاً ولصدارة الحاج الميرزاآقاسي

من جهة وللخلافات الموجودة آنذاك مع بريطانيا بشأن أفغانستان (الولايات الإيرانية سابقاً) وما ينتج عنها من تحريضات وتحركات معادية لإيران من جهة أخرى، وقد كان النظام منفرطاً تماماً في جميع أنحاء إيران. وكان الإنجليز يحاولون إيجاد فاصلة بعيدة بين روسيا والهند وذلك بخلق دويلات صغيرة ضعيفة، لتكون الهند بذلك في مأمن من جاراتها لضعف هذه الجارات من جهة ولتكون بعيدة عن حدود روسيا من جهة أخرى. وكان مخططهم يقضي بتحويل ولايات خراسان وفارس وخوزستان وكرمان وبلوجستان إلى ولايات مستقلة على غرار ما فعلوه في أفغانستان، وقد تسنى لهم ذلك في بعض الأوقات ولا سيما في الأوقات التي كانت فيها إيران تعيش الفوضى والاضطراب، إلا أنهم كانوا يصطدمون في كل مرة بعقبات معينة، حتى كان زمن صدارة الحاج الميرزاآقاسي فرأوا الوقت مناسباً لتنفيذ مخططاتهم، ومن ثم دفعوا آغاخان الساخط إلى العصيان. وقد ذكرت عدة أسباب لعصيان آغاخان منها علاقته بالانجليز ووعدهم له بالسلطة المستقلة في كرمان وبلوجستان ومنها عدم رضاه عن الأوضاع وحبّه اللامحدود للجاه وطموحه للمناصب العليا في السلطة بل الأخذ بمقاليد الحكم في الدولة.

قدم آغاخان من مرقد عبد العظيم إلى مدينة طهران، ولجأ فيها إلى دار الحاج الميرزاآقاسي حتى صدر العفو عنه. وحين عزم على العصيان والتمرد، بادر للوهلة الأولى إلى استئذان الشاه محمد بالسفر متذرّعاً بعزمه على الذهاب إلى الحج، فوافق الشاه على طلبه وأذن له. وحينئذ أرسل آغاخان أهله وعياله وأمواله إلى العتبات المقدسة في العراق عن طريق بغداد، وتظاهر هو بالاستعداد للسفر، فاشترى خمسمائة جواد عربي واستخدم عدداً كبيراً من الفرسان الشجعان وبعد اكتمال مستلزمات العصيان خرج إلى كرمان مع إخوانه وأنصاره في شهر رجب عام ١٢٥٥ هـ.

ولكي يسهل الأمر عليه، استعان بالميرزا أحمد صانع الورق والخطاط المعروف في أصفهان في تزوير أمر شاهي يقضي بتعيين آغاخان حاكماً على كرمان

وبلوجستان ويأمر جميع أهالي كرمان بطاعته، وخلال ذلك كتب إلى عمال كرمان بالاستمرار في مزاولة أعمالهم وإدارة شؤون الرعية حتى يصل إليهم، وأعلمهم ضمن ذلك بأنه كان عازماً على الذهاب إلى الحج ولكن جلالة الشاه عينه حاكماً على كرمان.

اطلعت الدولة على مخططاته بسرعة، فقامت هذه المرة ـ وخلافاً لعادتها ـ بالرد السريع لإحباط هذه المخططات، حيث أرسلت رسولها دون تلكؤ إلى كرمان وشددت في طلبها من حاكم هذه الولاية على ضرورة الإسراع في التصدي لآغاخان والقبض عليه، وكان وصول الرسول إلى كرمان سابقاً لوصول آغاخان إليها بستة أيام. فبادر الحاكم إلى تحصين السور وإرسال أخيه في قوة عسكرية للتصدي لآغاخان. والتقى الفريقان ودارت المعارك بينهما، واستمرت محاولات آغاخان لفتح كرمان ١٤ شهراً ولكن دون جدوى، وقد وقعت خلال ذلك معارك طاحنة بين أنصار آغاخان وقوى الدولة في نواحي كرمان مثل: بابك وأحمدي ولار واسفندقة وجيرفت، وقتل خلال هذه المعارك عدد كبير من الجانبين، وكان آغاخان يقاتل خلال تلك المعارك بشجاعة بالغة، حتى إنه قتل في إحداها اسفنديار خان قائد قوات الحكومة.

وبعد أن رأى آغاخان عدم جدوى الاستمرار في محاولاته في فتح كرمان، توجه في شتاء عام ١٢٥٥ هـ إلى بندر عباس وميناء ميناب، حيث كان الإنجليز قد حشدوا له هناك عدة مدافع وترسانات كبيرة من الأسلحة، فاستلمها منهم وعاد هذه المرة لمحاولاته بقوة كبيرة وقلب مطمئن، وبعد محاولات مريرة هزمته القوات الحكومية هزيمة نكراء في ريگان، آخر حدود نرماشير، فانسحب سالكاً طريق لوط والتحق بالقوات الإنجليزية مع البلوش الذين كانوا يحاربون إلى جانب الإنجليز أيضاً.

وقد جاء في كتاب خواطر آغاخان تحت عنوان «عبرت افزا» ما يلي: «اطلع آغاخان على عزم خان كلات على قتل الجنرال الإنجليزي وشن هجوم ليلي على قواته، فبادر إلى إطلاع الجنرال بالأمر، وقام هذا بتغيير المكان فنجا بذلك من

خطة الخان. وقام آغاخان فيما بعد بالاشتراك مع أنصاره بقتال البلوش في قندهار وبلوجستان جنباً إلى جنب مع القوات الإنجليزية، وما زال في ذلك حتى سئم من كثرة الحروب، فتوسط عام ١٢٦٠ هـ، بين الإنجليز والبلوش، فأوصى البلوش بالتنازل للإنجليز عَمَّا يشاؤون من الأرض مقابل أخذ رواتب ومقررات ثابتة منهم. وهكذا دخل خان كلات (نصير خان الثاني) تحت الوصاية البريطانية».

وحول حمل جنازة حسن علي شاه المعروف بعطا شاه أو آغاخان وإقامة مقبرة له، كتب السيد أحمد الديوان بيگي الشيرازي ما يلي: «بعد وفاته ارتأى البعض أن تحمل جنازته إلى العتبات المقدسة، ولكن مريديه أجمعوا على الرفض وأصروا على أن يدفن عندهم في بومبي، وقدموا لأجل ذلك مبالغ طائلة لعلي شاه، فلم ير بدأ من الاستجابة لرغبتهم ومن ثم كان دفنه في بومبي. ويقال إن أموالاً طائلة جمعت مما نثر على الجنازة من حلي النساء والفتيات والعرائس وقدمت إلى خزينة علي شاه. وإضافة إلى ذلك قدمت مبالغ أخرى للمسؤولين الإنجليز ليأذنوا في إقامة بناية عالية وقبة وإيواناً وصحنا في المقبرة، وأنفقت أموالاً كبيرة في تشييد البناية وإعداد الزينة والفراش والمصابيح»(١).

استتار الأئمة الإسماعيليين

توفي إسماعيل في حياة أبيه جعفر الصادق عليه السلام سنة ١٤٥ هـ فرأى أتباعه أن الإمامة يجب أن تنتقل بعد وفاة الصادق إلى حفيده محمد بن إسماعيل.

وكان محمد بن إسماعيل يقيم أول الأمر في المدينة، وأمعن أنصاره في التخفّي ونشر الدعوة له سرّاً في عهد الخلفاء العباسيين: المهدي والهادي والرشيد. ولما ذاعت دعوته في خلافة الرشيد أيقن أن بقاءه في المدينة سيسهل على العباسيين مهمة تتبع حركاته والتخلص منه فرحل عنها شرقاً، وأخذ يتنقل بين البلاد الإسلامية، فذهب إلى الري، ثم انتقل إلى جبل دماوند القريب منها،

(١) حديقة الشعراء. تأليف السيد أحمد الديوان بيگي الشيرازي. تصحيح الدكتور عبد الحسين النوائي. ج ٢، ص ١٢١٣.

واستقر هناك في قرية تدعى سملا، أطلق عليها فيما بعد اسم: محمد آباد نسبة إليه[١] ولما توفي محمد خلفه في الإمامة ولده عبد الله الذي بالغ في الاستتار حتى عن أخص دعاته وأتباعه، وتابعه خلفاؤه في هذا الاستتار لأن العباسيين كانوا يلاحقونهم للقضاء عليهم.

واستقر عبد الله في مدينة (سلمية) بسوريا التي قدم إليها بصفته تاجراً. ويصف الكاتب الإسماعيلي محمد حسن الأعظمي وصول عبد الله إلى سلمية فيما كتبه إلينا بهذه الصورة مأخوذاً عن كتاب (استتار الإمام):

وأتى الدعاة إلى محمد بن عبد الله بن صالح (باني سلميَّة) فقالوا له إن ههنا رجلاً بصريّاً من التجار يسألك فيما يسألك به هؤلاء التجّار. فأمرهم أن يطلبوا موضعاً يصلح له، وفرح به وأنزله في مجرى المدينة في ناحية سوقها، فاشترى له دار أبي فرحة ونزل بسلمية كسائر التجار. فلما نزل بها زاد دوراً كثيرة وهدم وبنى وتأهّل وأتى إليه طوائفه ودعاته وأحدث قصراً شامخاً.

وبعث دعاته إلى جميع البلدان سراً وعزل وولى على أنه رجل تاجر، وولد له بها أحمد وإبراهيم، وتوفي الأخير وكانت الإمامة لأحمد دون إبراهيم. وبقيت الإمامة في عهده ومن بعده ناضرة زاهرة في خفص من العيش ونعمة من الدنيا وحياطة من الحاشية والحشم. يراسلها الأتباع والأنصار وتؤاتيها الذخائر والهدايا. على حين كانت سياسة الأئمة تقوم على حسن المعاملة ولطف المجاملة مع العشراء والجيران حتى مع من يفد إلى «سلميَّة» من عمّال بغداد. وقد كانوا يحسبون ألف حساب لسطو أعدائهم المغيرين، ولا يأمنون غوائلهم فاحتفروا السراديب التي يبلغ طولها إثني عشر ميلاً تسير من تحتها (الجمال محملة بنفائس الأموال). ثم تدفن تلك الكنوز تحت أبنية القصور وتحت البرك المرصوفة التي لا

---

(١) الدولة الفاطمية في مصر للدكتور محمد جمال الدين سرور، (طبعة سنة ١٩٩٥ ص ٢٠ ــ ٢١). ويقول الأستاذ عارف تامر في الجزء الأول من كتابه (تاريخ الاسماعيلية، ص ١١٨، ط ١٩٩١) أنه ترك نهاوند متستراً إلى نيسابور ومنها إلى فرغانة ثم إلى عسكرم مكرم ثم انتهى إلى تدمر في بلاد الشام.

تنضب منها المياه صيفاً ولا شتاء، وكذلك تحت الأشجار والنخيل كل ذلك للإبهام على اللصوص والمغيرين.

قال: وكانت الأموال والذخائر تحمل إليه من كل بلد من قبل الدعاة إلى سلمية، وكان الإمام قد حفر سرداباً في الأرض من الصحراء إلى جوف داره بسلمية طوله إثني عشر ميلاً، وكانت الأموال تحمل على الجمال فيفتح لها باب السرداب في الليل وتنزل فيه بأحمالها عليها حتى تحطّ في داخل الدار، وتخرج في الليل ويعمى على باب السرداب بالتراب، فلا يدري به أحد. وكانت الأموال عظيمة حتى يقال إنه ما كسب المهدي بعد أن فتح الله له إلاّ نحواً ممّا خلف بسلمية[1] (انتهى).

السلمية

تقع في سهل مديد على أبواب صحراء الشام من الجهة الغربية. قال عنها اليعقوبي في كتابه (البلدان): سلمية مدينة في البرية.. وكان عبد الله بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب قد ابتناها وأجرى إليها أنهراً واستنبط أرضها حتى زرع فيها الزعفران. وأهلها من ولد عبد الله بن صالح الهاشمي ومواليهم وأخلاط من الناس تجار ومزارعين.

وفي سلمية وسهولها المديدة يقول المتنبي في إحدى قصائده بسيف الدولة:

فأقبلها المروج مسومات ضوامر لا هزال ولا شيار
تثير على سلمية مسبطراً تناكر تحته لولا الشعار

وقد كان عبد السلام بن رغبان (ديك الجن) يفد إليها في جوار جعفر بن علي الهاشمي. ولما توفي جاءها من حمص ورثاه بقصيدة جاء فيها:

على هذه كانت تدور النوائب وفي كل جمع للذهاب مذاهب
نزلنا على حكم الزمان وأمره وهل يقبل النصف الألد المشاعب

(١) كتاب استتار الإمام، ص ١٠٨.

ألا أيهـا الـركبـان والـرد واجـب قفوا حدثونا ما تقول النوادب
إلى أي فتيان الندى قصد الردى وأيهـم نـابـت حمـاه النـوائـب

والإسماعيليون النازلون فيها اليوم هم (آغاخانيون) وليس عهدهم فيها ببعيد، بل جاءوها سنة ١٨٤٨ م بقيادة الأمير اسماعيل بن محمد العلي، من القدموس ومصياف وعكار والخوابي وعمّروها بعد خرابها وخلوها من السكان، على عكس ما يُظن من أنهم من بقايا الإسماعيليين الأوائل، فهؤلاء رحلوا برحيل عبد الله المهدي ولم يبق فيها أحد منهم.

ومن أفضل ما كتب عن السلمية ما كتبه أحمد الجندي الذي ولد ونشأ فيها. قال: كانت بلدة السلمية حين ولدت فيها سنة ١٩١٠ بلدة صغيرة المساحة والسكان. فلم يكن يتجاوز عدد سكانها أربعة آلاف نسمة أكثرهم من أبناء الطائفة الإسماعيلية الذين نزحوا من الجبل الغربي (جبل اللاذقية) أعني مصياف والقدموس والخوابي ومن بعض القرى والمدن الأخرى التي كان أبناء هذه الطائفة قد لجؤوا إليها لأسباب مختلفة، منها العمل وانتجاع العيش أو الانصهار والاتصال بالألوان الأخرى من هذا الشعب السوري المختلف الأشكال والأصول والألوان. كانت هذه البلدة يوم ولادتي مؤلفة من بيوت أكثرها من (اللِّبن) أعني الطين المجفف، وكانت تتألف في أكثر أقسامها من القباب المبنية على شكل مخروطي مع باب صغير وبعض النوافذ الصغيرة التي لا تتّسع إلا للطفل الصغير، يدخل منها الهواء والنور أثناء النهار، كما كانت هناك بيوت من الحجر، بعضها بني بشكل هندسي فني وبعضها بني بلا نظام ولا ترتيب.

وكانت هذه البلدة تتألف من أربع حارات أو أحياء هي: الحي القبلي والشرقي والشمالي والغربي، وفي وسط البلدة ساحة كبيرة يقع فيها مقهى البلدة الذي كان فيما مضى داراً للبلدية. وللسلمية تاريخ قديم عريق يمكن أن نختصره على الشكل التالي:

تقع السلمية في المنطقة الوسطى من سورية وهي مع مدينتي حمص وحماه تشكل مثلثاً زاويته الأولى حمص وإلى الشمال حماه، وشرقي حماه تقع السلمية،

وبين حمص والسلمية خمسون كيلومتراً، وبينها وبين حماه خمسة وثلاثون كيلومتراً، فهي تقع إلى الشرق من المدينتين وعلى سيف الصحراء التي كانت تسمى بادية السماوة أو بادية بني كلب، وقد أطلق عليها في السنين الأخيرة اسم (الحماد). ويحيط بالبلدة مرتفعات كثيرة متنوعة وجبال قليلة الارتفاع. وقد تناوبت عهود كثيرة وأجناس متعددة على هذه البلدة فملكها أولاً العمّوريون ثم الحثيون ثم الآراميون ثم الأشوريون ثم الكلدانيون فالفرس ثم الاسكندر المقدوني الذي تولى سوريا بعده سيلوقوس، ثم تولى أمرها الرومان الذين ينسب إليهم سورها القديم كما تنسب إليهم الأقنية التي اشتهرت بها هذه المدينة والتي بلغ عددها حوالي ستين قناة تسير من الشرق إلى الغرب لتسقي أراضيها وتروي مزارعها. والآثار اليونانية والرومانية ما زالت باقية في البلدة على شكل أعمدة وأحجار عليها نقوش وتصاوير يونانية ورومانية. وقد سمّاها اليونانيون السلاميس تيمّناً بمعركة السلاميس اليونانية التي انتصروا فيها على الفرس، أو لأن السلمية تشبه مدينة من مدن اليونان هي مدينة سلاميس الكائنة على ساحل بحرايجة. ولكن الذي أراه أن السلمية سميت بسلامنياس بالنسبة لمركبات ملح الطعام وملح البارود فيها «أعني كلورور الصوديوم» و «كلورور البوتاسيوم»، وهذا الأخير يشكل ملح البارود الذي اشتهرت به هذه البلدة في أوائل هذا القرن. وأما ملح الطعام فيها فبالنسبة للسبخة التي تقع شمالي البلدة والتي كانت مصدراً من مصادر ملح الطعام في هذه المنطقة. وهناك تسمية أخرى للبلدة ولكنها أسطورية كما أعتقد، فقد جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي (م ٣، ص ٢٤٠) أن بلدة سلمية كانت تقع قرب بلدة المؤتفكة التي نزل بأهلها العذاب فدمرت ولم يسلم منها سوى مئة نفس فنزع هؤلاء إلى سلمية فعمروها وسكنوها فسميت (سلم مئة) ثم حرف الاسم إلى سلمية، ثم اتخذها منزلاً له ولولده عبد الله بن صالح العباسي وبنى فيها الأبنية كما بني بها المسجد ذا المحاريب السبعة.

ولا شك أن الشيء البارز والهام في تاريخ سلمية كله هو علاقتها مع آل البيت، فأهل سلمية هم منذ القديم من الفئة الاسماعيلية.

إلى أن يقول الجندي:

خرج الإمام محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق متخفياً عن عيون أبي جعفر المنصور من المدينة المنورة وذهب إلى الشرق متنقلاً بين بلدة الري من أرض فارس ونهاوند ودماوند، ولكنه لم يطمئن لأن عيون الخليفة كانت تلاحقه فاتجه إلى الغرب وإلى مدينة تدمر بالذات من سوريا، وذلك عام ١٩١ هـ فاستوطنها وتوفي بها وقبره يدعى الآن: قبر محمد بن علي، وقد خلفه في الإمامة ابنه عبد الله بن محمد، فلم تعجبه تدمر واختار بلدة السلمية لأنها كانت بلدة تجارية وفيها مياه عذبة وفيها غرباء كثيرون. في هذه البلدة كان الدعاة الإماميون برئاسة الإمام (الوفي أحمد) بن عبد الله مار الذكر، وقد سميت الدار التي كانت تقام فيها الاجتماعات: دار الدعوة. وقد كنّا ونحن أطفال ندخل بعض البيوت القديمة في سلمية فننزل في أقبية عميقة فيها غرف ومياه وكل ما يلزم للسكنى، ويبدو أن هذه البيوت كانت مخابىء لهؤلاء الذين كانت الحكومة العباسية ناقمة عليهم.

ومن المهم هنا أن نذكر أن (إخوان الصفا) الذين يتحدث عنهم المؤرخون هذه الأيام ودارسو الفلسفة، قد كانوا من دعاة الإمام. ويؤكد المحفوظ من المخطوطات عند الطائفة الاسماعيلية أن إخوان الصفا هم دعاة مستورون للأئمة وأنهم كانوا في سلمية ولهم فروع في أمصار أخرى، وقد عملوا للائمة المستورين: وفي أحمد، وتقي الدين، ورضي الدين عبد الله الذي هو والد أبي محمد المهدي الذي ذهب إلى افريقيا وبني فيها بلدة المهدية وتفرعت عنه الدولة الفاطمية.

ولقد تعرضت بلدة السلمية إلى كوارث كثيرة من أهمها: الزلازل التي هدمتها مراراً، وإلى غزوات البدو المحيطين بها، وأهم من ذلك غزو القرامطة الذين فتكوا بأهلها فخربت وأصبحت مرتعاً للبدو الذين طمعوا بالاستفادة من أهلها، فغادر الأهلون البلدة أو أكثرهم إلى جهات أخرى. وفي العهد العثماني كان كل ما تبقى من سلمية سورها القديم الروماني وقلعتها التي أصبحت مركزاً لرجال

الأمن على سيف البادية، وحين آن الأوان لإعمار هذه البلدة كان الاسماعيليون في الجبال الغربية قد وقع اختيارهم عليها، وقد وافقت الحكومة التركية على هذه الفكرة لأنها بلدة إسماعيلية في الأصل. وهكذا عادت سلمية ثانية لتكون بلدة وذلك سنة ١٨٤٨ م.

في سلمية

استقر عبد الله مع ابنه أحمد ولي عهده في سلمية بعد أن هاجر إلى مازندران والأهواز. ولما توفي عبد الله تولى الامامة ولده أحمد، وأصبحت (سلمية) المركز الرئيسي للدعوة الإسماعيلية، فكان يخرج منها الدعاة لنشر دعوتهم في البلاد الإسلامية. وظلت على هذه الحال أيام الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله الذي استطاع أن يقيم في سلمية آمناً مطمئناً دون أن تناله يد العباسيين. والواقع أن كرم الإمام الحسين وبذله الأموال الكثيرة وتفانيه في إظهار حبه للهاشميين وتفاني أنصاره في طاعته، كل ذلك ساعد على ذيوع الدعوة في سلمية[1] ومنها انتشرت في أنحاء العالم الإسلامي.

وبالرغم من أن الدعوة كانت سرية في عهد الاستتار وكان الأئمة ودعاتهم يتخذون الستر تقية على أنفسهم خوفاً من بطش العباسيين فقد استطاع الباحثون المحدثون بفضل الكشف عن بعض مخطوطات الفاطميين أن يعثروا على أسماء بعض الدعاة الذين كانوا في دور الستر الأول. نذكر من هؤلاء الدعاة: الحسين بن حوشب بن زادان الملقب بمنصور اليمن، وهو الذي أوفده الإمام الثالث من أئمة دور الستر ــ الحسين بن أحمد بن عبد الله ــ للدعوة باليمن. ومنهم الداعي فيروز وكان داعي الدعاة في زمن المهدي قبل ظهوره في المغرب، وكان من أجل الناس عند الإمام ومن أعظمهم منزلة، والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده. وهو باب الأبواب إلى الأئمة. ومنهم أبو جعفر الجزري، وكان له أيضاً محل جليل عند المهدي لأنه كان من كبار الدعاة، ووكله المهدي بالحريم عندما فر من سلمية،

(١) الدولة الفاطمية للدكتور سرور، ص ٢٠ ــ ٢١.

وتوفي هذا الداعي برقادة بعد أن فتحها المهدي. وكان الداعي بمصر في وقت فرار المهدي إلى المغرب رجلاً يعرف بأبي علي الداعي، وكان رأس الدعاة بمصر، وأبو علي هذا هو الذي ذكره جعفر بن منصور اليمن في كتابه (الفترات والقرانات) ملقباً بالشيخ الأجل المفيد، وهو أحد تلاميذ فيروز وزوج ابنته وأنجب ابنه محمداً أبا الحسين بن أبي علي الداعي الذي بلغ مع الأئمة المهدي بالله، والقائم بأمر الله، والمنصور بالله، والمعز لدين الله: المحل الجليل العظيم وكان داعي الدعاة. وجاء في كتاب (استتار الإمام) أن عدداً من الدعاة اجتمعوا للبحث عن الإمام المستور، وهم أبو غفير وأبو سلامة وأبو الحسن بن الترمذي وجياد الخثعمي وأحمد بن الموصلي وأبو محمد الكوفي. وهؤلاء جميعاً لا نعرف عنهم شيئاً.

أما في دور الظهور ـ الذي يبدأ بظهور المهدي في المغرب إلى انقراض الدولة الفاطمية ـ فقد وصلت إلينا أسماء عدد كبير من الدعاة، كما وصلت إلينا بعض كتبهم»[1].

الاسماعيلية في اليمن

وأول انتشار واسع للإسماعيلية كان في اليمن فقد استطاع الداعي الاسماعيلي الحسين بن حوشب الملقب بمنصور اليمن أن ينجح في دعوته في اليمن وأن يتغلغل في القبائل اليمنية فيركز فيها المذهب الاسماعيلي، ثم يقودها باسم الإمام المستور فيفتح بها القلاع والحصون ويسيطر على رقعة من الأرض أقام عليها لأول مرة في التاريخ دولة شيعية اسماعيلية سبقت الدولة الفاطمية الكبرى بنحو واحد وثلاثين سنة.

وكان يزامل ابن حوشب بالدعوة في اليمن: علي بن الفضل. وفيما يرى ابن خلدون أن علياً هذا يمني من جَنَد وكان ممن استهوتهم الدعوة الإسماعيلية فجاء يزور الامام محمد الحبيب في سلمية، ولما أراد العودة إلى اليمن بعث الإمام معه ابن حوشب.

(١) أدب مصر الفاطمية، ص ٤١ ـ ٤٢.

ويفهم من كلام ابن خلدون أنه كان للدعوة الإسماعيلية جذور قبل ابن حوشب، فإن ابن خلدون يقول وهو يتحدث عن الدعوة الإسماعيلية: «وكان باليمن قوم يعرفون ببني موسى، ورجل آخر يعرف بعلي بن الفضل، وجاء علي إلى زيارة الإمام الحبيب فبعث معه رستم».

على أنه ليس لدينا أية تفاصيل عن الحركة الإسماعيلية قبل ابن حوشب فيما عدا نتفاً محدودة كمثل الذي ذكره ابن خلدون ومثل الذي سنذكره فيما يأتي:

ويبدو أن الإمام المستتر في سلمية قد أعدّ ابن حوشب للسفر إلى اليمن لمعرفة الإمام بالتحركات الإسماعيلية هناك، أو بالأحرى بالتحركات الشيعية وإن لم تكن كلها إسماعيلية، لعله يستطيع تحويلها إلى إسماعيلية فيستعين بها وبغيرها من الإسماعيليين على إنجاح دعوته.

وبينما ابن حوشب يستعد للسفر جاء ابن الفضل فضم الإمام ابن حوشب إليه وسيرهما معاً. ويقول الحمادي اليماني: أن الإمام قال لابن حوشب: «وثم في اليمن خلق من الشيعة فأخرج وعرفهم أنك رسول المهدي وأنه في هذا الزمان يظهر باليمن، واجمع المال والرجال والزم الصوم والصلاة والتقشف».

إلى أن يقول:

«إن ورد عليك ما لا تعلمه فقل: لهذا من يعلمه، وليس هذا وقت ذكره».

وهذا النص يؤكد ما قلناه آنفاً من أنه كان قبل ابن حوشب دعوة شيعية في اليمن. وتعبير الإمام الإسماعيلي عن ذلك بقوله: «ثم باليمن خلق من الشيعة» يدل على أن الحركة الشيعية اليمنية كانت حركة فعّالة، وإن كان لا يدل على أنها حركة إسماعيلية بحتة.

مضى هذان الداعيان من سلمية مزودين بنصائح الإمام المستتر فعرجا على مكة حيث قضيا مناسك الحج سنة ٢٦٧، ثم أتما الرحلة فبلغا اليمن ونزلا ببلدة (غليفقة) على البحر الأحمر. وفي هذه البلدة افترقا حيث ذهب كل واحد إلى

ناحية ليتولى الدعوة فيها، فذهب ابن حوشب في اتجاه الجنوب حتى بلغ مدينة (جَنَد) الجبلية إلى الجنوب من صنعاء.

وذهب ابن الفضل إلى (جيشان) و (يافع) غير بعيد عن جَنَد. ثم تمكن ابن حوشب من الوصول إلى (لاعة) وهي على جبل جنوبي صنعاء، وقريباً منها تقع قلعة (عدن لاعة). فاستقر في هذه الربوع، واتخذ من هذه الدسكرة المنيعة مركزاً ينشر منه دعوته. ومضى متقشفاً زاهداً ورعاً، فجذب إليه النفوس، وتغلب على الحاكم العباسي وعلى الأمراء المحليين واحداً بعد واحد.

وفي العام ٢٧٠ خطا خطوة جديدة حيث بنى دار هجرته جنوبي صنعاء بجبل مسور، الذي صار منذ ذلك اليوم منطلق الدعوة الاسماعيلة، وقامت فيه أول قوة عسكرية إسماعيلية مرهوبة اعتمد عليها ابن حوشب في السيطرة على اليمن وإنشاء حكمه الإسماعيلي فيه باسم الإمام المستتر. ومن هنا لقب بمنصور اليمن.

ولم يقف ابن حوشب نشاطه على اليمن وحده، بل «فرق الدعاة في البحرين واليمامة والسند والهند ومصر والمغرب». وكان آخر دعاته إلى المغرب أبو عبد الله الشيعي الذي كان له بعد ذلك من الشأن ما أدى إلى إنهاء دور الستر وإعلان الخلافة الفاطمية على يد أول خلفائها الظاهرين عبد الله المهدي.

هذا أمر ابن حوشب. وأما علي بن الفضل، فلم يكن أقل نجاحاً من ابن حوشب، فاستطاع أن يجمع حوله الناس، وكان من مقره في (جيشان) و (يافع) ينشر الدعوة ويبشر بها حتى استقر الأمر له ولابن حوشب.

وفجأة يقع خلاف بينهما ويقاتل ابن حوشب صاحبه ابن الفضل، وقد نسب لابن الفضل أنه خرج عن الإسلام لا عن الإسماعيلية فقط. وهي أقوال لا نستطيع أن نأخذ بها، فقد رأينا أن الخصومات يتهم بعضها بعضاً بهذا وأمثاله في كل عصر ومصر.

يقول الدكتور محمد جمال الدين سرور في كتابه (النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب) ص ٦٣، طبعة ١٩٩٣ نقلاً عن (أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٧ ــ

٢٨): لما رأى ابن حوشب الذي عرف بمنصور اليمن أن دعوته إلى المهدي لقيت قبولاً لدى كثير من أهالي بلاد اليمن كتب إلى محمد الحبيب وولده عبيد الله بسلمية يخبرهما بما فتح من البلاد كما بعث إليهما بالأموال والهدايا.

ونلاحظ أن الكاتب قد سمى الخليفة الفاطمي الأول: عبيد الله في حين أن الاسم الصحيح هو: عبد الله.

ويقول الدكتور سرور أيضاً: كان لضعف الدولة الزيادية أثر كبير في نجاح الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن، ففي الوقت الذي تفككت فيه عرى وحدة هذه الدولة بعث محمد الحبيب إمام الإسماعيلية بسلمية علي بن الفضل اليماني وأبي القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي إلى تلك البلاد لينشر الدعوة للمهدي من آل محمد، فلما وصلا اليمن سنة ١٢٦٨ أخذا في بث دعوتهما. ثم بنى ابن حوشب حصناً بجبل لاعة وأعد جيشاً زحف به على صنعاء وأخرج منها بني يعفر، كما بعث الدعاة إلى جميع أرجاء اليمن فنشروا الدعوة الإسماعيلية بين أهلها، وتمكن بمعاونتهم من التغلب على كثير من بلادها.

ويقول الدكتور سرور (ص ٦٧ ــ ٦٩): كانت الدعوة الاسماعيلية في بلاد اليمن بحاجة إلى توحيد جهود كل من ابن حوشب وعلي بن الفضل في سبيل نشرها لكن علي بن الفضل لم يتعاون مع ابن حوشب تعاوناً صادقاً لتحقيق هذه الغاية بل كثيراً ما استقل عنه في نشر تلك الدعوة.

ثم يقول: كما طمع في الاستقلال ببلاد اليمن بعد أن استقرت له الأمور في كثير من أرجائها وخلع طاعة عبد الله المهدي الخليفة الفاطمي في بلاد المغرب فبعث إليه ابن حوشب رسالة يعاتبه فيها ويذكره بما كان من رعاية محمد الحبيب لهما وقيامه بأمرهما وقال له: كيف تخلع طاعة من لم تنل خيراً إلا به وتترك الدعاء له، أوما تذكر ما بينك وبينه من المواثيق والعهود. فلم يعبأ ابن الفضل بقوله وكتب إليه: إنما هذه الدنيا شاة ومن ظفر بها افترسها.

ثم يقول: لم يكتف ابن الفضل بخروجه على عبد الله المهدي، بل ثار أيضاً

على ابن حوشب طمعاً في استخلاص بلاد اليمن لنفسه، فأعد جيشاً كبيراً لمحاربته ودار بين الفريقين قتال عنيف.

إلى أن يقول: ظل كل منهما يعمل مستقلاً عن الآخر ما ساعد على إضعاف الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن.

ثم يقول: ظل ابن حوشب حريصاً على ولائه لعبد الله المهدي حتى توفي سنة ٣٠٢ أما علي بن الفضل فإنه منذ خلع طاعة عبد الله المهدي لم يعدل عن خطته في العمل على الاستئثار بالنفوذ في بلاد اليمن، وبذلك لم تتحقق مطامعه، بل فشل في تكوين حزب قوي يكون عوناً له على نشر دعوته، فلما توفي سنة ٣٠٣ لم يجد ابنه الذي ولي الأمر من بعده أنصاراً أقوياء يدرءون عنه خطر السنيين في بلاد اليمن فتعرض لهجومهم ووقع إخوته أسرى في أيديهم وما زالوا يتبعون أعوانه حتى قضوا عليهم (انتهى).

ومصادر الدكتور سرور فيما دون هي (أسرار الباطنية وأخبار القرامطة) للحمادي اليماني.

ونقول: إن هذا الذي ذكر لا يجلو شيئاً من حقيقة علي بن الفضل، ونحن نرى أن سبب نقمة ابن الفضل هو أنه وهو اليمني العريق لم يطق أن يزاحمه على سيادة اليمن غريب عن اليمن ولو كان مشاركاً له في العقيدة المذهبية. فالنزاع بين الاثنين نزاع شخصي على: لمن تكون سيادة اليمن.

هذا الذي يبدو لنا. على أننا لا نستطيع أن نهمل ما أورده الدكتور محمد كامل حسين في كتابه: (في أدب مصر الفاطمية) (ص ٣٣، طبعة دار الفكر العربي) حيث يقول مستنداً إلى كتاب (افتتاح الدعوة للقاضي النعمان) في نسخة خطية في مكتبته الخاصة، وإلى كتاب (كشف أسرار الباطنية) لمحمد بن مالك اليماني، ص ٢١ وما بعدها ــ يقول الدكتور محمد كامل حسين: «بعض الغلاة من الدعاة الذين غيروا المذهب الفاطمي وخرجوا به عن منهجه الصحيح حتى اضطر الأئمة إلى إعلان عصيان هؤلاء الدعاة وطردهم من الدعوة وتحذير الناس من ضلالاتهم. نذكر من هؤلاء الدعاة علي بن الفضل الذي كان من أسبق الدعاة في أواخر دور

الستر الأول إظهاراً للدعوة في اليمن، ولكنه ضل طريق رشده فتبرأ منه الإمام وطلب من الداعي الحسين بن حوشب المعروف بمنصور اليمن أن يحاربه ويمحو أتباعه.

لم تطل دولة ابن حوشب في اليمن فبعد موته اختلف أبناؤه، فقد ثار أبو الحسن على عبد الله المهدي في أخريات حياته ما أدى إلى نقمة أخيه جعفر عليه وتركه اليمن إلى المغرب سنة ٣٢٢ ثم بعد ذلك إلى مصر حيث حظي لدى الفاطميين فكان من أركان دولتهم في العلم والفكر والتأليف.

ولئن تكن دولة الحواشب قد انتهت فقد تركت ركائز إسماعيلية ثابتة حتى جاءت سنة ٤٣٩ وفيها قام الداعي علي بن محمد الصليحي بأمر الدعوة. وكان الصليحي هذا سني المذهب وأبوه من القضاة السنيين في اليمن، ولكن الداعي في اليمن عامر بن عبد الله الرواحي استماله وهو في حداثة السن فصار إسماعيلياً. وبعد وفاة الرواحي حل محله في الدعوة، وأعاد من جديد النشاط الاسماعيلي بعد أن كان قد ركد بموت ابن حوشب. ثم سعى في بسط سيطرته على اليمن فقام بثورة كتب لها النجاح، فأخضع بعض القلاع والحصون ودعا للخليفة الفاطمي المستنصر، ثم مضى يفتح البلاد بلداً بعد بلد حتى دان له اليمن كله سنة ٤٥٥ واستمر حتى دخل مكة وأعادها إلى الطاعة الاسماعيلية.

وكان ــ كما يقال ــ يتهيأ لغزو العراق واستخلاصه من العباسيين ولكنه قتل سنة ٤٥٩ على يد سعيد الأحول بن نجاح وهو في طريقه إلى مكة لأداء الحج.

وهكذا نراه قد استطاع خلال عشرين سنة أن يوحد اليمن ويضم إليه الحجاز، كما رد اليمن إلى الدعوة الاسماعيلية وظل يحكمه وهو وأسرته باسم الخليفة الفاطمي في القاهرة.

وقد خلف الصليحي ولده أحمد المكرم الذي ظل على ولائه للمستنصر، ثم تغلب على قاتل أبيه سعيد الأحول بن نجاح، وراسله المستنصر مشجعاً مؤيداً، ثم ولاه على عُمان سنة ٤٦٩، كما حثّه على أن يثبت السلطة الفاطمية في الحجاز وأن يؤيد الأمير عبد الله بن علي العلوي أمير الاحساء. وتوفي المكرم سنة ٤٨٤، وكان

المفروض أن يخلفه ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر لأن المكرم كان قد أوصى إليه، ولكن زوجة المكرم السيدة أروى الحرة رفضت إقرار هذه الوصية معلنة أنها تريد الأمر لولدها عبد المستنصر الذي كان لا يزال طفلاً، وراسلت المستنصر بذلك طالبة تأييده فأقرها المستنصر على ذلك.

ولكن عبد المستنصر ابن الملكة الحرة أروى لم يعمر طويلاً، فحسب أبو حمير سبأ أن الفرصة قد واتت للاستئثار بالسلطة بعد وفاة ابن المكرم، فرغب بالزواج من الملكة الحرة ولكنها رفضت ذلك فاستنجد بالمستنصر، فكتب المستنصر لها يأمرها بإجابة سبأ إلى طلبه فرضيت كارهة، ولكنها ظلت الحاكمة الفعلية وعرفت باسم الملكة الحرة وظلت على ولائها للقاهرة.

ولما وقع الانقسام الاسماعيلي بعد المستنصر وتولي ابنه المستعلي حالت دون وصول هذا الانشقاق إلى اليمن رغماً عن وصول دعاة النزاريين إلى اليمن وتأييد الخولانيين لهم، وأعلنت الولاء للمستعلي.

ويبدو أنه بعد وفاة المستعلي وتولي الآمر، قام نشاط نزاري قوي في اليمن مما حمل الآمر على أن يرسل الداعي علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة إلى اليمن سنة ٥١٣ ليشد أزر الملكة الحرة في نضالها للنزاريين، كما أرسل المأمون البعائجي وزير الآمر إلى ابن نجيب الدولة قوة عسكرية يستعين بها على حرب أمراء اليمن، ولكن الدعوة النزارية استهوت هذا الأخير فمال إليها مما أدى إلى أن يطلب الخليفة الحافظ تسليم ابن نجيب الدولة فأرسل إليه فقتله.

وبعد اغتيال الخليفة الآمر بن المستعلي بأيدي النزاريين رأى اتباع الآمر أن الإمامة انتقلت إلى ولده الطفل (الطيب) وأن والده أوصى قبل وفاته بنقله إلى اليمن واستودعه الملكة الحرة، وأن (الطيب) لم يظهر بل استتر، وبذلك عاد دور الستر من جديد.

وقد رفضت الملكة الحرة الاعتراف بخلافة الحافظ وسمت نفسها (كفيلة الامام المستور الطيب بن الآمر). ولكن الحافظ استمال غيرها من اليمنيين فقلد

علي بن سبأ بن زريع حُكم اليمن ولقبه: (الداعي المعظم المتوج المكنّى بسيف أمير المؤمنين).

وبذلك شاركت اليمن بالانقسام الثاني بعد أن نجت من الانقسام الأول، ففريق وهم الصليحيون يؤيدون الإمام المستور: الطيب، والآخرون يؤيدون الحافظ. وكما يقع في كل انقسام تضعضعت أحوال اليمن، وكانت الخلافة الفاطمية نفسها تمشي إلى الزوال.

وقد اعتصم الاسماعيليون بحبل حصين من جبال اليمن يتعاقب منهم الدعاة المطلقون، فبعد الملكة الحرة قام بالدعوة في اليمن ذؤيب بن موسى الداعي المطلق، وتعاقب بعده الدعاة حتى محمد عز الدين.

ثم انتقلت الدعوة إلى الهند(١).

ظهور الأئمة

كان نجاح الدعوة الاسماعيلية باليمن في عهد استتار الأئمة، وواصلنا الحديث عن الإسماعيلية في اليمن حتى النهاية ليظل تتابع الأحداث متواصلاً أمام القارىء.

---

(١) غير ما يرى ابن خلدون في تاريخه والمقريزي في (اتعاظ الحنفا) من أن عبد الله المهدي كان سيتوجه إلى اليمن لإقامة دولته فيها، ثم عدل عن ذلك بسبب ما بلغه من انحراف علي بن الفضل عن الدعوة الاسماعيلية وإساءته السيرة في بلاد اليمن بما نشره من آراء أفسدت عقول فريق من أهلها ـ غير هذا الرأي يرى الدكتور سرور، ونحن نؤيده في رأيه: أن ما يراه ابن خلدون والمقريزي لا يستند إلى أدلة صحيحة، لأن المتتبع لرحلة المهدي من سلمية إلى مصر ثم إلى بلاد المغرب يتضح له أنه لم يفكر في الذهاب إلى بلاد اليمن، كما أن مناهضة علي بن الفضل للدعوة الإسماعيلية لم تظهر إلا بعد أن استقر الأمر لعبد الله المهدي في بلاد المغرب، ولو أن عبد الله المهدي كان حريصاً على إقامة دولته في بلاد اليمن لما ثناه عن ذلك خروج علي بن الفضل على دعوته لأن داعيه ابن حوشب ظل موالياً له وصار له أنصار كثيرون بين أهالي بلاد اليمن يرحبون بقدوم المهدي إليهم ويعتقدون بصحة إمامته، فإذا ما قصد بلادهم دخل الجميع في طاعته والتفّوا حوله.

ونعود الآن إلى عهد الظهور:

كما نجحت الدعوة في اليمن في عهد استتار الأئمة وقام الحكم هناك باسمهم وهم غائبون عنه، كذلك كان الأمر في شمال افريقيا.

فإن منصور اليمن ابن حوشب أرسل من اليمن إلى افريقيا: الحسين بن أحمد الذي اشتهر باسم أبي عبد الله الشيعي وبأبي عبد الله المحتسب وبأبي عبد الله الصنعاني. وكان قد سبقه قبل ذلك الداعيان: الحلواني وأبو سفيان حيث مهدا أمر الدعوة ثم ماتا قبل أن يقوم للدعوة نظام حاسم وقبل أن تنجح نجاحها المطلوب.

وصل أبو عبد الله إلى إفريقيا في تفاصيل ليس ذكرها هنا من شأننا في هذا الكتاب، وكل ما نقوله: إن قبيلة كتامة احتضنته وتوافرت جموعه وقوي شأنه واستقام له أمر البربر وعامة كتامة.

وكان يواجهه إبراهيم الأغلبي الثاني (٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ) فلم يدخر هذا وسعاً في القضاء عليه، فأرسل إليه أول الأمر يعده ويتوعده فلم يجده ذلك نفعاً، لذلك أخذ يرسل الحملات لقتاله، وكانت أولى هذه الحملات في سنة ٢٨٧ أي قبل وفاة إبراهيم بسنتين، وكان النصر حليف أبي عبد الله، فأرسل إبراهيم جيشاً آخر لم يلبث أن هزم.

وفي سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣ م) أخذ أبو عبد الله المبادرة وبدأت أعماله الحربية فوقعت في يده عدة مدن، وساعد على تقدمه في الفتح موت إبراهيم ابن الأغلب ولحاق ابنه أبي العباس به وتولية ولده زيادة الله. وغدا جماعة أبي عبد الله في ذلك الوقت (سنة ٢٩١ هـ) أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان[١].

---

(١) من شعر أبي عبد الله بعد انتصاراته:

من كان مغتبطاً بلين حشية	فحشيتي وأريكتي سرجي
من كان يعجبه ويبهجه	نقر الدفوف ورنة الصنج
فأنا الذي لا شيء يعجبني	إلا اقتحامي لجة الرهج

=

وهكذا قام حاكم إسماعيلي في شمال افريقيا، مثلما قام في اليمن، والإمام في حالة الاستتار يُحكم باسمه وهو بعيد مستتر.

فلما وصل الأمر إلى هذا الحد، وزالت دواعي الاستتار، وصار للإمام من يحميه ويذود عنه كان لا بد من ظهوره، فأرسل أبو عبد الله رجالاً من كتامة ليخبروا الإمام عبد الله بما فتح الله عليه ويدعوه إلى افريقيا لمباشرة السلطة بنفسه.

وكان قد شاع الخبر في الناس وذلك في عهد المكتفي العباسي، فبثت الأرصاد والعيون للقبض عليه، ولكنه استطاع الوصول إلى مصر متخفياً مع ولده نزار وهو يومئذ غلام ــ يصحبه جماعة من خاصته ومواليه، وذلك أيام زيادة الله، وكان يسير متنكراً بزي التجار، فدخل مصر بهذه الحال، وكان خليفة بغداد قد أرسل إلى والي مصر عيسى النوشري يأمره بمراقبة الداخلين إلى مصر، مبيناً له صفات عبد الله وحليته طالباً منه القبض عليه وعلى كل من يشبهه.

وكان بعض حاشية عيسى متشيعاً فأخبر عبد الله وأشار عليه بالإسراع بترك مصر، فخرج منها مع أصحابه، ومعه أموال كثيرة كان قد حملها معه من سلمية.

يقول ابن الأثير (ج ٨، ص ٣٨، ط ١٩٦٦):

«فلما وصل الكتاب إلى النوشري فرق الرسل في طلب المهدي وخرج بنفسه فلحقه، فلما رآه لم يشك فيه، وقال له: أعلمني بحقيقة حالك حتى أطلقك، فخوفه بالله تعالى وأنكر حاله، ولم يزل يخوفه ويتلطفه فأطلقه وخلى سبيله وأراد أن يرسل معه من يوصله إلى رفقته، فقال: لا حاجة بي إلى ذلك ودعا له.

وقيل أنه أعطاه في الباطن مالاً حتى أطلقه، فرجع بعض أصحاب النوشري عليه باللوم، فندم على إطلاقه، وأراد إرسال الجيش وراءه ليردوه».

وهنا يتدخل القدر بعجائبه فيحدث أمر تافه يبدل مجرى التاريخ، فإن ابن الأثير يتمم كلامه السابق قائلاً:

= ســل عــن جيــوشــي إذ طلعــت بهــا ... يــوم الخميــس ضحــى مــن الفــج

«وكان المهدي لما لحق أصحابه رأى ابنه أبا القاسم قد ضيع كلباً كان له يصيد به وهو يبكي عليه، فعرفه عبيده أنهم تركوه في البستان الذي كانوا فيه، فرجع المهدي بسبب الكلب حتى دخل البستان ومعه عبيده، فرآهم النوشري فسأل عنهم فقيل: إنه فلان وقد عاد بسبب كذا وكذا. فقال النوشري لأصحابه: قبحكم الله، أردتم أن تحملوني على قتل هذا حتى آخذه، فلو كان يطلب ما يقال أو كان مريباً لكان يطوي المراحل ويخفي نفسه وما كان رجع في طلب كلب، وتركه!..».

«وجد المهدي في الهرب فلحقه لصوص بموضع يقال له الطاحونة فأخذوا بعض متاعه، وكانت عنده كتب وملاحم لآبائه فأخذت فعظم أمرها عليه، فيقال أنه لما خرج ابنه أبو القاسم في المرة الأولى إلى الديار المصرية أخذها من ذلك المكان».

هذا النص الذي ذكره ابن الأثير يدل على أن الرجل كان إلى جانب حذقه السياسي ــ رجل علم يجمع الكتب كما يجمع المال والسلاح، ويحرص على حمل الكتب في حله وترحاله مثلما يحرص على حمل المال وتقلد السلاح، وأنه لا يعظم عليه سلبه المال أو بذله، بل يعظم عليه سلبه الكتب...[1].

---

(١) كان بعض الخلفاء الفاطميين إلى علمهم: شعراء فمن شعر الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله قوله:

ألم ترني بعت المقامة بالسرى ... ولين الحشايا بالخيول الضوامر
وفتيان صدق لا ضغائن بينهم ... يثورون ثورات الأسود الخوادر
أروني فتى يغني غنائي ومشهدي ... إذا رهج الوادي لوقع الحوافر
أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد ... بسيفي أقدّ الهام تحت المغافر

ومن شعره ما أرسله إلى ولده المعز لدين الله، والمنصور بعيد يطارد أبا يزيد الخارجي:

كتابي إليك من أقصى الغروب ... وشوقي شديد عريض طويل
أجوب القفار وأطوي الرمال ... وأحمل نفسي على كل هول
أريد بذاك رضاء الإله ... وإعزاز دولة آل الرسول
إلى أن يرى الله أجسامنا ... وكل الركاب وتاه الدليل

=

ولا ندري نوع تلك الملاحم التي لآبائه وسلبت منه مع ما سلب منه من الكتب، ومهما كان نوعها، فلا شك أنها لو وصلت إلينا لكان لها شأن أي شأن في تدوين تاريخ تلك الحقب، ولحسمت الكثير من الأمور التي أراد ويريد بعض الناس أن لا تحسم على حق. . .

وانتهى السير بالمهدي إلى مدينة طرابلس، وفيها تفرق من صحبهم من التجار، وكان في رفقته أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي، فأرسله في الحال إلى القيروان ببعض ما معه وأمره أن يلحق بالكتاميين.

ويبدو من سرد ابن الأثير للأحداث أن أمر المهدي كان قد أصبح موضع شبهة فهو يقول: «فلما وصل أبو العباس إلى القيروان وجد الخبر قد سبقه إلى زيادة الله بخبر المهدي فسأل عنه رفقته فأخبروا أنه تخلف في طرابلس، وأن صاحبه أبا العباس بالقيروان».

وهذا الذي ذكرنا والذي سنذكره بعد قليل يدل على أن ما نسميه اليوم (الاستخبارات)، كان في تلك الأعصر لا يقل نشاطاً وكفاءة عنه في هذه الأعصر.

فقد استطاعت (استخبارات) زيادة الله أن تعلم بوصول جماعة التجار إلى طرابلس وأن تستريب في أمرهم، وتخص باسترابتها أمر أحدهم المطلوب التحقق من أمره، وأن تبعث بخبر استرابتها إلى زيادة الله في القيروان، وأن يتولى زيادة الله

= فـواغـربتـاه وواوحشتـاه ... وفـي الله هـذا قليـل قليـل
وقـد مـنّ ذو العـرش مـن فضلـه ... بفتـح مبيـن وعـز جليـل
وفـي كـل يـوم مـن الله لـي ... عطـاء جـديـد وصنـع جميـل
فللّـه حمـد علـى مـا قـد قضـى ... وحسبـي ربـي ونعـم الـوكيـل

وينسب صاحب كتاب (النجوم الزاهرة) إلى الحاكم بأمر الله هذين البيتين:

دع اللـوم عنـي لسـت منـي بمـوثـق ... فـلا بـد لـي مـن صـدمـة المتحنـق
وأسقـي جيـادي مـن فـرات ودجلـة ... وأجمـع شمـل الـديـن بعـد التفـرق

ولكنه يعود فينسبهما إلى الآمر.

التحقيق مع رفاق المهدي الذين وصلوا إلى طرابلس، وأن تظهر نتيجة التحقيق أن الرجل المقصود قد تخلف في طرابس وأنه أرسل صاحبه أبا العباس إلى القيروان.

فجرى في الحال القبض على أبي العباس. وحتى هذه الساعة لم يكن الأمر أمر يقين عند السلطة أن الرجل المتخلف في طرابلس هو عبد الله المهدي وأن أبا العباس هو رسوله الموفد من قبله، وإنما كان الأمر أمر شبهة قوية مرجحة، وعلى هذا الأساس جرى التحقيق مع أبي العباس.

ولعل من الطريف أن نذكر هنا كيف كان يعبر في ذلك العصر عما نسميه في عصرنا (التحقيق)، أنهم كانوا يسمونه: (التقرير). لذلك نرى ابن الأثير يقول عن القبض عن أبي العباس والتحقيق معه: «فأُخذ أبو العباس، وقُرر فأنكر، وقال: إنما أنا رجل تاجر صحبت رجلاً في القفل».

ومن الطبيعي أن لا تقنع السلطة بهذا الجواب، وأن تأمر بسجن أبي العباس لتتثبت من الأمر.

وإذا كانت استخبارات زيادة الله متيقظة ونشيطة، فإن عبد الله المهدي كان ذكياً حذراً بحيث استطاع أن يتقي ظنون والي طرابلس، فقد عمل منذ وصل طرابلس إلى أخذ المبادرة بالاتصال بوالي طرابلس وحمل الهدايا إليه بحيث أبعد نفسه عن كل ريب يمكن أن يثيره في نفس الوالي وجوده في طرابلس، وكذلك كانت له هو الآخر استخباراته التي أبلغته بما جرى من التحقيق مع أبي العباس وسجنه. لذلك بادر إلى ترك طرابلس واتجه إلى (قسطيلة).

وعندما وصلت رغبة زيادة الله إلى والي طرابلس بالقبض على المشتبه به عبد الله المهدي كان هذا قد غادر طرابلس.

وهنا يجدر بنا أن نسجل لعبد الله المهدي منقبة خلقية كبرى، فإنه وهو في هذا الموقف الحرج الذي أدرك خطورته لم يفكر بنفسه فقط والعمل على النجاة بها وحدها، بل فكر برفيقه وشقيق قائده أبي عبد الله، فكر بأبي العباس الموقوف في سجن زيادة الله.

فقد كان الموقف الأقرب إلى السلامة هو أن يتجه من (قسطيلة) إلى حيث ترابط جيوشه المنتصرة بقيادة أبي عبد الله، ولكنه بذلك سيكشف أبا العباس ويتحقق زيادة الله أن الرجل المشتبه بأنه رسول عبد الله المهدي، والمدعي بأنه تاجر صحب تاجراً ثم انفصل عنه ـ سيتحقق زيادة الله بظهور المهدي على رأس جيوشه المنتظرة له، بأن سجينه هو فعلاً رسول عدوه فيعمد إلى قتله في الحال، فغامر المهدي بالابتعاد عن مكان أبي عبد الله وقصد سجلماسة.

يقول ابن الأثير: (ص ٣٩): فلما وصل المهدي إلى (قسطيلة) ترك قصد أبي عبد الله الشيعي لأن أخاه أبا العباس قد أُخذ، فعلم أنه إن قصد أخاه تحققوا الأمر وقتلوه، فتركه وسار إلى (سجلماسة).

وعرف زيادة الله بوصول المهدي إلى قسطيلة فأرسل من يقبض عليه فيها، ولكنه كان قد غادرها إلى سجلماسة قبل وصولهم.

وفي سجلماسة عرف كيف يبعد الشبهة عنه عند حاكمها إليسع بن مدرار إذ أهدى إليه الهدايا وواصله، فبادره إليسع تقرباً بتقرب ومالت نفسه إليه وأحبه، دون أن يعرف حقيقة أمره.

ولكن زيادة الله كان هذه المرة أسرع تصرفاً، فأرسل إلى إليسع يخبره بأن نزيل سجلماسة المقرب منه هو المظنون بأنه عدوهما المشترك الذي يدعو إليه أبو عبد الله الشيعي، فبادر إليسع في الحال إلى القبض على عبد الله المهدي وإيداعه السجن.

والواضح أن الأمر كان لدى زيادة الله أمر ترجيح لا أمر يقين، لأنه حتى تلك الساعة لم يكن لديه ما يثبت ثبوتاً قاطعاً أن سجين سجلماسة هو عبد الله المهدي، وهذا ما بدا لإليسع بن مدرار، وكان احتفاظه به في السجن نوعاً من التحوط لا أكثر.

على أن إليسع بن مدرار لم يكن تابعاً لزيادة الله، ولم تكن سجلماسة ضمن

ما تحكمه الإمارة الأغلبية بل كانت عاصمة امارة بني مدرار وهم خوارج صفرية(١) وإمارتهم مستقلة سياسياً ومذهبياً عن العباسيين وعن أتباعهم الأغالبة في افريقيا، وربما كان هذا هو السبب في اختيار المهدي لها.

لذلك لم يكن لزيادة الله حكم على ابن مدرار فيأمره بالقبض على الرجل المشتبه بأنه عبد الله المهدي الذي هو في عقيدته ودعوته أعدى أعداء الخوارج، وإنما نبهه إلى حاله، وكان ذلك كافياً لإقدام ابن مدرار على سجنه.

وتوالت انتصارات أبي عبد الله ففتح مدينة ميلة ومدينة سطيف وغيرهما، فهال ذلك زيادة الله فراح يجمع العساكر ويبذل الأموال فتكون له جيش كبير ولى قيادته أحد أقربائه المسمى ابراهيم بن خنيش، وكان ـ على حد تعبير ابن الأثير ـ لا يعرف الحرب!.

وماذا تغني كثرة الجند إذا كانت القيادة جاهلة لا كفاءة لها، لذلك فإن

(١) الخوارج الصفرية هم أتباع ابن الصفار، وهم فرقة من الخوارج تقابل: (الأزارقة) و (الأباضية) وغيرهما.
ينقل صاحب العقود الفضية الأباضي عن ابن الأثير والمبرد، ذكر خروج الخوارج إلى مكة لمنعها من أهل الشام وفيهم عبد الله بن أباض، ثم افتراقهم بعد ذلك فيما بينهم وأن نافع بن الأزرق الذي ينسب الخوارج الأزارقة إليه كتب إلى ابن الصفار وعبد الله بن أباض الذي ينسب الخوارج الأباضية إليه، يدعوهما ومن معهما إلى معتقده، فقرأ ابن الصفار الكتاب ولم يقرأه على أصحابه خشية أن يتفرقوا ويختلفوا. ا هـ.
والخوارج بصورة عامة اتجهوا إلى شمال افريقيا بعد الذي عانوه في المشرق خلال ثوراتهم المتكررة، وكان دخول مذهبهم إلى المغرب في النصف الأول من المئة الثانية للهجرة، وكان الذين حملوه إلى هناك من الصفرية والاباضية فتلقفه البربر وساد فيهم لكثرة ما عانوه من جور الحكام الأمويين والعباسيين، فوجدوا في هذا المذهب وسيلة للخروج على الحكام والثورة بهم حتى لقد قيل إنه أصبح المذهب القومي لهم. وما كاد القرن الثاني الهجري ينتصف حتى كان الاباضيون قد استطاعوا نشر مذهبهم في أغلب المغرب الأدنى والمغرب الأوسط، وصارت الاباضية منتشرة في معظم ليبيا وجنوب تونس إلى شمال قفصة وأغلب المغرب الأوسط (الجزائر) من شرقي مدينة مليانة إلى غرب وهران. وكان يقابلها الخوارج الصفرية الذين تمركزوا في مناطق أخرى.

الأربعين الألف الجندي الذين تجمعوا بقيادة ابن خنيش ومن انضم إليهم من أمثالهم من الشجعان حتى تضاعف عدد جيشه، ثم زحف بهم إلى (قسطنطينة)، ثم أتاه إليها كثيرون من الكتاميين الذين لم ينضموا إلى أبي عبد الله، إلى حد أن أبا عبد الله هابه فتحصن منه في الجبل ولم يجرؤ على مواجهته طيلة ستة أشهر، ما أغرى ابراهيم بالزحف بعساكره إلى بلدة (كرمة) فاكتفى أبو عبد الله بإرسال خيل اختارها من النخبة ليختبر كفاءة الجيش الكبير الزاحف.

إن الأربعين الألف الجندي ومن ضاعفوا عددهم أوردتهم قيادتهم الجاهلة بالحرب شر موردا!.

فقد استخف إبراهيم بالخيل القادمة فخرج إليها بنفسه، ولم يول أمر صدها لأحد قواده، بل أراد أن يحرز نصراً يسجل له هو، فاشتبك بخيل أبي عبد الله.

وبلغ الخبر أبا عبد الله فزحف بعساكره فانهزم إبراهيم ومن معه وجرح وعقر فرسه، فكان ذلك كافياً لأن ينهزم جيش ابراهيم كله، وأن يغنم أبو عبد الله جميع أثقال ذلك الجيش وأن ينتهي أمر إبراهيم إلى القيروان.

كانت هذه المعركة حاسمة بالنسبة لتوطيد الخلافة الاسماعيلية واستقرار دولتها. وكان أول ما فعله أبو عبد الله أن احتال في إيصال خبر النصر الحاسم إلى الإمام المستتر في سجن سجلماسة، فأرسل من ثقاته رجلاً متظاهراً بأنه قصاب يبيع اللحم فاستطاع بهذه الصفة الوصول إلى السجن ورؤية عبد الله المهدي وإبلاغه النبأ السار.

ثم سار أبو عبد الله إلى مدينة (طُبنة) فدخلها بعد قتال شديد، ثم إلى مدينة (بلزمة) فكان مصيرها مصير طبنة.

فتوالت هذه الأنباء على زيادة الله فعظم الأمر عليه وراح يحشد الرجال ويجمع العساكر حتى صار له جيش يعول عليه فأرسله بقيادة هارون بن الطنبي فلقي هزيمة ساحقة وقتل القائد.

فعند ذلك قرر زيادة الله الخروج بنفسه لقتال أبي عبد الله فأخرج الأموال

وجيش الجيوش، ولكنه عدل عن البروز بنفسه لنصيحة وجوه دولته، واختار لقيادة الجيش أحد بني عمه: إبراهيم بن أبي الأغلب وكان رجلاً شجاعاً.

ولما علم أبو عبد الله بأمر هذا الجيش بادر إلى احتلال (باغاية) و (مجانة) و (بتغاش)، فعند ذلك جاءه رؤساء القبائل يطلبون منه الأمان فأمنهم، وواصل احتلال المدن فاحتل (مسكيانة) و (تبسة) و (مدبرة) و (قمودة).

وكان إبراهيم بن أبي غالب ينزل بجيشه في (الأربس) فبلغه أن أبا عبد الله يريد التوجه إلى زيادة الله في رقادة، ولم يكن قد بقي لدى زيادة الله سوى قوة قليلة، فخرج إبراهيم من الاربس، وفي (دردمين) اشتبكت سرية من جيش ابراهيم مع سرية من جيش أبي عبد الله فانهزمت هذه، ولما استبطأ أبو عبد الله رجوعها خرج بجميع عساكره فاستنقذ سريته.

ثم استولى على قسطيلة وقفصة، ورجع إلى (باغاية) فترك فيها جيشاً وعاد إلى جبل انكجان. فسار إبراهيم إلى باغاية فقاتله الجيش الذي فيها. وبلغ الخبر أبا عبد الله فسار إلى أنجاد باغاية، فلما علم بذلك ابراهيم تركها عائداً الإربس.

وجاء الربيع، وطاب الزمان ــ كما يقول ابن الأثير ــ وكان أبو عبد الله قد استطاع جمع جيش بلغ عدد رجاله مئتي ألف ما بين فارس وراجل، واجتمعت جيوش زيادة الله في الإربس بقيادة ابراهيم بن أبي الأغلب بعدد لا يحصى ــ كما يقول ابن الأثير.

وسار أبو عبد الله في أول جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هــ فالتقى بابن أبي الأغلب في معارك طاحنة امتدت حتى أواخر جمادى الآخرة حيث كانت الوقعة الكبرى التي انتهت بهزيمة الجيش الأغلبي هزيمة كاسحة.

فلما بلغ خبر الهزيمة زيادة الله هرب إلى مصر[١] أما إبراهيم بن أبي الأغلب

---

(١) ومن مصر قصد بغداد فمر بالرقة فاستوقفه الوزير ابن الفرات مدة سنة واستأذن فيه المقتدر العباسي فأمر برده إلى المغرب، فعاد إلى مصر فمرض فقصد بيت المقدس فمات بالرملة.

فسار إلى القيروان محاولاً استنهاض أهلها للصمود والقتال، فصاح به الناس: أخرج عنا فمالك عندنا سمع ولا طاعة وشتموه، فخرج وهم يرجمونه.

ودخل أبو عبد الله رقادة وسار بعد ذلك إلى سجلماسة وجرى ما مر ذكره.

ويقول الدكتور موسى لقبال في كتابه (دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية) (ص ٣١٩ وما بعدها: «وفي سجلماسة نزل (المهدي) بدار أبي حبشة واستمرت حياته طبيعية هادئة حتى وصل البريد من طرف الأمير الأغلبي برسالة تكشف عن شخصيته كصاحب الدعوة التي ينشرها الصنعاني في كتامة، بيد أنه لا يتصور أن يكون مضمون رسالة الأمير زيادة الله أمراً بقتله أو بإرساله إليه أو بالتضييق عليه» ا هـ.

وذلك لما ذكرناه من استقلال صاحب سجلماسة عن الأمير الأغلبي.

ثم يتابع لقبال كلامه: «فإن أقصى ما نال عبد الله هو التضييق عليه مجاملة للأمير الأغلبي وللخليفة العباسي فنقله إلى مكان خاص تملكه مريم بنت مدرار وهي إحدى سيدات الأسرة الحاكمة لتصبح مراقبته ممكنة وميسورة، ولم تتغير معاملة إليسع لعبد الله وابنه حتى سمع نبأ توجه الداعي إلى سجلماسة عندئذ فقط سجن كل واحد منهما على انفراد في مكان ضيق عرف بالمطبق وعرضهما واتباعهما لامتحانات عسيرة لكنه لم يستطع أن يظفر بأي اعتراف عن علاقتهم بالحركة التي يتجه أنصارها الآن عبر أرجاء المغرب» ا هـ.

وبعد النجاحات التي حققها أبو عبد الله لا سيما استصفاء الامارة الرستمية الاباضية قرر المضي إلى سجلماسة، قرر ذلك وفي نفسه كل الخوف على المهدي سجين إليسع بن مدرار، السجين الذي يقاتل له ويدعو إلى خلافته..

فماذا سيفعل ابن مدرار حين يبلغه نبأ توجه أبي عبد الله إليه؟ هذا ما كان يشغل فكر أبي عبد الله وهو يصمم على التوجه بجيشه إلى سجلماسة...

وإذا كان فكره مشغولاً بذلك، فلم يكن فكر ابن مدرار ومستشاريه أقل انشغالاً حين بلغهم أن أبا عبد الله يقصدهم في سجلماسة.

فقد رأى بعضهم قتل السجناء، ورأى البعض الآخر الإبقاء عليهم والإحسان إليهم ليكون ذلك يداً عند أبي عبد الله، ورأى فريق ثالث أن يطلق جميع السجناء فرداً فرداً ويتركوا لحال سبيلهم.

ولكن الأمر انتهى بفرار ابن مدرار نفسه من سجلماسة قبل البت في الأمر، إذ يبدو أن مفاجأة أبي عبد الله بقواه أذهلته عن كل شيء فلم يبق في ذهنه إلا النجاة بنفسه!.

وهنا تختلف أقوال المؤرخين فبعضهم يرى أنه بمجرد علمه بنبأ الزحف الحاشد إليه فر برجاله إلى الصحراء، وبعض يرى أن حرباً عنيفة بين رجاله ورجال أبي عبد الله استمرت يومي السبت والأحد من أوائل شهر ذي الحجة سنة ٢٩٦ هـ انتهت بفتح سجلماسة عنوة وفرار إليسع ورجاله ليلاً إلى الصحراء.

وقبل ذلك عندما سمع أبو عبد الله بسجن المهدي وابنه شق ذلك عليه فأرسل إلى إليسع يداريه ويقول أنه لا يقصد حربه وأنه يريد مقابلته وأنه سيلقى منه كل خير، ولكن إليسع رمى الكتاب وقتل الرسل، فعاد أبو عبد الله إلى ملاطفته خوفاً على عبد الله المهدي، ولكن إليسع قتل الرسول الجديد...

وإن الإنسان ليعجب من هذا التصرف ولا يدري على أي شيء كان يعول ابن مدرار في شدته هذه التي تكاد تكون أقرب إلى الحمق والنزق منها إلى تصرف الحاكم العاقل المدبر!..

فبينما هو يمتنع عن قتل سجنائه ليكون في ذلك يد له عند أبي عبد الله إذا صح أن بين السجناء من يقاتل أبو عبد الله من أحله إذا به يقتل رسل أبي عبد الله في الوقت الذي كان هذا قد صار على أبواب سجلماسة!.

يقول ابن الأثير بعد أن تحدث عن قتل الرسول: «فأسرع أبو عبد الله في السير ونزل عليه فخرج إليه إليسع وقاتله يومه ذلك وافترقوا، فلما جنّهم الليل هرب إليسع وأصحابه مع أهله وبني عمه، وبات أبو عبد الله ومن معه في غم عظيم لا يعلمون ما صنع بالمهدي وولده، فلما أصبح خرج إليه أهل البلد وأعلموه بهرب

إليسع فدخل هو وأصحابه البلد وأتوا المكان الذي فيه المهدي فاستخرجه واستخرج ولده، فكانت في الناس مسرة عظيمة كادت تذهب بعقولهم، فأركبهما ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديهما، وأبو عبد الله يقول للناس: هذا مولاكم، وهو يبكي من شدة الفرح حتى وصل إلى فسطاط قد ضرب له، فنزل فيه، وأمر بطلب إليسع فطلب فأدرك فأخذ وضرب بالسياط ثم قتل» اهـ.

وبذلك انتهى عهد استتار الأئمة وبدأ عهد الظهور، وبويع عبد الله المهدي في سجلماسة أولاً، ثم بويع بيعة عامة في القيروان، ثم في رقادة. وذلك سنة ٢٩٦ ــ ٢٩٧ هـ وقامت الدولة الفاطمية وفي قيامها يقول الشاعر ابن سعدون الورجيلي من قصيدة:

هذا أمير المؤمنين تضعضعت ... لقدومه أركان كل أمير
هذا الإمام الفاطمي ومن به ... أمنت مغاربها من المحذور
والشرق ليس لشامه وعراقه ... من مهرب من جيشه المنصور

وقرر عبد الله المهدي إقامة عاصمة جديدة لدولته فأقام مدينة (المهدية) التي انتقل إليها سنة ٣٠٣ وعند ذلك قال: الآن أمنت على الفاطميات.

الدولة الفاطمية

ليس من شأننا في هذا الكتاب أن نؤرخ للدولة الفاطمية. وسنكتفي من الحديث عنها بالكلمة التي يراها القارىء فيما يلي:

بدأت الدراسات التاريخية العربية الحديثة تنصف الدولة الفاطمية بعض الإنصاف، بعد أن توالى على كتابة تاريخها أعدى أعدائها فعملوا على تشويه هذا التاريخ..

نقول: بدأت.. وهذه البداية وإن كانت تمشي خجولة ضعيفة، فيكفي أن تظل ماشية لا تتوقف، وهي إن فعلت ذلك فإنها ستصل إلى نتائج باهرة.

فمن ذلك ما كتبه الدكتور عبد المنعم ماجد أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية

الآداب في جامعة عين شمس في كتابه (ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها) في الطبعة الرابعة الصادرة سنة ١٩٩٤، ص ٤٠٧.

قال الدكتور ماجد:

إن تاريخ الخلافة الفاطمية في مصر كان غامضاً إلى عهد قريب جداً. فقد كانت معظم مصادره التاريخية لا تستقي من منابعها، أو أنها غير موجودة، أو مزيفة، أو مضطربة، أو جافة، أو مختصرة، فضلاً عن أن معظمها مصادر أدبية لا تعطي فكرة صحيحة عنهم. ولكن بفضل ما حصلنا عليه من وثائق أو مخطوطات مكتوبة بأقلام معاصرة، تمكنا من أن نكون تاريخاً صحيحاً للفاطميين في مصر.

فهذه الدولة الفاطمية أثارت انتباه المؤرخين المحدثين بحيويتها المتدفقة التي أوجدتها في جسم الإسلام الذي كان قد شاخ على يد الدولة العباسية، فتاريخها منذ انتقالها إلى مصر أشبه بملحمة كبرى: دعوة إلى وحدة العرب في المشرق والمغرب[1]، جهاد بضراوة على أعداء الإسلام، نشر الحضارة الإسلامية على نطاق واسع.... ثم سقوط مؤثر.

ثم أن هذه الدولة اعتبرت في وقتها دولة عظمى بكل مقاييس الدولة العظمى، فقد كانت تمتلك قوة عسكرية ضاربة، ظهرت تجلياتها في انتصاراتها الحربية الكثيرة، حيث اعتمدت في أول الأمر على طوائف مختلفة من العسكر مثلما كانت غالب الجيوش الإسلامية الأخرى، إلا أنها منذ مجيئها إلى مصر اعتمدت على المصريين أيضاً، فاستخدموهم فيما عرف بالحجرية الكبار والصغار. وفي آخر أيام دولتهم في مصر تلاشت جميع الطوائف من جيشهم ولا تسمع إلا عن العسكر المصري، وإن وجد بجانبهم السودانيون بحكم أن السودان ملازم لمصر دائماً.

كذلك هي دولة عظمى باعتمادها على الاقتصاد المزدهر، فأشرفت وحدها

(١) بعد تمزق البلاد العربية إلى دويلات أقامت الدولة الفاطمية الوحدة العربية مؤلفة من شمال افريقيا ومصر والشام والحجاز واليمن، مضموماً إليها: جزيرة صقلية وقوصرة وقلورية.

على تجارة البهار الهامة وما تدره من أرباح هائلة، مسيطرة على سواحل مصر في البحرين الأبيض والأحمر، وسواحل أقاليم الجزيرة العربية في الحجاز واليمن والخليج. وأخيراً دولة عظمى بامتلاكها النموذج الحضاري المتميز الذي أسهم بإبداع في النهوض وبالمعرفة الإنسانية، ولا سيما الإسلامية، مما أبرز حلقة هامة من نهضات المسلمين.

ولا مراء، فإن مصر قبل أي بلد آخر بمركزها الاستراتيجي بين القارات كقاعدة لخلافتهم تعودت على أن تحرك السياسة وتنشىء الحضارة، خلقت للفاطميين هذا التاريخ المملوء بالنبض. ولكن الفاطميين بمجيئهم إلى مصر واتخاذها قاعدة لهم عملوا أيضاً على إبراز أهمية دور مصر في الإسلام، وهو الدور المتميّز الذي لا تزال تلعبه في الإسلام.

وقال في موضع آخر من كتابه هذا:

إن الفاطميين جاءوا من المغرب إلى مصر بناء على دعوة المصريين أنفسهم، فلم يكن المصريون سعداء في حكم الاخشيديين، فقد كانوا يتطلعون إلى مستقبل جديد مع هذه الدولة الإسلامية الفتية ليبنوا مصر الإسلامية التي لا تقل عن مصر الفرعونية، فلما وصل جيش المعز لدين الله الخليفة الفاطمي من المغرب إلى الاسكندرية سارع المصريون بإرسال وفد منهم إلى جوهر قائد جيشه باتفاق جميع طبقاتهم، كالقائد والكاتب والقاضي والتاجر والمسلم والقبطي.

والحقيقة أن الفاطميين، وهم أسرة علويّة، اعتبرت خلافتهم في نظر المصريين خلافة شرعية، منافسة للخلافة العباسية، وذلك لأن المبدأ الدستوري القائم يومذاك، كان ينص على أن الخلافة الشرعية تكون في أسرة النبي، وعصبيتها تكون في قريش. لذلك لم يطمع المصريون مثل غيرهم من شعوب الإسلام في حكم أنفسهم بأنفسهم. فهذه الأفكار في الوطنية لم يكن لها وجود في وقت الفاطميين، والفكرة المسيطرة على المسلمين أن تهمهم شرعية الحكم.

وقد بنى جوهر في مصر عاصمة جديدة سميت القاهرة تفاؤلاً بأنها ستقهر أعداء الأمة الإسلامية، وهي توجد في مكان عاصمة مصر القديمة (منف) عند رأس

الدلتا، وأصبحت من يومها عاصمة مصر إلى الآن، حيث شبهت القاهرة بيد المروحة لوقوعها عند ملتقى فروع النيل وقنواتة، مما يؤكد أن الفاطميين سحرتهم الهوية المصرية فسعوا إلى ربط مصر القديمة بمصر الإسلامية.

بل إن خلفاء الفاطميين إلى نهاية دولتهم ولدوا جميعهم في مصر واعتبروا أنفسهم مواطنين مصريين، يتبين ذلك مما أنجزوه لها مدة حكمهم في الكم والمقدار، بالعمل على ازدهار اقتصادياتها ورخائها، وامتلاكها النموذج الحضاري المتميز الذي أسهم بإبداع في مكانة مصر. ومن يومها أصبحت مصر هي الرائدة عند المسلمين جميعاً.

بل وخلفاء مصر كانوا «ملتزمين» في مصر بإحساس قوي نحو قضايا العرب الذين بدأت تظهر عندهم إحساسات قوية نتيجة للتراكمات التاريخية، ولعيشهم في دار الإسلام في إطار حدودي محدد، ولمصيرهم الواحد. فكانت إرادة الفاطميين ظاهرة بالقفز إلى مستقبل عربي أفضل هي شغلهم الشاغل، بينما كانت الدولة العباسية قد أصبحت حطاماً وركاماً، وأن الإنسان العربي يائس من وجودها.

***

وقال الدكتور خضر أحمد عطا الله في كتابه (الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي) صفحة ٦ وما بعدها من صفحات مختلفة. عمل الفاطميون على توطين الخلافة الفاطمية في مصر، وقد أيقنوا أن هذه الأرض الخصبة الصالحة هي خير أرض تحقق للحضارة الفاطمية البقاء والنماء ليجني المسلمون بل العالم أجمع ثمار هذه الحضارة الناهضة، فرأينا جوهر الصقلي يضع أسس مدينة عظمى هي القاهرة التي ولدت عملاقة لترفع لواء الفكر والحضارة، ثم يقيم جوهر الجامع الأزهر ليصبح بعد ذلك أبرز جامعات العالم ومقصد آلاف الدارسين من أرجاء العالم الإسلامي. . . وكان مولد الخلفاء الفاطميين ابتداء من الخليفة الحاكم بأمر الله وحتى آخر خلفائهم العاضد بالله، على أرض مصر، وشربوا جميعاً من نيلها وعاشوا على ترابها يشاركون المصريين فترات الرخاء والشدة على السواء. . .

واتجه آلاف من أرباب القلم والفكر إلى القاهرة يساهمون في إرساء قواعد حضارة عالمية راقية . .

. . . وقد نجح بعض الخلفاء الفاطميين في جعل البحر المتوسط بحيرة فاطمية وسيطروا على جزره وأقاموا علاقات اقتصادية وثيقة مع دول أوروبية. والتبادل الاقتصادي من وسائل انتقال الفكر. ومد الفاطميون نفوذهم إلى بلاد الشام والحجاز واليمن وأرجاء أخرى في العالم الإسلامي. وكان للفاطميين علاقاتهم الخارجية التي تراوحت بين الصداقة والعداء وأثرت كلها في الحياة الفكرية. وأثّرت هذه العوامل كلها في عالمية الفكر في العصر الفاطمي فلم يعد فكراً محلياً إقليمياً.

واهتم الخلفاء الفاطميون بالنهضة الفكرية، فكان كثير منهم على جانب كبير من العلم والثقافة، واهتموا بالمؤسسات التعليمية والفكرية وأصبحت قصورهم مراكز فكر وثقافة وضمت تلك القصور مكتبات ضخمة بذلوا المال والجهد في جمع كتبها من أرجاء العالم. وأصبحت القاهرة كعبة العلماء والأدباء والفقهاء. وكان الأزهر مناراً للعلم والثقافة. وأثّر الخلاف المذهبي في الحياة الفكرية، فانصرف كثير من أهل السنة عن مخاطر الحياة السياسية إلى العلم والفكر، وانتعشت أحوال أهل الذمّة في العصر الفاطمي فكان لهم دورهم أيضاً في الحياة الفكرية إلى جانب بروزهم في مجالات السياسة والإدارة. . . . وأدت العلاقات الدولية والاتجاهات العالمية إلى انتعاش الحياة الفكرية مرة أخرى في مدينة الاسكندرية. . . .

وخلاصة القول: كان الفكر في العصر الفاطمي مرحلة هامة متميزة من مراحل تطور الفكر الإسلامي. وقد أرسى الفاطميون أسساً فكرية وطيدة قام عليها فكر الأجيال التالية. وإذا كانت هذه المرحلة الفاطمية قد شهدت صراعاً فكرياً بين أهل السنّة والشيعة، فإن هذا الخلاف وذلك الصراع كان ظاهرة صحية في المجالات الفكرية وهي تثبت حياة الأمة الإسلامية وسعيها إلى الكمال. كما أدى الخلاف أحياناً إلى جدال وحوار ونقاش أثرى النشاط الفكري حيث انطلقت ألسنة

الشعراء وصالت أقلام الكتاب وانعقدت المجالس الفكرية، وترك لنا المختلفون والمتصارعون إنتاجاً فكرياً خصباً.

***

وينقل المؤلف في كتابه أقوال بعض المفكرين والمؤرخين عن الفاطميين فمن ذلك ما نقله عن محمد عبد الله عنان في كتابه (الحاكم بأمر الله) ص ٣٦ ـــ ٣٢٨ وهو:

فقد كانت الدولة الفاطمية مبتكرة مجددة في كثير من قواعد الحكم والإدارة وفي كثير من الرسوم والنظم وكانت هذه النظم والرسوم فوق طرافتها الدستورية تطبعها نفس الصبغة الباذخة التي تطبع الدولة الفاطمية وسائر مظاهرها.

فلما اتّسع ملكها وعظم سلطانها بافتتاح مصر والشام شعرت بالحاجة إلى التوسع في النظم الإدارية والسياسية التي يقوم عليها هذا الملك الباذخ، ولم تكتف بالاعتماد على الخطط العسكرية والدينية والمدنية المعروفة، بل عمدت إلى الابتكار في تنظيم الأصول والخطط الدستورية وفقاً لحاجتها وغاياتها السياسية والمذهبية.

***

وينقل عن الدكتور حسن ابراهيم وطه شرف قولهما في كتاب (المعز لدين الله، ص ٣) عن المعز قولهما:

ويعتبر المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع من كبار رجال عصره فقد بز أقرانه ومنافسيه علماً وسياسة وحرباً، ولهذا لا نغلوا إذا قلنا أن نفوذ الدولة الفاطمية بلغ أقصى مداه في عهده..

وقد ساهم المعز لدين الله في إنعاش الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ومصر بما سنّه من النظم الإدارية الحازمة ولم يكتف بذلك بل نهض بالناحية العلمية والثقافية حتى أصبحت المنصورية في بلاد المغرب والقاهرة في مصر كعبة العلماء والطلاب والمستجيبين والدعاة...

وإن كان المعز قد وضع نواة الحضارة الفاطمية في مصر فقد تعهّد العزيز بالله غرس أبيه حتى نما وترعرع ونضج وأتى بالثمار المرجوّة. ويجمع المؤرخون على امتداح العزيز بالله في أخلاقه وعقله وسياسته وتسامحه... وقد تميزت حكومته بأنها حكومة رشيدة عادلة منظّمة اكتملت بها النظم الحكومية التي وضع أسسها المعز وتبلورت حتى ظهرت في صورتها الكاملة الناضجة، حيث حدد الخليفة المعز واجبات الخليفة بحيث تدور كلها حول إصلاح الرعية وحمايتهم من أعدائهم فقال: «للناس شغل بدنياهم وما يتلذذون به منها، وشغلنا إقامة دورهم وإصلاح أحوالهم والنظر فيما يعود عليهم ويحمي حماهم ويدفع عن بيضتهم ويحقن دماءهم ويحصن حريمهم وأموالهم ويكف أيدي المتوالين. بذلك نقطع ليلنا ونهارنا والله المستعان على ما قلدناه من أمورهم وافتراضه علينا من القيام بأسبابهم ونرغب إليه في إصلاحهم وهدايتهم إلى ما فيه حظهم ونجاتهم في دنياهم وأخراهم».

* * *

وينقل عن الدكتور محمد حمدي المنياوي في كتابه (الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص ٣٨) قوله:

ولا شك أنه تحت حكم الفاطميين عموماً لقي غير المسلمين معاملة طيبة، وكانت مناصب الدولة حقاً لكل من توافرت لديه الكفاءة اللازمة دون أي دخل لمعتقد أو مذهب.

وينقل عن الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه: (الحركة الفكرية في مصر)، ص ٥٧ قوله:

والحق أن الفاطميين كانوا من الحذق والمهارة بحيث استطاعوا أن يلفتوا إليهم نظر الشعب المصري لفتاً قوياً وأن يشعروه بعظمة الحكم الفاطمي وكرم رجاله إلى الحد الذي لم تعرف له مصر نظيراً قبل مجيء هذه الدولة.

* * *

وينقل عن محمد عبد الله عنان قوله في كتابه (الحاكم بأمر الله) ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ قوله:

وقد كانت الحياة الاجتماعية الباهرة مرآة الدولة الفاطمية تشع بكثير من خواص قوّتها وفخامتها وبهائها ووحي مناهجها السياسية والدينية والعقلية. وكان الشعب المصري على تحفّظه في مشايعة الدولة الجديدة في مناهجها وغاياتها المذهبية يشهد بمرحه المأثور هذا الفيض الفاطمي من البذخ والترف والبهاء في إعجاب وحماسة. أجل، كانت مواكب الخلافة الفاطمية وحفلاتها الرسمية والشعبية ورسومها الفخمة ومآدبها الشهيرة وبذلها المأثور أياماً ومواقف مشهورة تثير من حولها أيما إجلال وروعة. وكانت أعيادها ومواسمها الباهرة ولياليها الساطعة مثار البهجة والمرح العام وما زالت آثار من تلك الرسوم والمواسم الشهيرة تمثل في كثير من أعيادنا ورسومنا وتقاليدنا الدينية فإذا رأيت بعض هذه المواسم والأعياد يجنح إلى نوع من الفخامة وإذا رأيت بعض هذه الرسوم يتشح بأثواب من الرونق والبهاء فإنما ذلك يرجع في الأغلب إلى أثر الدولة الفاطمية في بث هذه الروح البهيجة الباذخة إلى كثير من نواحي الحياة العامة والخاصة في مصر الإسلامية.

***

وينقل عن الدكتور راشد البراوي في كتابه (حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين) ص ١٢٠ ـ ١٢١) وعن عبد الحميد حسن في كتاب صفحات من الأدب المصري قولهما:

ولقد وجد الأقباط أنفسهم أمام حكام يطبقون مبدأ التسامح فأمنوا على أنفسهم وأموالهم والتفتوا إلى أعمالهم. وقد أثر التقدم التجاري في الحياة الاجتماعية ويتجلى ذلك في القصور الفاطمية وبنائها وتأثيثها... وقد أدى هذا إلى تقدم أنواع من الصناعة العربية كالصباغة والحياكة والتطريز والعمارة والزخرفة وغير ذلك من الصناعات التي امتازت بها حضارتهم.

* * *

وينقل عن محمد عبد الله عنان في كتابه (الحاكم بأمر الله) ص ٢٩ ـ ٣٠، قوله:

وكان المجتمع المصري بما انتهى إليه من بذخ وترف ونعماء يجذب إليه أكابر الإسلام من كل صوب فيثير فيهم الإعجاب والإجلال. وكانت القاهرة في هاتيك العصور كالعروس بين مدن الإسلام جميعاً تبهر العالم الإسلامي بعظمتها وغناها وقوة الدولة التي تتبوّأ ملك مصر.

* * *

وينقل عن كتاب (مصر في العصور الوسطى والحديثة) للدكتور حسن أحمد محمود وآخرين ما جاء في الصفحة ١٠ ـ ٥٣ قوله:

تمتعت مصر في العصر الفاطمي في معظم فتراته بالرخاء الاقتصادي طوال العصور الوسطى باستثناء فترات قصيرة وكانت لهذا الرخاء مظاهره في الفنون والصناعات المصرية منذ العصر الفاطمي فصاعداً وفي الحياة الاجتماعية الباهرة وفي النهضة الفكرية العظيمة.

وقد ظهرت هذه الثروة الاسطورية في نفقات الدولة في العصر الفاطمي وظهرت بصورة خاصة في ثروات الخلفاء والوزراء ونفقات الجيش والأسطول ونفقات الخزائن والأعياد والمواسم والهبات التي كانت تعطى للمساجد والمكتبات وغيرها.

* * *

وينقل عن شحاتة عيسى ابراهيم في كتابه (القاهرة) ص ٧٥ قوله:

ولا يغيب عن البال ما كانت تحدثه احتفالات الفاطميين من انتعاش في الحركة الاقتصادية في البلاد عموماً وفي القاهرة بصفة خاصة، هذا فضلاً عما تضفيه عليها من ألوان البهجة والسرور.

***

وينقل عن الدكتور علي إبراهيم في كتابه (مصر في العصور الوسطى) ص ٤٨٢ قوله:

وكان انتعاش الحياة في مصر من الناحية الزراعية يعود إلى زيادة المساحات الزراعية خاصة في عهد المعز والعزيز، وكذلك بدر الجمالي.

***

وينقل الدكتور راشد البراوي في كتابه (حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين) ص ١٠٦، ١٠٧ ـ ١١٦:

كان الفلاح المصري في عهد الفاطميين يستطيع أن يتصرف في الأراضي ويغير موطن إقامته حسبما شاء.

***

وامتدح الكتاب الأوروبيون سياسة الفاطميين إزاء الفلاحين فقال البعض أن التسامح كان طابع حكمهم(١) وأن معاملة الشعب على أيديهم كانت خيراً منها على أيدي سواهم من الحاكمين.

***

وينقل عن الدكتور علي حسين الخربوطلي في كتابه (مصر العربية الإسلامية) ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ قوله:

اهتم الفاطميون بالصناعة وتميزت صناعات الفاطميين عن سائر الصناعات المصرية في سائر العصور... ومن أشهر الصناعات في العصر الفاطمي: صناعة النسيج من الكتان والصوف والحرير، كما اشتهرت المصنوعات المصرية بالدقة والجودة وأصبحت مصر تنسج كسوة الكعبة كل سنة، وتقدمت صناعة الزجاج

---

(١) The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimide Caliphs P.39.

والخزف في العصر الفاطمي، كذلك تقدمت الصناعات الخشبية وخاصة صناعة بناء السفن.

* * *

وينقل عن الدكتور راشد البراوي في كتابه (حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين) ص ١١٩ قوله:

ويعتبر هذا العصر عصر ازدهار الصناعة، ولم تأت هذه النهضة الصناعية عفواً بل تحالفت عوامل سياسية متباينة جعلتها من خصائص العصر الفاطمي وأعظم مميزاته وأكبر مفاخره:

ويعلق المؤلف على ذلك قائلاً: ولعل تقدم الصناعة عندهم إنما يرجع إلى استتباب الأمن وقوة الحكومة المركزية وأثر المعاملة السمحة التي تمتّع بها الأقباط.

* * *

ويقول الدكتور محمد جمال الدين سرور في كتابه (الدولة الفاطمية في مصر) ص ٦ ما يلي:

على أن أهم ما اتصف به العصر الفاطمي في مصر هو النهضة التي ظهرت آثارها في جميع نواحي الحياة المصرية، فإلى جانب ما نلمسه من تطور في نظم الحكم والإدارة، نلحظ اهتمام الفاطميين بتنمية الثروة ما ساعد على انتشار الرخاء في البلاد. ويقول عن المعز (ص ٧٥): وليس من شك أن المعز كان يمثل الحاكم المستنير الذي يجمع في يده جميع السلطات ويعمل في نفس الوقت على إسعاد شعبه.

من الأدب الفاطمي

قال محمد بن هاني الأندلسي يمدح المعز لدين الله الفاطمي من قصيدة ويذكر ورود رسل الروم إليه بالكتب يتضرعون إليه في الصلح ويصف الأسطول الفاطمي الذي كان سيد البحر المتوسط يومذاك :

ألا طـرقتنـا والنجـوم ركـود   وفي الحي أيقاظ ونحن هجود
وقد أعجل الفجر الملمح خطوها   وفي أخريات الليل منه عمود
سرت عاطلاً غضبى على الدر وحده   فلـم يـدر نحـر مـا عـراه وجيـد
فما برحت إلا ومن سلك أدمعي   قـلائـد فـي لبـاتهـا وعقـود
ولـم أرَ مثلـي مـا لـه مـن تجلـد   ولا كجفـونـي مـا لهـن جمـود
ولا كـالليـالـي مـا لهـن مـواثـق   ولا كـالغـوانـي مـا لهـن عهـود
ولا كـالمعـز ابـن النبـي خليفـة   لـه الله بـالفضـل المبيـن شهيـد
فأسيافه تلك العواري غمودها   إلى اليوم لم تعرف لهن غمود
ومـن خيلـه تلـك الجوافـل انهـا   إلـى الآن لـم تحطـط لهـن لبـود
إمـام لـه ممـا جهلـت حقيقـة   وليـس لـه ممـا علمـت نـديـد
لـك البـر والبحـر العظيـم عبابـه   فسيّـان أغمـار تخـاض وبيـد
أمـا والجـواري المنشـآت التـي سرت   لقـد ظـاهـرتهـا عـدة وعـديـد
قباب كما تزجى القباب على المهى   ولكـن مـن ضمـت عليـه أسـود
ولله فيمـا لا يـرون كتـائـب   مسـوقـة تحـدو بهـا وجنـود
وما راع ملك الروم إلا اطلاعها   تنشـر أعـلام لهـا وبنـود
عليهـا غمـام مكفهـر صبيـره   لـه بـارقـات جمـة ورعـود
مواخر في طامي العباب كأنه   لعـزمـك بـأس أو لكفـك جـود
أنـافـت بهـا أعـلامهـا وسمـالهـا   بنـاء علـى غيـر العـراء مشيـد
من الراسيات الشم لولا انتقالها   فمنهـا قنـان شمـخ وريـود[١]

---

(١) جمع ريد وهو حرف ناتىء في عرض الجبل.

مـن الطيـر إلا أنهـن جـوارح ... فليس لهـا إلا النفـوس مصيـد
من القادحات النار تضرم للطلى ... فليس لهـا عنـد اللقـاء خمـود
إذا زفـرت غيظـاً تـرامـت بمـارج ... كما شب من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق ... وأفـواههـن الـزفـرات حـديـد
لهـا شعـل فـوق الغمـار كـأنهـا ... دمـاء تلقتهـا مـلاحـف سـود
تعـانـق مـوج البحـر حتـى كـأنـه ... سليـط لهـا فيـه الـذبـال عتيـد
ترى الماء منها وهو قان عبابه ... كما باشرت ردع الخلوق جلود
وغير المذاكي نجرها غير أنها ... مسـومـة تحـت الفـوارس قـود
فليـس لهـا إلا الـريـاح أعنـة ... وليـس لهـا إلا الحبـاب كـديـد
ترى كل قوداء التليل كما انثنت ... سـوالـف غيـد للمهـا وقـدود[١]
رحيبـة مـد البـاع وهـي نتيجـة ... بغير شوى[٢] عذراء[٣] وهي ولود
تكبـرن عـن نقـع يثـار كـأنهـا ... مـوال وجـرد الصـافنـات عبيـد
لها من شفوف العبقري ملابس ... مفـوفـة فيهـا النضـار جسيـد
كما اشتملت فوق الأرائك خرد ... أو التفعـت فـوق المنـابـر صيـد
لبوس تكف الموج وهو غطامط ... وتـدرأ بـأس اليـم وهـو شـديـد
فمنهـا دروع فـوقهـا وجـواشـن ... ومنهـا خفـاتيـن لهـا وبـرود
فلا غرو إن أعززت دين محمد ... فـأنـت لـه دون الأنـام عقيـد
غضبت له أن ثل في الشام عرشه ... وعـادك مـن ذكـر العـواصـم عيد
فبـت لـه دون الأنـام مسهـداً ... ونـام طليـق خـائـن وطـريـد
وما سرهم ما ساء أبناء قيصر ... وتلـك تـرات لـم تـزل وحقـود
هم بعدوا عنهم على قرب دارهم ... وجحفلـك الـدانـي وأنـت بعيـد
وقلت أناسٍ ذا الدمستق شكره ... إذا جـاءه بـالعفـو منـك بـريـد
تناجيك عنه الكتب وهي ضراعة ... ويأتيك عنه القول وهو سجود

---

(١) التليل: العنق، وقوداء التليل طويلة العنق.
(٢) الشوى: اليدان والرجلان.
(٣) لم يصنع مثلها.

إذا أنكرت فيها التراجم لفظه فأدمعه بين السطور شهود
ليالي تقفو الرسل رسل خواضع ويأتيك من بعد الوفود وفود
فإن هز أسياف الهرقل فإنها إذا شئت أغلال له وقيود
فإن لم تكن إلا الغواية وحدها فإن غرار المشر في رشيد
ألا هل أتاهم أن ثغرك موصد وليس له إلا الرماح وصيد
فليت أبا السبطين والترب دونه يرى كيف تبدي حكمه وتعيد
إذاً لرأى يمناك تخضب سيفه وأنت عن الدين الحنيف تذود

وقال يمدح المعز ويتحدث عن القوى البرية والبحرية من قصيدة:

ما للمهارى الناجيات كأنها حتم عليها البين والعدواء
ليس العجيب بأن يبارين الصبا والعذل في أسماعهن حداء
تدنو منال يد المحب وفوقها شمس الظهيرة خدرها الجوزاء
بانت مودعة فخد معرض يوم الوداع ونظرة شزراء
حجبت ويحجب طيفها فكأنما منهم على لحظاتها رقباء
كل يهيج هواك إما أيكة خضراء أو أيكية ورقاء
فانظر أنار باللوى أم بارق متألق أم راية حمراء
بالغور تخبو تارة ويشبها تحت الدجنة مندل وكباء
وطفقت أسأل عن أغر محجل فإذا الأنام جبلة دهماء
حتى دفعت إلى المعز خليفة فعلمت أن المطلب الخلفاء
هذا الأعز الأزهر الـ ـمتدفق المتبلج الوضّاء
فعليه من سيما النبي دلالة وعليه من نور الإله بهاء
ورث المقيم بيثرب فالمنبر الـ ـأعلى له فالشرعة العلياء
والخطبة الزهراء فيها الحكمة الـ ـغراء فيها الحجة البيضاء
جهل البطارق أنه الملك الذي أوصى البنين بسلمه الآباء

حتـى رأى جهـالهـم مـن عـزمـه	غـب الـذي شهـدت بـه العلمـاء
فتقاصروا من بعد ما حكم الردى	ومضى الوعيد وشبت الهيجاء
أيــن المفــر ولا مفــر لهــارب	ولـك البسيطـان الثـرى والمـاء
ولك الجواري المنشآت مواخر	تجـري بـأمـرك والـريـاح رخـاء
والحـامـلات وكلهـا محمـولـة	والنـاتجـات وكلهـا عـذراء
والاعـوجيـات التـي إن سـوبقـت	سبقت وجري المذكيات خلاء
الطـائـرات السـابحـات السـابقـا	ت النـاجيـات إذا استحـث نجـاء
فالبأس في حمس الوغى لكماتها	والكبـريـاء لهـن والخيـلاء
لا يصدرون نوحرها يوم الوغى	إلا كمـا صبـغ الخـدود حيـاء
لبسوا الحديد على الحديد مظاهراً	حتـى اليـلامـق والـدروع سـواء
أعـززت ديـن الله يـا ابـن نبيـه	فـاليـوم فيـه تخمـط وإبـاء
فـأقـل حـظ العـرب منـك سعـادة	وأقـل حـظ الـروم منـك شقـاء
فـإذا بعثـت الجيـش فهـو منيـة	وإذا رأيـت الـرأي فهـو قضـاء

وقال مخاطباً المعز من قصيدة بعد هزائم الروم أمام جيوش الفاطميين في البر والبحر:

قال في غزلها:

مـا أنـس لا أنسـى إجفـال الحجيـج بنـا	والـراقصـات مـن المهـريـة القـود
ذا موقف الصبر من مرمى الجمار ومن	مشـاخـب البـدن قفـراً غيـر معهـود
ومـواقـف الفتيـات النـاسكـات ضحـى	يعثـرن فـي صبـرات الفتيـة الصيـد
يحرمن في الريط من مثنى وواحدة	وليـس يحـرمـن إلا فـي المـواعيـد
ذوات نبـل ضعـاف وهـي قـاتلـة	وقـد يصيـب كميـاً سهـم رعـديـد
قـد كنـت أقنصهـا أيـام أذعـرهـا	غيـد السـوالـف فـي أيـامـي الغيـد
لا مثـل وجـدي بـريعـان الشبـاب وقـد	رأيـت أملـود غصنـي غيـر أملـود

ورابنـي لـون رأسـي أنـه اختلفـت فيـه الغمـائم مـن بيـض ومـن سـود

وقال في المعز :

قـد حـاكمتـه ملـوك الـروم فـي لجـب وكـان لله حكـم غيـر مـردود
ذمـوا قنـاك وقـد ثـارت أسنتهـا فمـا تـركـن وريـداً غيـر مـورود
ألقـى الـدمستـق بـالصلبـان حيـن رأى مـا أنـزل الله مـن نصـر وتـأييـد
فقـل لـه حـال مـن دون الخليـج قنـاً سمـر وأذرع أبطـال منـا جيـد
أعيـا عليـه أيـرجـو أم يخـاف وقـد رآك تنجـز مـن وعـد وتـوعيـد
حميتـه البـر والبحـر الفضـاء معـاً فمـا يمـر ببـاب غيـر مسـدود
قـد كـانـت الـروم محـذوراً كتـائبهـا تـدنـي البـلاد علـى شحـط وتبعيـد
حـل الـذي أحكمـوه فـي العـزائـم مـن عقـد ومـا جـربـوه فـي المكـائيـد
وشـاغبـوا اليـم ألفـي حجـة كمـلاً وهـم فـوارس قـاريّـاتـه السـود
فـاليـوم قـد طمسـت فيـه مسـالكهـم مـن كـل لاحـب نهـج الفلـك مقصـود
هيهـات راعهـم فـي كـل معتـرك ملـك الملـوك وصنـديـد الصنـاديـد

وقال يصف أوضاع الوطن قبل نهضة الفاطميين :

أسفـي علـى الأحـرار قـلّ حفـاظهـم لـو كـان يجـدي الحـر أن يتـأسفـا
يـا ويلكـم أفمـا لكـم مـن صـارخ إلا بثغـر ضـاع أو ديـن عفـا
فمـدينـة مـن بعـد أخـرى تستبـى وطـريقـة مـن بعـد أخـرى تقتفـى
حتـى لقـد رجفـت ديـار ربيعـة وتـزلـزلـت أرض العـراق تخـوّفـاً
والشـام قـد أودى وأودى أهلـه إلا قليـلاً والحجـاز علـى شفـا
فتـربصـوا فـالله منجـز وعـده قـد آن للظمـاء أن تتكشفـا

وقال يصف نهضة المعز لإنقاذ الوطن من قصيدة يبلغ عدد أبياتها مئتي بيت نأخذ منها ما يلي :

يعـز علـى الحسنـاء أن أطـأ القنـا ... وأعثـر فـي ذيـل الخميـس العـرمـرم
وبيـن حصـا اليـاقـوت لبـات خـائـف ... حبيـب إليـه لـو تـوسـد معصمـي
وممـا شجـانـي فـي العـلاقـة أننـي ... شـربـت زعـافـاً قـاتـلاً لـذفـي فمـي
رميـت بسهـم لـم يصـب وأصـابنـي ... فـألقيـت قـوسـي مـن يـدي وأسهمـي
فلـو أننـي أسطيـع أثقلـت خـدرهـا ... بمـا فـوق رايـات المعـز مـن الـدم
لهـا العـذبـات الحمـر تهفـو كـأنهـا ... حـواشـي بـروق أو ذوائـب أنجـم
يقـدمهـا للطعـن كـل شمـردل ... علـى كـل خـوار العنـان مطهـم
أمـام هـدى مـا التـف ثـوب نبـوة ... علـى ابـن نبـي منـه بـالله أعلـم
ولا بسطـت أيـدي العفـاة بنـانهـا ... إلـى أريحـي منـه أنـدى وأكـرم
قصـاراك ملـك الأرض لا مـا يـرونـه ... مـن الحـظ فيهـا والنصيـب المعشـم
ولا بـد مـن تلـك التـي تجمـع الـورى ... علـى لاحـب يهـدي إلـى الحـق أقـوم
فقـد سئمـت بيـض الظبـا مـن جفـونهـا ... وكانت متى تألف سوى الهام تسأم
وقـد غضبـت للـديـن بـاسـط كفـه ... إليهـن بـالآفـاق كـالمتظلـم
وللعـرب العـربـاء ذلـت خـدودهـا ... وللفتنـة العميـاء فـي الـزمـن العمـي
وللعـز فـي مصـر يـرد سـريـره ... إلـى نـاعـب بـالبيـن ينعـق اسحـم[1]
وللملـك فـي بغـداد أن رد حكمـه ... إلـى عضـد فـي غيـر كـف ومعصـم
سـوام رتـاع بيـن يـأس وحيـرة ... وملـك مضـاع بيـن تـرك وديلـم

وقال من قصيدة بعد أن هزم المعز الروم:

هـل للـدمستـق بعـد ذلـك رجعـة ... قضيـت بسيفـك منهـم الأوطـار
أضحـوا حصيـداً هـامـديـن وأقفـرت ... عـرصـاتهـم وتعطلـت آثـار

وقال مخاطباً المعز من قصيدة بعد هزائم الروم أمام جيوش الفاطميين:

---

(١) يشير إلى كافور الاخشيدي.

نــوى أبعــدت طــائيــة ومــزارهــا إلا كـل طـائـي إلـى القلـب محبـوب
إذا لـم أذد عــن ذلــك المــاء وردهــم وإن حــنّ وراد كمــا حنــت النيــب
فـلا حملـت بيـض السيـوف قـوائـم ولا صحبـت سمـر الـرمـاح أنـابيـب
ومـا تفتـأ الحسنـاء تهـدي خيـالهـا ومـن دونهـا إسـآد خمـس وتـأويـب
ومـا راعنـي إلا ابـن ورقـاء هـاتـف بعينيـه جمـر مـن ضلـوعـي مشبـوب
ألا أيهـا البـاكـي علـى غيـر إلفـه كـلانـا فـريـد بـالسمـاوة مغلـوب
فـلا شـدو إلا مـن رنينـك شـائـق ولا دمـع إلا مـن جفـونـي مسكـوب
ولا مـــدح إلا للمعــــز حقيقـــة يفصــل دراً والمــديــح أســاليــب
نجـار علـى البيـت الأمـامـي معتـل وحكـم إلـى العـدل الـربـوبي منسوب
ومــا هــو إلا أن يشيــر بلحظــه فتمخــر فلــك أو تغــذ مقــانيــب
ولــم أر زواراً كسيفـــك للعـــدى فهـل عنـد هـام الـروم أهـل وتـرحيـب
إذا ذكـــروا آثــار سيفـــك فيهـــم فلا القطر معدود ولا الرمل محسوب
وفيمـا اصطلـوا مـن حـر بـأسـك واعـظ وفيمـا أذيقـوا مـن عـذابـك تـأديـب
ومـن دون شعـب أنـت حـاميـه معـرك وبــيء وتصعيــد كــريــه وتصــويــب
وجــرد عنــاجيــج وبيــض صــوارم وصيــابــة مــرد وكــرامــة شيــب[1]
وسفـن إذا مـا خـاضـت اليـم زاخـراً جلت عن بياض النصر وهي غرابيب
تشــب لهــا حمــراء قــان أوارهــا سبـوح لهـا ذيـل علـى المـاء مسحـوب

(١) الصيّابة: الخيار من كل شيء. والكرامة: جمع كرام وهو المفرط في الكرم.

نصير الدين الطوسي وابن العلقمي وسقوط بغداد

تبنى أحد الكاب في مقال له اتهامات المفترين على ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي، وورد اتهامه بهذا النص:

١ ــ قال ما يلي: لقد كان الطوسي على علم بما كان يبيّته ابن العلقمي والدواتدار للإطاحة بالخليفة العباسي وإسناد الخلافة للعلويين أو أحد الأمراء العباسيين.

٢ ــ نقل عبارة (حبيب السير) وهي قوله: أن حادثة بغداد إنما وقعت بناء على مشاورة الخواجة نصير الدين الطوسي من جهة، ومن جهة أخرى الوزير المكار (ابن العلقمي) الذي مهّد السبيل لحملة المغول، وهو الذي مزق جيش الخلافة في أطراف البلاد، ثم أرسل رسولاً إلى هولاكو وأخبره بتفرق العساكر. كما أرسل رسالة أخرى إلى هولاكو: إنه بعد وصول جيوشكم إلى بغداد سأقطع علاقتي بالعباسيين الذي سينقطع أثرهم ودابرهم (انتهى).

نقل الكاتب هذا القول دون أن يعلق عليه بكلمة، ما يدل دلالة واضحة على أنه يتبناه ويأخذ به.

٣ ـ قال وهو يحلل كلام رشيد الدين فضل الله الهمذاني: «ثم إن إصرار ابن العلقمي الوزير العباسي على هولاكو في الهجوم على بغداد..».

٤ ـ قال في مكان آخر: وقد أثارت هذه الحوادث الوزير العلقمي فحملته على مكاتبة هولاكو واستدعائه لطي بساط العباسيين (انتهى).

هذه هي التهم الصريحة التي وجهها الكاتب إلى الوزير المفترى عليه (ابن العلقمي) مشركاً معه في أول كلامه بالتهمة: نصير الدين الطوسي، وساهم فيها في افتراء المفترين دون أن يحسب أي حساب للحقائق التاريخية التي تصفع كل باطل جاء به المبطلون...

فما هي الحقائق في ذلك؟

نريد أولاً: أن نفنّد الزعم القائل: بأن ابن العلقمي (هو الذي مزّق جيش الخلافة في أطراف البلاد) إضعافاً للدفاع عن بغداد، كما نقل الكاتب عن (حبيب السيد) متبنياً قوله، كما تبنى هذا القول غيره من الكتاب المفترين:

إن أمر الجيش لم يكن بيد ابن العلقمي، ولا كان هو الذي يفرض جمعه أو تفريقه أو الإنفاق عليه، ولم تكن له أية صلاحية في شأن من شؤونه. وإن صح تفريق الجيش فإن الذي يكون قد قام بتفريقه هو الرجل المسؤول عن ذلك ومن بيده أمر تصريف شؤون الجيش وهو غير ابن العلقمي كما سنبينه هنا:

فإليك هذه النصوص التاريخية التي جاءت في كتاب (الحوادث الجامعة) الذي كان مؤلفه معاصراً لتلك الأحداث: فقد أورد وهو يذكر حوادث سنة ٦٥٠ ما يلي:

«وفيها فارق كثير من الجند بغداد لانقطاع أرزاقهم ولحقوا ببلاد الشام»[١].

ومن حوادثهم أنهم طالبوا بزيادة أعطياتهم ولما رفض الشرابي قائد الجيش طلبهم حاولوا الإخلال بالأمن وطالبوا بإخراج المحبوسين منهم، ثم خرجوا إلى

(١) ص ٢٦١.

ظاهر بغداد وأقاموا هناك بضعة أيام مظهرين الرحيل، ثم سألوا الصفح عنهم عندما اجتمع بهم أحد الشيوخ الزاهدين. وقد وصف في كتاب (الحوادث الجامعة) ما جرى بما يلي:

«وفي شعبان حضر جماعة المماليك الظاهرية والمستنصرية[1] عند مشرف الدين إقبال الشرابي للسلام على عادتهم وطلبوا الزيادة في معايشهم وبالغوا في القول وألحّوا في الطلب، فرد عليهم وقال: ما نزيدكم بمجرد قولكم، بل نزيد منكم من نزيد إذا أظهر خدمة يستحق بها، فنفروا على فورهم إلى ظاهر السور وتحالفوا على الاتفاق والتعاضد، فوقع التعيين على قبض جماعة من أشرارهم، فقبض منهم اثنان، وامتنع الباقون وركبوا جميعاً وقصدوا باب البدرية ومنعوا الناس من العبور، فخرج إليهم مقدم البدرية وقبّح لهم هذا الفعل، فلم يلتفتوا إليه، فنفذ إليهم سنجر الياغر فسألهم عن سبب ذلك فقالوا نريد أن يخرج أصحابنا وتزاد معايشنا. فأنهى سنجر ذلك إلى الشرابي، فأعاد عليهم الجواب: إن المحبوسين ما نخرجهما وهم مماليكنا نعمل بهم ما نريد، ومعايشكم ما نزيدها فمن رضي بذلك يقعد، ومن لم يرض واراد الخروج من البلد فنحن لا نمنعه. وطال الخطاب في ذلك إلى آخر النهار، ثم مضوا وخرجوا إلى ظاهر البلد، فأقاموا هناك مظهرين الرحيل، فبقوا على ذلك أياماً فاجتمع بهم الشيخ السبتي الزاهد، فعرّفهم ما في ذلك من الإثم ومخالفة الشرع، فاعتذروا وسألوه الشفاعة لهم، وأن يحضر لهم خاتم الأمان ليدخلوا البلد، فحضر عند الشرابي وعرّفه ذلك وسأله إجابة سؤلهم، فأخرج لهم خاتم الأمان مع الأمير شمس الدين قيران الظاهري والشيخ السبتي، فدخلوا والشيخ راكب حماره بين أيديهم، وحضروا عند الشرابي معتذرين فقبل عذرهم، وكانت مدة إقامتهم بظاهر السور سبعة أيام».

وبعد وفاة الشرابي، كان أمير الجيش وكل ما يتعلق بشؤونه بيدي مقدم

---

(١) كان الدواتدار الصغير مجاهد الدين إيبك نفسه من المماليك الشراكسة، وهؤلاء المماليك الظاهرية والمستنصرية كانت تتألف منهم جمهرة الجيش. ويقول الذهبي في (سير أعلام النبلاء) عن الشرابي: جعل سنة ست وعشرين وستمائة مقدم جيوش العراق (ص ٣٧٠، ج ٢٣). ويصف الدواتدار بأنه مقدم جيش العراق، ص ٣٧١.

الجيش إيبك الدواتدار الصغير خصم ابن العلقمي وعدوه اللدود، فقد كان هو الذي يتولى منصب قائد الجيش.

وما ذكره مؤلف (الحوادث الجامعة) يعطينا صورة واضحة عما كانت عليه حال الجيش في بغداد من التمزّق والتشرذم والفوضى قبل تولي ابن العلقمي الوزارة، ثم استمر ذلك حتى وصول جيش المغول. وأن المسؤولين عن ذلك هم الشرابي والدواتدار وأمثالهم ممن كان إليهم التصرف بأمر الجيش.

ومن أعاجيب هذا الكاتب ما ذكره عن اتفاق ابن العلقمي والدواتدار على الإطاحة بالمستعصم! . . مع أن هذين الاثنين لم يتفقا في حياتهما على شيء، بل كانت العداوة بينهما مستمرة على أشدها. أما عن المؤامرة فننقل ما ذكره المؤرخ رشيد الدين فضل الهمذاني بنصه ليرى القارىء أن الأمر كان عكس ما ذكره الكاتب.

قال الهمذاني:

«ولما لمس الدواتدار في نفسه القوّة ورأى الخليفة المستعصم عاجزاً لا رأي له ولا تدبير ساذجاً، اتفق مع طائفة من الأعيان على خلعه وتولية آخر من العباسيين في مكانه. وعندما علم مؤيد الدين بن العلقمي نبأ تلك المؤامرة أخبر الخليفة على انفراد قائلاً يجب تدارك أمرهم».

إذن فصاحب المؤامرة هو الدواتدار، والذي قاومها وأفشى أمرها للمستعصم هو ابن العلقمي، كما أنه لم يكن عند المتآمرين تفكير بإسناد الخلافة للعلويين كما يزعم الكاتب، بل إلى آخر من العباسيين لأن المتآمرين هم في الأصل ضد العلويين. أما عن اتهام ابن العلقمي مع المغول فنقول: إن الأصل في إرسال هذه التهمة هو عدو ابن العلقمي الدواتدار، فقد قال المؤرخ رشيد الدين فضل الله الهمذاني ما نصه:

«ولما كان الدواتدار خصماً للوزير فإن اتباعه من سفلة المدينة وأوباشها كانوا يذيعون بين الناس أن الوزير متفق مع هولاكو».

هذا هو الأصل في كل ما ذكر. أما ما ذكر بعد ذلك فهو ما توسع به المتوسّعون وأضافه المفترون.

وإذا كان سفلة المدينة وأوباشها هم أصل التهمة، فإن سفلة التاريخ وأوباشه هم من تبنّاها ونشرها.

عدو عريق في عداوته يريد أن ينال من عدوه، فينشر في أوساط السفلة والأوباش إشاعة، فيأتي بعد ذلك من توافق هذه الإشاعة هواهم فيفرغها كل منهم في القالب الذي يختاره حتى يبلغ بهم التناقض أحياناً أقصى مداه، ثم يولع بعضهم بالافتراء فيضيف أشياء لم يقل بها الذين سبقوه مما سنراه فيما يلي:

أبو شامة المتوفى سنة (٦٦٥ هـ ــ ١٢٦٢ م) يقتصر في تهمته وهو يتحدث عن حوادث سنة (٦٥٦ ــ ١٢٥٨ م) على هذا القول: «استولى التتار على بغداد بمكيدة دبرت مع وزير الخليفة».

وجاء قطب الدين اليونيني المتوفى سنة ٧٢٦ (١٣٢٥ م) فأعاد العبارة نفسها، ثم راح يعلل أسباب ذلك بأن الدواتدار والأمير أبا بكر ابن الخليفة تقدما إلى الجند بنهب الكرخ فهجموا ونهبوا وارتكبوا العظائم، فشكا أهل الكرخ (وهم من مذهب الوزير) ذلك إلى الوزير فأمرهم بالكف والتغاضي وأضمر هذا الأمر في نفسه وحصل بسبب ذلك عنده الضغن على الخليفة.

ثم يوغل اليونيني بالتفاصيل بما لا يخرج عن الاتهام. ويزيد على ذلك بأن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ كاتب الخليفة سراً في التحذير من المغول، وأن الوزير لم يكن يوصل رسله إلى الخليفة.

ثم جاء الذهبي المتوفى سنة (٢٤٨ هـ ــ ١٣٤٧ م) فقال وهو يتحدث عن أحداث سنة (٦٤٨ هـ ــ ١٢٥٠ م): «أما بغداد فضعف دست الخلافة وقطعوا أخباز الجند الذين استجدهم المستنصر. كل ذلك من عمل الوزير ابن العلقمي الرافضي، جهد في أن يزيل دولة بني العباس ويقيم حكماً علوياً وأخذ يكاتب التتار ويراسلونه والخليفة غافل لا يطلع على الأمر ولا حرص له على المصلحة».

ثم جاء عبد الله بن فضل الشيرازي الذي ألف كتابه حوالي سنة (٧٢٩ هـ ـ ١٣٢٨ م) فقال ما ملخّصه: أن الخليفة كان منصرفاً إلى اللهو والراحة، وكان وزيره ابن العلقمي مستبداً بالأمور، وأن فاجعة الكرخ الذي كان قائدها ابن الخليفة الذي أرسل جنوداً أغاروا على الكرخ وأسروا البنين والبنات وبينهم العلويات كانت السبب في نقمة الوزير مما دعاه إلى مراسلة المغول ودعوتهم إلى بغداد.

وهنا يتناقض هؤلاء القوم، فبينا رأينا فيما تقدم أن تمزق الجيش وتشرذمه كان معروفاً، إذا بالشيرازي يقول: «إن حصانة بغداد وكثرة جنودها كان أمراً مشهوراً، وأنه بينما كان الخليفة منصرفاً لسماع الأغاني والاجتماع بالجواري والمغنيات، كان ابن العلقمي يفرق الكلمة ويشرد جميع الأفراد وينفر الجنود، وأن الشرابي والدواتدار يحذرون الخليفة، وابن العلقمي يسخف أقوالهم».

يقول الشيرازي هذا القول، بينما رأينا فيما تقدم موقف الجند من الشرابي وما جرى بينه وبينهم. كما رأينا أن أمر الجند والجيش لم يكن بيد ابن العلقمي بل بيد الشر أبي نفسه، ثم بعد موته في يد مجاهد الدين إيبك الدواتدار الصغير.

وهكذا يرى القارىء أنه كلما مر الزمن وجاء مفتر جديد، يختلق أشياء جديدة لم يذكره الذي قبله، ويتوسع في الخيال بما يدعم به افتراءه.

فأول هؤلاء أبو شامة لم يزد في اتهامه على نسبة المكيدة لابن العلقمي، ثم توسع المتوسعون ما رأيناه في أقوالهم المتقدمة.

ثم تجيء الفضيحة الكبرى بمجيء ابن شاكر الكتبي المتوفى سنة (٧٦٤ هـ ـ ١٣٦٢ م) الذي رأى أن لا يكتفي بتكرار ما اخترعه الذين تقدموه وزيادة شيء يمكن أن يكون معقولاً. بل عمد إلى شيء مضحك مبك معاً، فهو لشدة حرصه على إثبات التهمة، نسي عقله ونحّاه جانباً واختلق شيئاً لا يمكن أن يختلقه إذا لم يكن عقله منسياً منحّى. وفاته أن تصوير أداة الجريمة بالصورة التي صورها بها، كاف لإسقاط التهمة من أساسها فقال:

«لما كان ابن العلقمي يكاتب التتار، تخيل إلى أنه أخذ رجلاً وحلق رأسه

حلقاً بليغاً وكتب ما أراد عليه بالإبر ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع عليه شعره وغطّى ما كتبه فجهّزه وقال: إذا وصلت مُرْهُمْ بحلق رأسك ودعهم يقرؤون ما فيه. وكان في آخر الكلام: (قطّعوا الورقة)، فضربت عنقه، وهذا في غاية المكر والخزي».

هذه هي الصورة المضحكة المبكية ــ كما قلنا ــ التي صور فيها ابن شاكر الكتبي أداة الجريمة فكان بذلك في غاية المكر والخزي: المضحكة لهذا التخيل الفاضح، والمبكية لأن تبلغ الأهواء بمن ائتمنوا على كتابة التاريخ إلى هذا المدى!.

ونسي ابن شاكر أن يبين لنا كيف استطاع صاحب الرأس المكتوب عليه بالأبر، كيف استطاع تحمّل آلام الأبر وهي تغرس في رأسه في الرسالة الطويلة!.

ويعلق الدكتور مصطفى جواد على هذا القول مستهزئاً: فليت شعري من خبّر بهذا الفعل ــ لو صح ــ أأبن العلقمي؟ أم الذي قُطع رأسه؟ أم المغول الذين يعتبر هذا من أهم أسرارهم؟!.

ثم يجيء تاج الدين السبكي المتوفى سنة (٧٧١ هـ ــ ١٣٦٩ م) فتعجبه الصورة التي رسمها ابن شاكر الكتبي فرأى أن يتبناها، ولكنه كغيره ممن تقدموه رأى أن يزيد عليها فقال:

«إنه (ابن العلقمي) حلق رأس شخص وكتب عليه بالسواد وعمل على ذلك وأصار المكتوب كل حرف كالحفرة في الرأس، ثم تركه عنده حتى طلع شعره وأرسله إليهم».

كل حرف كالحفرة في الرأس، ومهما كانت الرسالة موجزة ــ مع أنه ليس من المعقول أن تكون موجزة ــ فلنتصوركم حفرة تكون قد حفرت في ذلك الرأس!..

ولم يخبرنا هذا المؤرخ المبدع!! عن الأداة التي حفرت بها تلك الحفر!! ولا عن حالة صاحب الرأس الذي يحفرون في رأسه الحفرة بعد الحفرة!!

يقول الدكتور جعفر خصباك:

«وعندما نصل إلى أواخر القرن العاشر الهجري، نجد أن قصة سقوط بغداد وخيانة ابن العلقمي تتسع إلى حد غير معقول وتختلط بأقاصيص غريبة على يد الشيخ حسن الديار بكري المتوفى سنة (٩٩٠ هـ ــ ١٥٨٢ م). ثم ينقل الدكتور خصباك النصوص التي ذكرها الديار بكري في كتابه (تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس)، وهي نصوص طويلة اخترع فيها أشياء لم يذكرها أحد ممن تقدموه وفيها العجائب والغرائب، يطول بنا المقام لو أردنا نقلها هنا.

ثم يأتي الديار بكري بعد ذلك بالطامة الكبرى فيقول عن ابن العلقمي: «فلم يلبث أن أمسكه هولاكو بعد قتل المستعصم بأيام ووبّخه بألفاظ شنيعة معناها أنه لم يكن له خير في مخدومه ولا دينه، فكيف يكون له خير في هولاكو ثم أنه قتله شر قتلة!!».

هكذا استسهل هذا المؤرخ الفذ أن يختلق قتل هولاكو لابن العلقمي، ومن يستسهل هذا الاختلاق، أيصعب عليه أي اختلاق آخر؟!

والذي يبدو أن ما حمل البكري على هذه الكذبة المفضوحة، أن من سبقوه اتخذوا من بقاء ابن العلقمي حيّاً بعد فتح بغداد، ثم مشاركته في اللجنة التي أعادت تنظيم بغداد والعراق، اتخذوا من ذلك دليلاً على ما اتهموا به ابن العلقمي، ثم تبين لمن جاء بعدهم أن ليس في هذا ما يمكن أن يكون دليلاً على ثبوت التهمة، وذلك لأنه ليس هو الوحيد الذي سلم من القتل، ثم شارك في اللجنة الإدارية، بل كان ذلك شأن غيره من أركان الدولة العباسية كما سيأتي. فارتأى الديار بكري أن يتجاوز ما ذكره من قبله وأن يخترع خبر قتل هولاكو لابن العلقمي، هكذا بكل سهولة، بل بكل وقاحة!.

هذا هو موجز نصوص التهمة التي وجّهت إلى ابن العلقمي، فما هي الحقيقة في ذلك؟

١ ــ إن أحداً من المؤرخين الشرفاء من ذوي النزاهة لم يقل بهذه التهمة،

وإنما اقتصر القول بها على المؤرخين المتعصبين الذين لا يبالون في سبيل هواهم النحلي أن يقولوا أي شيء.

فهناك مثلاً عطا ملك الجويني صاحب كتاب (جهان كشاي) المعاصر لتلك الأحداث. وعبد الرحمن سنبط بن قنينو صاحب كتاب (العسجد المسبوك) وهو عراقي معاصر لها أيضاً. وأبو الفرج ابن العبري صاحب كتاب (تاريخ مختصر الدول) وهو أيضاً معاصر لها. وعبد الرزاق ابن الفوطي البغدادي صاحب كتاب (الحوادث الجامعة) وغيره وهو أيضاً معاصر لها. ولو كان لهذه التهمة أي نصيب من الصحة لأشار إليها هؤلاء المؤرخون المعاصرون المتصلون بالأحداث عن كثب والمطلعون على أدق التفاصيل فيها.

٢ ــ إن المتهمين جميعاً يجعلون سنة (٦٥٤ ــ ١٢٥٦ م) هي السنة التي قرر فيها هولاكو الزحف على بغداد بسبب تحريض ابن العلقمي له على ذلك وتهوين الأمر عليه، وذلك انتقاماً لفاجعة الكرخ التي حدثت في السنة المذكورة.

وهذا القول يقوله من يظن أن الناس على قدر من السذاجة بحيث يصدقون معه قوله. مع أن غزو العراق ــ كما يعرف كل من له إلمام بتاريخ تلك الفترة ــ وكما يقول الدكتور جعفر خصباك: «كان أمراً تتضمنه طبيعة الغزو المغولي الذي كان يستهدف السيطرة على العالم، وقد استولى المغول فعلاً على أكثر الصين وأواسط آسيا وإيران وأوروبا الشرقية، وبقيت بلاد الإسماعيلية والعراق وسوريا ومصر جيبا جغرافياً وعسكرياً كان لا بد من الاستيلاء عليه. وهذا ما قام به هولاكو. وإذا كان العراق قد سقط بأيدي المغول نتيجة لخيانة وزيره ابن العلقمي، فكيف نفسر سقوط كل هذه البلاد الممتدة من المحيط الهندي إلى أواسط أوروبا؟. ومن هم الخونة الذين سلّموها إلى الأعداء؟. ثم كيف نفسّر احتلال هولاكو لسوريا واستعداده للزحف على مصر؟.

ويزيد الدكتور خصباك قائلاً: «إن كل ما قيل عن رسل الوزير إنما كان مجرد إشاعات لا تستند إلى أي دليل، فليس هناك حتى من ادعى أنه رأى رسل ابن

العلقمي إلى هولاكو أو قبض عليهم أو تحدث إليهم أو شهدهم يدخلون على هولاكو».

ومصدر هذه الإشاعات الوحيد هو الواتدار الصغير عدو ابن العلقمي اللدود.

٣ ـ إن ما حاول أن يستند إليه مرددو التهمة من سلامة ابن العلقمي وإشراكه في اللجنة التي شكلت لإدارة شؤون العراق بعد احتلاله، يرده أن ممن سلموا وأُشركوا في تلك اللجنة من كان من أركان الدولة قبل الاحتلال ومنهم صاحب ديوان الخليفة المستعصم، أي وزير ماليته، وحاجب الباب في عهده أي مدير شرطة العاصمة، كما كان بين السالمين أقرب مستشاري الخليفة إليه صديقه عبد الغني الدرنوش.

وكان لا بد للمغول ممن يعهدون إليه بإدارة شؤون البلاد من أهل البلاد نفسها فاختاروا من اختاروهم وكان فيهم ابن العلقمي. وقد كان مقياس الاختيار ـ كما يظهر جلياً ـ هو تمرس المختار في الأعمال الإدارية من قبل، لذلك اختاروا كبار رجال الحكم السابقين.

وقد أدرك فساد هذا الدليل من جاءوا من بعد، لذلك رأينا الديار بكري يختلق قصة قتل هولاكو لابن العلقمي.

وما أحسن ما قاله الدكتور جعفر خصباك في هذا الموضوع: «ويبدو أن إلصاق تهمة سقوط بغداد بابن العلقمي إنما غايتها تبرير الإهمال والتسيب اللذين سيطرا على إدارة العراق منذ بداية الغزو المغولي لدولة خوارزم سنة (٦١٦ هـ ـ ١٢١٩ م)، وقد كانت الخطة الصحيحة المناسبة آنذاك هي محاربة المغول منذ أول ظهورهم في بلاد ما وراء النهر وخراسان، وليس التفرج على هجماتهم وفظائعهم وانتظارهم عند أسوار بغداد، ثم اتهام الوزير بأنه السبب في سقوط المدينة».

بين جنگيز وهولاكو والطوسي

يقول محمد مدرسي زنجاني: في كتابه (سركذت وعقائد فلسفي خاجه نصير

الدين الطوسي): فضلاً عن مقام الطوسي العلمي استطاع بتأثيره على مزاج هولاكو أن يستحوذ تدريجياً على عقله وأن يروض شارب الدماء فيوجهه إلى إصلاح الأمور الاجتماعية والثقافية والفنية».

ويقول الدكتور جعفر خصباك في كتابه: (العراق في عهد الملوك الايلخانيين):

«وقد كثر الكلام عن التخريبات الواسعة التي أحدثها الغزو المغولي للعراق ولسنا في مجال الدفاع عن أولئك الغزاة البرابرة أو النيل منهم ولكن دراستنا للنصوص التي وصلتنا عن المراجع المعاصرة والمطلقة انتهت بنا إلى نتيجة تخالف نوعاً ما ما هو شائع. فالمغول لم يخربوا نظام الري في العراق، وتخريبهم للمدن كان محدوداً في مناطق معينة أهمها بغداد والموصل. . .».

ثم يقول: «هولاكو لم يجر على سنة جده جنگيزخان بتخريب أكثر أو كل المدن التي تقع في طريق زحفه وقتل سكانها. ويبدو لنا أن الصورة التي رسمها المؤرّخون لفاتح بغداد المغولي إنما هي انعكاس للأعمال التي قام بها جده فيما وراء النهر وخراسان. . .».

ثم يقول: «وقد عهد هولاكو أمر تنظيم العراق وإدارته بعد الفتح إلى مسلمين يعرفون شؤونه ويعطفون على أهله فعملوا على إعادة تعميره ونشر الاستقرار فيه. .»[(١)].

---

(١) عين علي بهادر: شحنة، ومؤيد الدين بن العلقمي: وزيراً، وفخر الدين بن الدامغاني: صاحب الديوان، ونجم الدين أحمد بن عمران: صدراً للأعمال الشرقية، وأقر القاضي عبد المنعم البندنيجي على القضاء وتاج الدين علي بن الدوامي صدراً للأعمال الفراتية.

وكان هؤلاء باستثناء الشحنة من أهل العراق والعارفين بشؤونه والمشتغلين بإدارته في زمن الخليفة الأخير. وقد فوض إليهم هولاكو أمر تنظيم أمر إدارة العراق فاجتمعوا وقدروا أحواله ونظموها وعيّنوا حكامه وكبار موظفيه. وقد راعى هؤلاء ظروف البلاد الجديدة فاحتفظوا بالوظائف المهمة الضرورية وألغوا وظائف أخرى أو قلصوها وعيّنوا في بغداد نائب شرطة وخازن ديوان وصدر وقوف وهي وظائف عباسية قديمة وقسموا =

ثم يقول: «إن الكثير من تنظيمات العراق الإدارية والاقتصادية وأحواله الاجتماعية لم تخضع لتغييرات مفاجئة أو عميقة، بل إن الاستمرارية ظلت واضحة فيها فكأن البلاد فقدت الخليفة العباسي ووزراءه وعدداً من وظائفه، ولكنها احتفظت بالكثير من نظمهم ووظائفهم الإدارية».

ثم يقول: «. . . وأخذت شخصية البلاد الثقافية الناتجة من تراثها الغني العميق تعود إلى الظهور من جديد، كما ظهر بنو العباس وصارت لهم نقابة خاصة بهم».

ويقول عن بغداد: «. . . ومن هذا كله يبدو أن عبارات التخريب التي أوردها المؤرخون عما جرى للمدينة (بغداد) مبالغ فيها لأن المعالم الرئيسية للمدينة كقصور الخليفة والمدارس والأسواق وغالب المحلات بقيت دون أن يصيبها غير تخريب محدود أمكن إصلاحه في وقت قصير. . .».

ويقول: «يضاف إلى ذلك أن الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ــ وهو معاصر ــ يؤكد وجود دار الخلافة ودار الدويدار الكبير وجامع الخليفة والمدرسة النظامية وسوقها والمدرسة المستنصرية والمدرسة التتشية ومدرسة الأصحاب ومدارس وربط أخرى».

ويقول في (الحوادث الجامعة) ص ٣٣٣، وفي (جامع التواريخ)، ج ٢، قسم ١، ص ٥٩٥: أن هولاكو قد أمر بعد انتهاء عمليات الاستباحة بإصلاح ما خرب من المدينة وترميم أسواقها وإعادة أعمال أهلها إلى ما كانت عليه سابقاً.

رأينا فيما تقدم أسماء ثلاثة أشخاص عينهم هولاكو على رأس الحكم فور سقوط الحكم السابق لإدارة العراق بأيد عراقية وهم مؤيد الدين بن العلقمي وعلي بهادر وفخر الدين الدامغاني والقاضي عبد المنعم البندنيجي.

وإذا كان علي بهادر غير عراقي الأصل فهو متعرق، ويكفي أن يكون مسلماً،

= البلاد إلى خمس مناطق إدارية وضعوا على رأس كل منها موظفاً باسم (صدر) ثم عيّنوا النواب أي الموظفين والنظّار (الحوادث الجامعة، ص ٣٣٢ ــ ٣٣٣).

ولم يكن يومذاك للفروق العرقية ما لها اليوم من البروز، فقد كان الأصل وجود (وطن إسلامي) كل المسلمين مواطنوه.

وهكذا نرى أن هولاكو لم يحكم العراق حكماً مغولياً مباشراً برجال مغول، بل ترك حكمه لأهله مستقلين به[١].

ويمكننا القول أن أول حاكم فعلي حكم العراق بعد سقوط بغداد مباشرة هو عماد الدين عمر بن محمد القضوي القزويني، وهو وإن كان غير عراقي، ولكنه كما قلنا مسلم من مواطني الوطن الإسلامي الذي يشترك في مواطنيته العرب والفرس والترك والكرد وغيرهم.

وكل الأحداث تشهد أنه حكم العراق حكماً مستقلاً، وأن يده أطلقت في هذا الحكم إطلاقاً كاملاً لا تدخل مغوليا فيه، ولا سيطرة (هولاكوية) تحول بينه وبين تنفيذ ما يخطط لإنهاض الوطن.

ويصفه المؤرخ العراقي المعاصر للأحداث والمشاهد لها عن كثب، عبد الرزاق بن الفوطي بمثل هذا القول: «كان من أعيان أهل قزوين المعروفين بمتانة الدين وحسن اليقين»[٢]، اهـ.

إذن فاختيار الحكام لا سيما الحاكم العام لم يكن اعتباطياً ولا عشوائياً، ولا

---

(١) بعد أن استقر الأمر لهولاكو عين للإشراف العام على إدارة البلاد التي أخضعها كلاً من ابنه الأكبر أبقا للإشراف على العراق وخراسان ومازندران حتى نهر جيحون، وابنه يشموت على أران وآذربيجان، والأمير تودان على ديار بكر وديار ربيعة حتى شاطىء الفرات، ومعين الدين بروانه على آسيا الصغرى، والملك صدر الدين على تبريز، والأمير أنكيانو على فارس، وفوض منصب صاحب ديوان البلاد كلها لشمس الدين الجويني وأطلق يده في كل الأمور. وفوّض حكم بغداد إلى أخيه علاء الدين عطا ملك.

وصاحب الديوان: هو من يتولى في الدولة إدارة الشؤون المالية وما يرد إلى المملكة من واردات، ما يعادل ما اصطلح على تسميته في العصور الأخيرة باسم (وزارة المالية).

(٢) المعجم. (٤/ مادة عماد الدين).

يعهد به للمستهترين الطغاة الظالمين المستغلين للشعب، بل للمعروفين بمتانة الدين وحسن اليقين.

ثم يصف ابن الفوطي بعض ما فعله هذا الحاكم، في العراق عامة وفي بغداد خاصة: «. . . تداركهم الله بلطفه فقدمها (بغداد) وعمَّر المساجد والمدارس ورمّم الربط والمشاهد وأجرى الجرايات من وقوفها للعلماء والفقهاء والصوفية، وأعاد رونق الإسلام بمدينة السلام وحاز بهذا الفعل الجميل الذي يبقى على جبهات الزمان حسن الأجر والثناء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

وإذا كانت جملة في هذا الكلام تستحق الوقوف عندها طويلاً، فإننا نكتفي بالوقوف أمام جملة واحدة تغني عن الوقوف على كل ما عداها: «أعاد رونق الإسلام بمدينة السلام».

لقد عاد رونق الإسلام إلى مدينة السلام: عمرت المساجد والمدارس والربط والمشاهد، وأجريت الجرايات للعلماء والفقهاء والصوفية. . . أجل عاد رونق الإسلام إلى بغداد في ظل الحكم الاستقلالي الذي توفر للعراق بعد فتح بغداد! . .

والشاعر شمس الدين الكوفي الهاشمي الواعظ الذي رثى بالأمس بغداد عند سقوطها بيد هولاكو بمثل قوله:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار ... فما وقوفك والأحباب قد ساروا

يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديار

تاج الخلافة والربع الذي شرفت ... به المعالم قد عفاء إقفار

أضحى لعطف البلى في ربعه أثر ... وللدموع على الآثار آثار

عاد اليوم يقول في حاكم بغداد الجديد عماد الدين عمر بن محمد القزويني:

يا ذا العلى يا عماد الدين يا ملكاً ... بعدل سيرته يسمو على السير

لما اصطفاك لهذا الأمر منزله ... جبرت منا ومنه كل منكسر

جمعت عدلاً ومعروفاً ومعرفة والعدل ما زال منسوباً إلى عمر

أحيا المدارس من بعد الدروس بإ لقاء الدروس حياة العلم والفكر

وعاد كل رباط بعدما هجرت أرجاؤه عامراً بالذكر والسمر

رددت للجامع المعمور رتبته الأولى وأبقيت فيه أحسن الأثر

فيه صلاة وتذكير وموعظة وجمعة وقبول البحث والنظر

ألبست مشهد موسى[(١)] إذ حللت به الحلي بعد لباس البؤس والضرر

فالله يشكر ما أوليت من حسن وسائر الخلق والمبعوث من مضر

وإذا كانت مدة عماد الدين في حكم العراق لم تطل فقد خلفه في منصبه علاء الدين عطا ملك الجويني سنة ٦٥٧ الذي تركه المغول يستقل بالعراق استقلالاً كاملاً والذي تفوّق على سلفه في التوسّل بجميع الوسائل الممكنة لبعث حركة عمرانية كبرى في العراق بأسره، فهو الذي جدّد المدارس المتداعية وأنشأ جملة من المدارس ودور الكتب وغير ذلك، كما أنشأ جملة من الرباطات والملاجىء والمستشفيات وأجرى عليها الجرايات، وعني بتعمير المشاهد في النجف وكربلاء والكاظمية، وحفر الأنهار والترع. وهو الذي شجع حركة التأليف والمؤلفين وأجزل العطاء والبذل لهم. ومن هذه الناحية نجد جملة من أمهات الأسفار والمصنفات في شتى الموضوعات العلمية والأدبية والتاريخية مهداة لخزانته أو خزائن أهله وذويه. وفي الوسع أن نقول: أن الجويني بز جميع من حكموا في عهد المغول في بعث حركة إنشائية كبيرة شملت العراق وارس وآذربيجان[(٢)]، واستمر عطا ملك في منصبه طوال حكم هولاكو إلى أن توفي هذا سنة ٣٦٣ وحل محله ابنه آبقا، فظل عطا ملك في عهده مستقلاً بحكم بغداد وسائر العراق، وكان مهتماً ــ كما قلنا ــ بتعمير البلاد وصالح العباد فخفف من الضرائب التي كانت تجبى من الفلاحين والدهاقين وأجرى القنوات وأنشأ القرى وشق نهراً من الفرات إلى الكوفة والنجف وكلفه ذلك قرابة مئة ألف دينار ذهباً وأسس على ضفافه مئة وخمسين قرية

(١) مشهد موسى: مشهد الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام.

(٢) ابن الفوطي للشبيبي، ج ٢، ص ١٤٥ ــ ١٤٦.

فعمرت الأراضي القاحلة واخضوضرت، كما بنى رباطاً قرب مشهد أمير المؤمنين في النجف. ولم تمض مدة وجيزة على سقوط بغداد بيد المغول حتى عادت إلى وجهها المشرق واطمأن الناس فعادوا إلى أعمالهم وزراعاتهم، فتضاعفت عائدات بغداد. حتى ليقول ابن شاكر الكتبي في كتابه: (فوات الوفيات) ج ٢، ص ٧٥ ــ ٧٦: كانت بغداد أيام علاء الدين عطا ملك) أجود مما كانت عليه أيام الخليفة. كما قال اليونيني في ذيل مرآة الزمان: (ج ٤، ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥)، عن عطا ملك: كانت سيرته من أحسن السير وأعدلها بالرعية.

واستمر حكمه في بغداد ما يقرب من أربع وعشرين سنة، ست منها في عهد هولاكو وسبع عشرة سنة في عهد أباقا إلى سنة ٦٨٠، والسنة الأخيرة كانت في عهد تكودار.

ويقول الشبيبي في الجزء الثاني من كتابه ابن الفوطي: «وفي سيرة علاء الدين (عطا ملك) الجويني كل ما يدل على التنكر للوثنيين الطغاة من حكام المغول وإعادة الأمم الاسلامية المغلوبة على أمرها في الشرق إلى العيش في ظل راية إسلامية ولو كان هؤلاء المسلمون من الشعوب المغولية ا هـ.

ونقول: إن أعظم إنجازات عطا ملك عمله متعاوناً من رجال أسرته على إدخال المغول في الإسلام. وهذا ما قد نتحدث عنه في موضع آخر.

بين الطاغيين

جنگيز وهولاكو هما من طينة واحدة: طينة الطغيان والظلم وسفك الدماء وإخراب العمران. وكل منهما هاجم الوطن الإسلامي وانتصر عليه، وقد رأينا فيما تقدم مصير البلدان الإسلامية التي افتتحها الطاغية السفاح هولاكو، فبغداد مثلاً بدأ فيها القتل العام والتخريب العام ثم أوقفا في الحال، ولم يلبث أن حكمها وما إليها، حكام مسلمون استقلوا بها استقلالاً تاماً أعادوا إليها رونقها وبهجتها، ما فصلناه فيما تقدم.

ولم تتعرض أي مدينة إسلامية للإحراق والتخريب والهتك في الزحف

المغولي الهولاكوي، ما عدا الموصل التي لم يعرض لها المغول بشيء أول الأمر إلى أن عادت فثارت عليهم فنالها ما نالها من الأذى. وعدا حلب في بلاد الشام ما يحتاج إلى توسع ليس هذا مكانه.

ولنقارن هذا المصير بالمصير الذي صارت إليه المدن التي دخلها جنكيز جد هولاكو، ولنبدأ بالمدينة الأولى (بخارا): إن بخارا لم تصمد للحصار سوى ثلاثة أيام ثم طلبت الأمان وفتحت أبوابها لجنكيز وجيشه، فكان أن انطلق المغول فيها يقتلون وينهبون ويهدمون ويهتكون الأعراض، ثم أشعلوا فيها النار ومضوا عنها إلى سمرقند مستصحبين معهم من سلم من البخاريين أسارى.

وكذلك فعلوا في سمرقند التي دخلوها في شهر المحرم سنة ٦١٧ فأعلنوا في المدينة بأن يخرج أهلها جميعاً ومن تأخّر قتل، فخرج الجميع رجالاً ونساء وأطفالاً، فأعادوا ما فعوه في بخارا من القتل والنهب والأسر والهتك والتعذيب والتخريب.

وظلّوا على ذلك في كل ما فتحوه من مدن، قتلاً وأسراً ونهباً وهتكاً وتخريباً.

لماذا سار جنكيز ذاك المسار الفظيع فيما اجتاز من بلاد؟ ولماذا لم يسره هولاكو الذي لا يقل عنه شراسة وعنفاً واستهانة بإهراق الدماء وإحراق المدن ونهب الشعوب؟!.

قد يصعب الجواب عند غير المتعمق في درس وقائع التاريخ وأحداثه وعند غير المدقق في استطلاع رجال التاريخ صانعي تلك الوقائع والأحداث، وعند من ظل أسير رواسب عششت في قلبه وعقله، فلم يتخلص منها...

ولكنه لا يصعب عند من يقدر له الغوص في أعماق التاريخ البعيدة.. البعيدة، وعند من يدرس التاريخ بحثاً عن الحقيقة مهما كانت هذه الحقيقة...

مضى جنكيز فيما مضى فيه من أصالة الشر في نفسه لأنه كان يمضي بلا كابح يلوي عنانه ويروّض جماحه ويثني من انطلاقه!.

فالمسلمون الذين صحبوه كانت لهم مصالحهم التجارية ومنافعهم الشخصية وضعفهم النفسي، وقد كانت انتصارات جنگيز تؤمن لهم المصالح والمنافع فلم يبالوا بغيرها، وحتى لو بالوا أو بالى بعضهم فقد كانوا في نفوسهم أضعف من أن يتصدوا لشيء، وكانوا في واقعهم أصغر من أن يبالي بهم جنگيز.

أما هولاكو الذي لا يقل أصالة في الشر عن جده جنگيز فقد كان له كابح يلوي عنانه ويروّض جماحه ويثني من انطلاقه، هذا الكابح الذي لم يكن مثله لجنگيز.

هذا الكابح تمثل في شخص الرجل المخلص القوي النفس الماضي العزيمة الذي إذا قال عنا السامع لقوله، ولو كان هذا السامع هولاكو الجبار العاتي...

ما كان أبلغ كلمة محمد مدرسي التي افتتحنا بها هذا الفصل وهي: «فضلاً عن مقام الطوسي العلمي استطاع بتأثيره على مزاج هولاكو أن يستحوذ تدريجياً على عقله وأن يروّض شارب الدماء فيوجهه إلى إصلاح الأمور الاجتماعية والثقافية والفنية».

كان فضل نصير الدين الطوسي على العالم الإسلامي باضطراره لمصاحبة هولاكو ـ كان فضله أن لم يكن مصير: قزوين وهمذان والدينور وكرمنشاه وحلوان وأسدآباد والبصرة وتستر وكل مدن خوزستان، ثم بغداد(1) وبعد ذلك ديار

(1) يقول في (الحوادث الجامعة) ص ٣٣٣، وفي جامع التواريخ ج ٢، ق ١، ص ٢٥٩٥ ومؤلفاهما معاصران مشاهدان أن هولاكو أمر بإصلاح ما خرب من المدينة (بغداد) وترميم وإعادة أعمال أهلها إلى ما كانت عليه سابقاً.
وهكذا نرى أن الطوسي حمل هولاكو على إعادة ما خرب أو احترق من المدينة على نفقة الدولة.
وصاحب كتاب (مراصد الاطلاع) الذي كتب كتابه بعد فتح بغداد يتحدث عن محلات بغداد ومواقعها بما يدل على واقع الحال يومذاك:
فهو يقول عن سوق الثلاثاء أنه (سوق بغداد من أعمر أسواقها وهو سوق البزازين).
وعن محلة المأمونية أنها: «محلة كبيرة طويلة عريضة ببغداد بين نهر المعلى وباب الأزج). وعن باب الأزج أنها (محلة كبيرة ذات أسواق كثيرة ومحال في شرق بغداد). =

بكر ومدن الجزيرة وحماه وحمص والمعرة ثم دمشق وصولاً إلى غزة لم يكن مصيرها مصير بخارا وسمرقند وكل ما كان في طريق جنگيز الطويل من مدن، حرقاً واستباحة وتدميراً وأسراً وانتهاكاً. .

ثم كان فضله بأن حمل هولاكو على أن يمنح البلاد استقلالها الكامل فيحكمها المسلمون لا المغول وأن يختار لحكمها الحكام الصالحين العادلين الذين قادوها في معارج الرقي والنهوض والإعمار والعلم، والذين كانوا ـ كما وصفهم معاصر لهم ــ: «معروفين بمتانة الدين وحسن اليقين. . .».

= وعن قراح ابن زرين (وأهل بغداد يسمون البستان قراحاً. وفي بغداد عدة محال تسمى بقراح مضاف إلى رجل يعرف باسمه). ثم يقول عن قراح ابن رزين أنه (أقرب المحال في وسط البلد). وذكر أن محلة المقتدية في الجانب الشرقي وأن محلة المختارة (بين باب البرز وقراح القاضي ومحلة المقتدية) وعن قراح ظفر أنه (ظاهر محلة الظفرية). وعن محلة قراح القاضي: (إذا خرجت من قراح رزين على يمينك درب واسع فيه درب قراح القاضي على يسارك ثم يمتد إلى قراح أبي الشحم، وفيه دروب عن يمينك وشمالك). وعن محلة القبيات أنها (محلة ببغداد وراء قراح أبي الشحم). وقد وردت محلة البصيلته تحت اسم البصلة وورد عنها أنها (محلة في طرف بغداد في الجانب الشرقي متصلة بباب كلواذى). وعن قطيعة العجم أنها (بالجانب الشرقي في أسفل البلد بين باب الحلة وباب الأزج: محلة عظيمة كبيرة فيها أسواق كأنها مدينة برأسها). وعن الظفرية أنها (محلة ببغداد متصلة بالحريم الطاهري باقية إلى الآن وبها سوق) وعن نهر المعلى أنه محلة وأنه (من عقد الجديد إلى عقدي المصطنع في الشارع الأعظم من الريحانيين وباب النوبي إلى باب جامع القصر إلى العقدين وفيه السوق والدكاكين). وعن الجعفرية أنها (محلة كبيرة مشهورة في الجانب الشرقي من بغداد). وعن القريّة بالتصغير أنها (محلتان ببغداد إحداهما في حريم دار الخلافة وهي كبيرة فيها محال وسوق والأخرى بالجانب الغربي) وعن الحلبة أنها (محلة كبيرة ببغداد قرب باب الأزج). وقد أورد صاحب المراصد هذه المحلات دون أن يشير إلى خرابها. يضاف إلى ذلك أنه أورد عدداً من الدور المهمة في بغداد. (ص ٤٠ ــ ٥٩). يضاف إلى ذلك أن كتاب (الحوادث الجامعة) ــ وهو معاصر ــ يؤكد وجود دار الخلافة ودار الدويدار الكبير وجامع الخليفة وقد أحرق وأعيد إصلاحه، والمدرسة النظامية وسوقها والمدرسة المستنصرية والمدرسة التتشية ومدرسة الأصحاب ومدارس وربط أخرى (ص ٣٣٠ ــ ٤٢٦).

وكان من فضله أن أقام تحت سمع هولاكو وبصره معاهد العلم وخزائن الكتب وأغدق على العلماء المال فتجردوا لنشر العلم وتأليف كتبه. يقول ابن الفوطي في (الحوادث الجامعة ص ٣٥٣: «إن هولاكو كان يحب العلماء والفضلاء ويحسن إليهم ويجزل صلاتهم ويشفق على رعيته ويأمر بالإحسان إليهم والتخفيف عنهم ولم يثقل عليهم ولا كلّفهم ما جرت عادة الملوك به من التكليفات والتوزيعات وغير ذلك» وانظر أيضاً شذرات الذهب ٥/ ٣١٦ ونقول: هذا كله كان بتوجيه نصير الدين. ثم مهد الطريق لإسلام المغول وأعد جيلاً واعياً ليوالي المسيرة بعده.

المخطط الذي وضعه نصير الدين الطوسي لإنقاذ العالم الإسلامي من براثن المغول ووثنيتهم الحاقدة على الإسلام وأهله، والهادفة إلى تقويضه في دياره بالقضاء على سلطانه ثم زلزلة العقيدة وتحطيم الفكر ونشر الجهل. .

المخطط الهادىء المتواري عن الشبهات الذي وضعه نصير الدين كان يؤتي ثماره ثمرة بعد ثمرة. فالكتاب الإسلامي سلم من الاندثار وتجمعت خزانته الكبرى في مراغة، والعلماء المسلمون عاد فاجتمع شملهم من جديد، والمدرسة الإسلامية استأنفت سيرها، والفكر الإسلامي أخذ بالتألق والازدهار! . .

بقي التغلب على المغول نهائياً. التغلب العسكري كان مستحيلاً، ولكن لماذا التفكير بالتغلب عليهم عسكرياً، لماذا لا نذيبهم في الإسلام؟ لماذا لا نتغلب عليهم عقائدياً بدل أن نتغلب عليهم عسكرياً، إذا استطعنا أن نحيلهم مسلمين وننتزع الوثنية من نفوسهم كان ذلك هو النصر الأكبر.

هذه هي الخطوة الكبرى التي كان يخطط لها الطوسي بعد نجاحه في الخطوات الأولى. إن نجاحها ــ لما يعترض طريقها من مصاعب ــ، كان يبدو مستحيلاً. . .

ولكن الذي استطاع أن «يروّض شارب الدماء»، وأن يستغفل الجبار الطاغية فيقيم تحت سمعه وبصره مكتبة الإسلام ويشيد مدرسة الإسلام ويقيم مجمع علماء

الإسلام، سيستطيع بإخلاصه وإيمانه الذين لا حد لهما وبعقله الكبير وفكره المنظم وتدبيره الحازم، سيستطيع أن يشرب قلوب المغول الميل إلى الإسلام، ثم اعتناق الإسلام.

فأعدّ لهذه المرحلة الحاسمة جماعات واعية تحسن التخطيط والتنفيذ كان في الطليعة منها: (آل الجويني) الذين نشأوا على حب أهل البيت، وما يبعثه هذا الحب من إخلاص وحمية ونضال وتفان في سبيل الإسلام.

ثم في النهاية أسلم المغول على يدي تلاميذ الطوسي، ونجح مخطط الطوسي نجاحه الأكبر.

لقد أجبر (هولاكو) بجبروته نصير الدين الطوسي على السير في ركابه قصداً لاستغلال علمه، ولكن الطوسي عرف بعلمه وعقله وتدبيره كيف يستغل هولاكو، فانهزم الطغيان أمام الايمان والعلم والعقل الكبير المدبر.

إن الطوسي وتلاميذه صمدوا للجيوش الجرّارة فاستحالت بهم مسلمة بعد وثنيتها... فكان الطوسي بطل الإسلام في عصر عزت فيه البطولات.

يوجز الزركلي في كتابه (الإعلام) وصف الطوسي قائلاً: «فيلسوف كان رأساً في العلوم العقلية، علامة بالأرصاد والمسجطي والرياضيات. علت منزلته عند هولاكو فكان يطيعه فيما يشير به عليه».

الأسير المغلوب على أمره عاد يأمر فيطاع، عاد الآسر أسيراً، والأسير آسراً!..

كانت في هولاكو إلى قوة الجند وقوة السلطة: قوة الشخصية. ويقابل ذلك في الطوسي قوة العلم وقوة الفكر، وإلى ذلك قوة الشخصية...

عنا القوي في جنده وسلطته إلى القوي في علمه وفكره، لأن كل ما لدى الأول من سيوف ورماح ونبال وتروس لا يستطيع أن يرفع حجراً فوق حجر في جهاز المرصد، ولا أن يقيم آلة من آلاته. فكل ما لدى هولاكو من سيوف ورماح ونبال وتروس لا يوازي في هذا المقام جرة قلم يقلّبه الطوسي بين أنامله...

وهولاكو مشغوف بالمرصد طامح لإقامته، فلا بد له من أن يعنو!.

وهنا بقي التقابل بين الرجلين في قوة شخصية كل منهما، فبان التفوق في شخصية الطوسي فيما عبر عنه الزركلي بقوله: «علت منزلته عند هولاكو فكان يطيعه فيما يشير به عليه».

وكان فيما أشار به عليه أن لا يرهق البلاد المفتوحة وأن لا يسير فيها بسيرة جده من الإحراق والتخريب والقتل والنهب، فأطاعه..

وأن يترك حكم البلاد لأهلها وأن يطلق يدهم في النهوض بها وإصلاحها وإعمارها فأطاعه..

وأطاعه في كل ما أمر به من خير، وفوض إليه أموال الأوقاف الإسلامية لينفقها على المدارس والعلماء والمتعلمين، وعلى الكتب والمؤلفين..

لم يكن مستطيعاً أن يحول بين هولاكو وبين الفتح، ولكنه استطاع بإخلاصه وإيمانه وقوة شخصيته أن يحول بين هولاكو وبين السير على طريقة جنگيز في شرور هذا الفتح، ثم استطاع أن يحفظ للبلاد المفتوحة حريتها واستقلالها وحكمها بأهلها...

وختم حياته بأن مهد لدخول المغول في الإسلام.. فتم له ما أراد.

(ملحق)

نصير الدين الطوسي العالم الرياضي

بعد كتابة ما تقدم قرأنا مقالاً في جريدة الحياة اليومية في عددها الصادر في ٢٩ تشرين الأول سنة ١٩٩٦ للعالم الفيزيائي أحمد فؤاد باشا أستاذ الفيزياء في كلية العلوم بجامعة القاهرة وعضو المجمع العلمي المصري، فيه ذِكْر لنصير الطوسي ومساهماته العلمية آثرنا نقله بكامله هنا:

مساهمات ابن الهيثم والخيام والطوسي في تطوير البراهين الرياضية

انتزع علماء المسلمين من مؤرخي العلم والحضارة شهادتهم الصريحة بما ابتكروا وأسهموا في مجال علوم الرياضيات والهندسية والارتقاء بها نظرياً وعملياً. وساعد تقدم العلوم الهندسية بخاصة على تقدم تقنية الهندسة المعمارية متمثلة في المباني والقصور والمساجد التي نهضت في الشرق والغرب، ولا تزال خطوطها وزخارفها ودقة أشكالها وتنسيقها محل إعجاب حتى اليوم. كذلك تقدمت تقنية هندسة الري لأن أعمال الري وتوزيع المياه تتطلب معرفة دقيقة بمستوى الأرض وانحدارها وبكمية المياه وسرعتها ومجراها، وبمواد البناء وخصائصها واختيار الأنسب منها لبناء السدود والتحكم في التوزيع.

ويمكن القول أن: الهندسة التطبيقية المستخدمة في الحياة العملية لتعيين مساحات الأراضي وحدودها لتقدير الخراج، وتحديد مساقط الخطوط على الأرض لضبط عمليات البناء، كانت معروفة لدى المسلمين قبل اطلاعهم على تراث الحضارات القديمة عموماً، وحضارة الأغريق خصوصاً«....».

وعندما نتحدث عن الهندسة النظرية بما فيها من بنية منطقية وأنساق منهجية تعتمد على بديهيات ومسلمات ومبرهنات، فإننا نعود إلى نقطة البدء من هندسة إقليدس في كتابه «الأصول الهندسيّة».

وقام الحجاج بن يوسف بن مطر، الذي عاش في أيام الرشيد والمأمون بالترجمة والتعليق

على كتاب «الأصول الهندسية» لإقليدس مرتين، الأولى أطلق عليها اسم «الترجمة الهارونية» والثانية عرفت باسم «الترجمة المأمونية». كذلك ترجم هذا الكتاب إلى العربية كل من حنين بن إسحق وأبي الريجان البيروني، الذي كتب رسالة في حل شبهة عرضت في المقالة الثالثة عشرة. وأتاحت هذه الترجمات الفرصة للتعرف على أحد فروع الرياضيات الذي يتعامل مع النقطة والخط والسطح والفراغ ويعنى بدراسة الأشكال من حيث الحجم والمساحة.

ويضم كتاب «الأصول» جل ما نعرفه اليوم عن الهندسة الإقليدية ويدرسه طلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية من التعليم العام، ويقع في خمس عشرة مقالة: منها أربع مقالات في السطوح الهندسية، ومقالة في المقادير المتناسبة وأخرى في نسب السطوح بعضها إلى بعض، وثلاث مقالات في العدد والتمثيل الهندسي ومقالة في المنطق، وخمس مقالات في المجسمات.

حظي كتاب إقليدس في الهندسة باهتمام علماء المسلمين، فمنهم من قام بدراسته دراسة وافية شاملة، ومنهم من اختصره وزاد على نظرياته وتفنن في البراهين وطرق حل المسائل، ومنهم من ألّف على نسقه وابتكر مسائل هندسية جديدة ما زال بعضها يعرف حتى الآن باسم أصحابها، مثل مسألة ابن الهيثم التي اكتشفها عندما بحث انعكاس الضوء بطرق هندسية. وتنص مسألة ابن الهيثم على أنه: «إذا فرضت نقطتان حيثما اتفق أمام سطح عاكس فكيف تعين على هذا سطح نقطة بحيث يكون الواصل منها إلى إحدى النقطتين المفروضتين بمثابة شعاع ساقط والواصل منها إلى الأخرى بمثابة شعاع منعكس». وحلول هذه المسألة كثيرة متنوعة، وهي تتراوح بين اليسر والسهولة في الأحوال العامة، وحينما يكون السطح العاكس مستوياً، وبين الصعوبة والتعقيد إذا كان السطح العاكس كروياً أو اسطوانياً أو مخروطياً، أو حينما تعتبر حالات خاصة. وتؤدي هذه المسألة إلى معادلة من الدرجة الرابعة، حلها ابن الهيثم بواسطة تقاطع دائرة من قطع زائد.

واعتبر اقليدس في كتابه أن المسلمات أو المصادرات POSTULATES الخمس التي تنطلق منها سائر العلوم الهندسية هي:

١ ـ يمكن أن نخط خطاً مستقيماً بين أي نقطتين.

٢ ـ يمكن أن نمد خطاً مستقيماً على استقامته.

٣ ـ يمكن أن نرسم دائرة على أي نقطة وبأي بعد.

٤ ـ الزوايا القائمة كلها متساوية.

٥ ـ إذا قطع خط مستقيم خطين مستقيمين آخرين فصيّر الزاويتين الداخلتين على جهة بعينها انقص من قائمتين فإن المستقيمين يلتقيان في تلك الجهة إذا مُدّا على استقامتيهما.

نلاحظ أن المُسَلَّمات الثلاث الأولى ما هي إلا رسوم هندسية للخط المستقيم والدائرة،

والمسلمة الرابعة تقرر حقيقة تساوي الزوايا القائمة وجعلها مقياساً تقاس الزوايا به وتنسب إليه. أما المسلّمة الخامسة فهي نظرية يتحقق فيها التقاء مستقيمين مرسومين على سطح واحد إذا تحقق شرط محدد. وإذا كان المقصود بالمُسَلّمة هو أنها قول أو حكم أو فرض يمكن قبوله والتسليم بصحته من دون حاجة إلى برهان، فإن هذا المفهوم يمكن أن ينطبق على المُسَلّمات الأربع الأولى، لكنه يحاط بالغموض والشك في ما يتعلق بالمُسَلّمة الخامسة التي كانت هدفاً لنقد علماء الرياضيات منذ ظهورها، ورفضوا اعتبارها من القضايا التي يجوز التسليم بها دون برهان، فقد يُسَلِّم المرء بأن في إنقاص الزاويتين الداخلتين عن قائمتين ما يستلزم بالضرورة تقارب الخطين من جهة هاتين الزاويتين، لكن هذا وحده لا يكفي للجزم بأن الخطين لا بد ملتقيان في نقطة ما. إذ من المعلوم أن هناك خطوطاً هندسية يقترب الواحد منها نحو الآخر باستمرار من دون أن يلتقيا أبداً مثل القطع الزائد والخطين المقاربين له.

إذن فالمسلمة الخامسة لإقليدس ما هي إلا فرض راجح الصدق، ولما كان رجحان الصدق لا يكفي للإقناع في الرياضيات والهندسة فلا مفر من البرهنة عليها. وبعد ترجمة كتاب إقليدس إلى العربية تصدى لشرح هذه المُسَلّمة وبرهانها كثيرون مثل البيروني وثابت بن قرة والحسن بن الهيثم وعمر الخيام ونصر الدين الطوسي والجوهري وغيرهم.

إن تناول علماء المسلمين لنظرية الخطوط المتوازنة، أو المُسَلّمة الخامسة لإقليدس يعكس طريقتهم العلمية في البحث العلمي. وعني ابن الهيثم، على سبيل المثال، بشرح مصادرات(مسلمات) إقليدس، ويعتبر كتابه «حل شكوك إقليدس في الأصول وشرح معانيه» من أهم المؤلفات التراثية التي أثارت العديد من المجادلات والمناقشات العلمية وفتحت الباب لمزيد من التأليف في هذا المجال الخصب من المعرفة. ويوضح ابن الهيثم منهجه العلمي في مقدمة كتابه بقوله: «كل معنى تغمض حقيقته، وتخفى بالبديهة خواصه، ويشك به في بعض أحواله، فالشك متسلط عليه وللمعاند والمشكك طريق مقنع إلى معاندته والطعن عليه، وخاصة العلوم العقلية والمعاني البرهانية، إذ العقل والتمييز مشترك لجميع الناس، وليس جميعهم متساوي الرتبة فيها، وليس يذعن واحد من الناس لغيره فيما يدعي صحته بالقياس، ولا تصح دعواه في نفسه إلا بعد أن يصح له ذلك المعنى بقياسه وتمييزه الذي استأنفه هو وتشكك صحته في عقله، والمصادرات (أي المُسَلّمات والبديهات) تنقسم إلى ثلاثة أقسام: المُسَلّم به والمبين بالقياس والمحدود، كل مُسَلّم به يحتمل التشكك، أما المبين بالقياس فيمكن أن يتشكك بمقدمات قياسه، وأما المحدود فيمكن التشكك والطعن في حدوده، وإن كتاب إقليدس في الأصول هو الغاية التي يشار إليها في صحة البراهين والمقاييس ومع ذلك لم يزل الناس قديماً وحديثاً يتشككون في كثير من معاني هذا الكتاب وكثير من مقاييسه».

ويشار إلى سمة مهمة من سمات الشخصية العلمية الحقيقية التي يتمتع بها ابن الهيثم، وتتمثل

في إدراكه الواعي لأهمية ما يسمى «بالشك المنهجي» عند البدء في تناول موضوع علمي بالبحث والدراسة. فهذا الأسلوب يمكن أن يستخدمه الباحث الناضج بإرادته، رغبة منه في اختيار معرفته وعدم تأثر تفكيره بالأخطاء المألوفة التي تشوب الثقافة السائدة في مجتمعه أو التي يقرأها في الكتب. وهذا النوع من الشك يعتبر في حقيقة الأمر أحد عناصر اليقين في تحصيل الحقيقة العلمية وترجيح صحتها. وهو يختلف عما يعرف بالشك الحقيقي أو المطلق الذي يزاول لذاته وبغيره إرادة من صاحبه، فيعيش في حال ريب متكاسل يبدأ فيها وينتهي بالشك وعدم الثقة في بلوغ أعلى درجة من الصدق واليقين.

وهناك بين الباحثين من يرى في الشك المنهجي القوة الموقظة في تاريخ النشاط العقلي، ويرجع إليه كل نزوع إلى النقد الصحيح وحرية البحث وعبقرية الاكتشاف في ماضي المعرفة وحاضرها. فمثل هذا الشك العلمي منهج يتبع عند اختيار المعرفة أو امتحانها أو عند العمل على كسبها، وقد عرفته الدراسات العقلية الحديثة وأيده التحليل السيكولوجي الحديث. ذلك أن الاعتقاد والإنكار في رأي الكثيرين من علماء النفس مظهران لحال نفسية واحدة. فالضد الصحيح للاعتقاد هو الشك والبحث وليس الإنكار، وإذا صح هذا كان الشك بهذا المعنى ضرورياً لكل معرفة علمية صحيحة في مجال السلوك أو البحث التجريبي أو النظري، بل أن اكتساب المعرفة وتحصيل المعلومات الصحيحة يقدم على اتجاه عقلي يعبر عنه بالشك في بادىء الأمر.

ولعل هذه السمة المنهجية في تفكير ابن الهيثم هي التي جعلت عالماً رياضياً معاصراً مثل الدكتور علي مصطفى مشرفة يقول عن كتاب «حل شكوك إقليدس»، الذي نحن بصدد الحديث عنه، «إن المطلع على كتاب ابن الهيثم في حل شكوك إقليدس يلمس دقة المؤلف في التفكير وتعمقه في البحث واستقلاله في الحكم، كما يتضح له صحة إدراك ابن الهيثم لمكانة الهندسة الإقليدية من العلوم الرياضية على أنها دراسة منظمة للعلاقات والمقادير المكانية من ناحية كونها علاقات أو مقادير دون نظر إلى ما يمكن أن تدل عليه من موجودات. فابن الهيثم في هذا الكتاب رياضي بحت بأدق ما يدل عليه هذا الوصف من معنى وأبلغ ما يصل إليه من حدود».

كان طبيعياً أن يؤلف ابن الهيثم بعد ذلك رسالة خاصة بدراسة نظرية الخطوط المتوازية ضمنها محاولته لبرهان المسلمة الخامسة لإقليدس بمفاهيم جديدة تتناول الحركة والحس والتمييز، وصاغها في منطوق جديد مؤداه «إن الخطين المتقاطعين لا يوازيان خطاً واحداً». وتفهم عمر الخيام مفاهيم ابن الهيثم وانطلق منها إلى برهان جديد مستنتجاً أن مجموع زوايا أي شكل رباعي تساوي ٣٦٠ درجة، وأن مجموع زوايا أي مثلث تساوي قائمتين. ثم جاء بعد ذلك نصير الدين الطوسي في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي وأظهر براعة فائقة في معالجة المسلمة الخامسة من مسلمات إقليدس وقدم برهاناً جديداً على أن مجموع زوايا المثلث تساوي زاويتين قائمتين، فتداولته كتب

الهندسة التي تدرس في جامعات العالم، وقال عنه المؤرخون أنه بداية عصر جديد في علم الرياضيات الحديثة.

ويعترف المؤرخون للعلوم الرياضية بأن برهان نصير الدين الطوسي يعتبر نقطة التحول في تطور علم الهندسة وظهور الهندسات اللاإقليدية الجديدة التي تلعب الآن دوراً عظيماً في دراسة الفضاء الكوني وتفسيرات النظرية النسبية بعد أن تطورت على أيدي الروسي لوباتشوفسكي والألماني ريمان وغيرهما. ولا يزال هناك الكثير من النظريات والأفكار الهندسة التي تم الكشف عنها في ثنايا الكتب والمخطوطات التي تم تحقيقها، أو التي تنتظر جهود المخلصين من أهل الاختصاص للبحث عنها وتعريف الأجيال برواد العلم وصناعه الحقيقيين من نوابغ العرب والمسلمين.



الفهرس